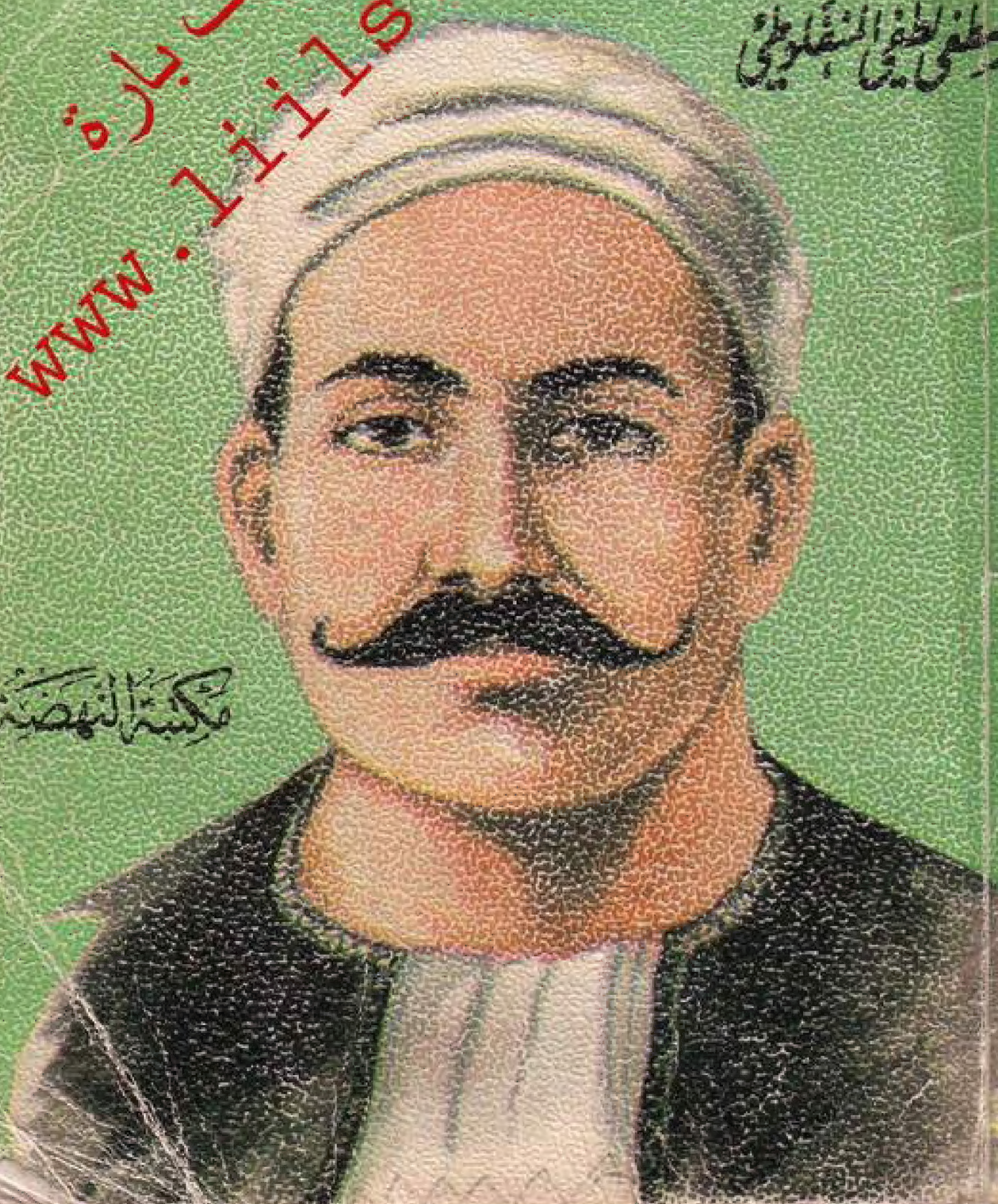


# مكتبة

مصطفى لطفى المنغلطي

www.1111s.com

مكتبة النهضة





ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدتها ، فإذا نال مني الشعب أويت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلها قليلاً ، فلا يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقي منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأنني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، فأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفتت وجدتي لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالماً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراماً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب من القلوب وتمتلئ الحداق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أخلو فيها بنفسي فأناجيهها بهمومي وأحزاني وأدرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صدري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الهموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مأتاه ، حتى يخيل إليّ أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشتد خوفي واضطرابي .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحبون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنني لا أعرف لي

عام ما عالجته ، ولا يوم شفاه فلرجوه .

كفى أسباب العيش حاضرة لدي ، وأني لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتني . ولا هناك غير هنائي ، ولا يمجبه منظر من مناظر الخصال في العالم سوى أن يراني باسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أغفل أمر حديقته أحياناً حتى تذبل أوراقها وتحت زهراتها في سبيل قضاء مراقي وساجاني ، فانا إن شكوت فإني أشكو بطراً وأشرأ وكفراناً بأنعم الله التي يسبها عليّ ويسبها إليّ ، ففطرتك اللهم وزجرتك ، فإني ما اعترفت بمحبك ، ولا أحسن القيام بشكر أباديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيتها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهرم أغصانها ، ونجني ثمرها . ونظير في سعادتها بأجنته من الآمال والأحلام ، فأندبها وأبكي عليها ، وأمن إليها حين الليل إلى مطلع القمر والحدب إلى ديمة القطر .

( ٣ )

من إدوار إلى استيفين

الآن عرفت أنك لا تتق بي ولا تتحد عليّ وأنت لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين أكرت معاضبتهم والبرم بهم من أفراد أسرته ، فقد كنت عني ما كنت أوجو أن تنفسي به إليّ من تيرم ذات نفسك فيما اعزمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكني لم أؤثر أن أنزل بك في القود إلى المنزل التي نزلت بي إليها ، فلم أبدأ من أن أكتب إليك .

إنا نبتنا معاً يا استيفين في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة يفتونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شيئاً فاختلنا كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منيهما ثمرة وشكلا ، ولذلك أنت تفر مني الفرار كله وتنفض عني ، ولا تراني أسلك فجاً من فجاج الأرض إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تسعد بحياة غير التي أسعد بها ، ونهاً بعيش غير الذي أنا به ، ونطرب لنعمة غير التي نسمعا مني ، ولا نستطيع أن نرى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جلية لا غموض فيها ولا إبهام .

إنك لا تنفسي يا استيفين ، ولكنت لا تحب أن تراني ، لأنك تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ، فانت تخاف أن تسع مني ما يفسدك في صورتك وأحلامك ، ويكثر عليك لذلك التي تجدها في العيش في ذلك العالم العالي المظلم ، وتفتح بها فيه فناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح عيالهم السوداء .

نحن كما نشاء وعش كما نريد ، فستقضي أيام شبابك وستقضي بانقضائها أمانيك وأحلامك ، وهناك نزل من سمائك التي نظير فيها آل أرضي التي أسكنها ، فتعارف بعد التناكر وتواصل بعد التماطل وتلتقي كما كنا .

لا بد أن تفرق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد اليوم لأننا ستفق ، فلا بأس أن نكتب إليّ وأكتب إليك ، وأن نتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ، ورعاية لما حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلوه فيه عن نفسها وتبرز من مكنها .



إن أهلك يمجون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكثرت بهم ، وأضللتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا بينك التي اتبعتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن ذلك في الزواج من تلك الفتاة التي أهدتها لك ، وغدي أسم أصابوا فيما يقولون ، وأنت غطيت فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والدك فقير لا يملك من المال أكثر مما يسع لأيام حياته ، ولقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وعنايته لولا أنك شاعر ، والشعراء يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أعرك بحبك كثيراً ، ولا يزال يحدني عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

( ٤ )

### خواطر استيقظ

مضى الليل إلا أنه ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الشجر ولا أزال سامراً قلق المصبح ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأعتف بالفض فلا أعرف السبل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويهزأ بي ، ويقلني يوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأحلاماً باطلة ، ما كنت أحبه أبداً وأكلاماً ، ويرى أن جميع ما أقدره نفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يستنون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا يسر من أن يصدها بطقه وعنايته حتى تخرج ثمارها وتنتج أزهارها ، وإن الذي أنبت في جنتي هذه القواعد والخوافي لا يرضى أن يبقيني ويتركني في مكاني كبيراً لا أبهى ولا أعز . وإن الذي سلبي كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن يشعروا على القصوة كلها فيسلي تلك الثعالة الباقية التي هي ملاك مجيشي ، وقرام حياتي ...

على أنني ما دعيت بعيداً ، ولا طلبت مستجيلاً . فكل ما أطمح فيه من جمال هذا العالم وزخرفته ، رفيق أس بقربه وجواره . وأجد للعيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين عذاب النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يمتد بالمرأة التي خلقت له فيقر قراره ، وبقي عصاه .

ويعد : فأني مقشور من المقشورات تضيق به قوة الله وحكمته ، وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يدع في تصوراتيه وتجلياته اللعنية ثوب ما تدع يد القدرة في مصنوعاتها وأعمالها ، وهل الصور والخيالات التي تتخلل بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا رسوم شبيهة لحقائق هذا الكون وبساتينه ، ولو أن سامعاً سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند زواله ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شعور جبل من الأجيال . ثم



رأى بعد ذلك حياناً ، ما كان يراه تصوراً وخيالاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات وحقائق الموجودات فوق حوائف الخيالات ، لذلك اعتقد أنني ما تخيلت هذه السعادة التي ألتذرتها لنفسي إلا لأنها كانت من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا ريب فيها .

إن اليوم الذي أشر فيه بنية آتالي ، وانقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يجيها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يفتق بغير حب .

( ٥ )

الحب

نزل استيقن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول منكتفاً على نفسه فلم يرد من أن يحبه فحياء بتحية حبي بأحسن منها ، ثم أراد أن يستمر أدواجه فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شفتيه فاستحيا أن يعضي لسانه فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى مسامه ، فأراد استيقن نفسه على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل لرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً ، أو أمراً مريباً ، ثم استمر مولر في حديثه بقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره علي إلا تلك الرعدة التي أشر أنها تمشي في أعصابي ، فما أمر بلادي الشبخرة ، وما

أنقل موثقتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بتكباء ولا رمضان ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم بتكبير الغراب إلى قسم الجبال وضواطئ الأنهار عاري الرأس حالاً القدم ، أروح وألب وأناثر طرائد العبد في مسارحها وملاعبها ، فأصبحت ولم يبق لي من تلك التذكريات إلا وفوي في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من غيوبها البيضاء كساء أنفي به هذه الرعدة ، وأنتظر نظري بروية القنيات الصغيرة صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك القنينة الثلجية . وهنا وجد استيقن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين لم نزل اليوم كعادتها لعلها بخير . قال : نعم ، هي بخير ، ولكن غيباً من أقرباتنا نزل بنا أسس فلم أر بداً من أن أكمل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لتألي . وإن كنت أعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تتحفر إليها من نافذة غرفتها . ثم ذهبت في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، وإنهما لكذلك إذ فتحت باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقبلان بعديهما فتهلل ، وتحدثه فيسهم ، وكان منظرهما منظر عاشقين يتنازلان ، لا قريبين يتسامران . فتهلل لاستيقن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا مستطاب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يظهر بالنظر إلى بعض الزهرات وود لو وجد السبيل إلى الحرب منهما لولا أنهما اعترضا طريقه فسلما عليه فرد رداً قاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خبيلة من الخمائل ، فما خطا فيها بعض خطوات حتى سمع الفتي يغرب في الضحك ، فما



شك أنها في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئها وسخرتها ،  
وأبهما ماضحكا إلا لثبث به والرواية عليه ، فأحس في قلبه بديب  
البعض لذلك القنى ، وود يبدع الألف لو وجد السيل إلى منازلته  
في ميدان خصام يقربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذي فيه  
عنه ليقنع أنه ليس سخرية الساهر ، ولا أضحوكة الفاحك .

ثم عاد إلى نفسه يسألها عن السبب في انقباضه وروحته ،  
وعن تلك الحال الغريبة التي آلت بفؤاده منذ الساعة ويقول :  
مالي ولهذا القنى ؟ وبأي حق أحصل له بين جنبي ما أحصل من  
الضيق والمجدة ؟ فما أنا بملش لقنائة فأغار من عليها ، ولا  
هو يزاحم لي على هوى فأبغضه فيه ! ولم يزل يسأل نفسه أمثال  
هذه الأسئلة فلا يجبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه  
لا يسمع خارج الحقيقة صوتاً يبرز من مكانه فلم ير أمامه أحداً  
تخرج من الحقيقة حائماً على وجهه بين الثبات والأحراش حتى  
أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإته ليس أمام  
باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد  
نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشيد ، وأنه لا بد أن يكون  
سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا يفس  
الإنسان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً ، فزيت في مشيه  
قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقفه ،  
فدنا منهما وأنتأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم  
انقطعاً عن الحديث وأنتأث ماجدولين تغني غناء شجياً قد يكون  
عقياً لليقين في نفس استيفن لولا أن أدنا أخرى غير أدته تراحمه  
على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع حلق نعال تنضم نحو  
الباب . فابتعد عن مكانه حتى خرج القنى وخرجت ماجدولين  
وراءه تنشيع في غلالة رفيقة بيضاء لا تليها الفتاة إلا بين يدي

متبقيها أو من لا تخشعه من ذوي قرباها ، فرأى في وجهها  
صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل ، وأحس في نفسه بشيء  
غير الذي كان يحس به عند رؤيتها ، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت  
الباب ورأىها فعاد إلى موقفه الأول ، وما زال راكماً أمام بابها  
حتى مدت جلوة النهار في فحة الليل ، فصعد إلى غرفته ،  
وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الخليلان ، ولا الجنون  
ولا الوسواس ، ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !

(٦)

### الدعوة

دخل مولر على ابنة ذات يوم فقال : يا بنية إني دعوت  
اليوم جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا  
في الساعة السابعة فأعدي له الطعام ، واعطي أنك متبقيتا في هذه  
الليلة فقد وعدته بذلك ، وقد لقيت من كرم هذا القنى وطور  
هفته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطيابه  
ما حبه إلي ، وأنزله من نفسي الميزة العليا ، ولا بد أن أتقده  
صديقاً ، وأن تكون تلك الدعوة فاتحة تلك الصداقة ، ثم تركها  
وخرج إلى الحقيقة وظل مشتغلاً بشأنه فيها حتى مالت الشمس  
إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المظلة عسل  
الحديقة ينتظر ضيفه ، وإته لكل ذلك إذ رآه خارجاً من باب الحقيقة  
يبدو عدواً شديداً ، وفي يده رسالة مفضوضة لهفت بابته يقول :  
يا ماجدولين ، ما أحب إلا أن جارنا قد حبل بينه وبين الوفاء  
بوعدته فقد رأته الساعة خارجاً يبدو من باب الحقيقة ، ثم رأته



قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى غرض إلا بعد  
سفر عشرة أيام ، فقالت : لا بد أن يكون قد عرض له شأن  
ما كان يقدره في نفسه . فلا بد أن تنتظروه حتى يعود . ثم جلسا  
صامتين ، هذا يدخن نargasه وتلك تحبب ثوبها ، حتى علما أنه  
لن يعود ، فقاما إلى العشاء ، ثم إلى المنام .

(٧)

### الزيارة

جلس مولر إلى ابنته ، فظهر نظره في النجوم ، وقال : ما  
لحسب إلا أن السماء تستطرقا في هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل  
هذه التربة القاحلة ، ويملأ هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع ،  
وما أجمل غيوته المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام  
من نسج يده تلك الغلال الخضراء ، فقالت ماجدولين : لا تنس  
يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل  
هذه الليلة الماطرة من تدفق القيوت فوق رؤوسهم واضعاض  
الروحول في طريقهم ، وبعد الشقة عليهم ما لا طاقة لهم باحتوائه ،  
فوارحمناه لهم إن الشقاء كامن لهم في كل شيء . حتى في الشروق  
التي يسعد بها غيرهم ، فاكتاب مولر وقال : نعم يا ماجدولين  
إنهم أشقاء برؤساء ولا بد أن يكون استيفين واحداً منهم ، فقد  
مر المزيج الأول من الليل ، ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد  
ما قضى ليلة أمس خارجه ، فأخطلت هذه الكلمة مكانها من نفس  
ماجدولين فأطرقت برأسها تغلب صحائف كتابها ولا تقرا منه  
شيئاً ، وإليهما كذلك إذا طارق يفتق الباب غفلاً ضعيفاً ،

فأضطربت ماجدولين ودعش مولر وقالت جنتياف إلى الباب  
فتفتحه فإذا استيفين مائل بعينه حاسداً ودخل ، وهو يقول :  
عفواً يا عبيدي إن كنت ترى أنني لم أف لك بو عدي فقد أرسل  
إلي أنني كتاباً يدعوني فيه إلى مقابلته على الحدود لتوديعه قبل  
سفره إلى الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء . حتى عن اضغاري  
إليك فمشيت إليه عشرة أيام لا أثريث ولا أنتد حتى يلغته فودعته  
وداعاً جمع بين السرور له والحزن عليه . أما السرور فلأنني  
رأيت فرحاً مضطراً برحلته يعني أنشودة الحرب مرة . وبلاعب  
جواده أخرى . وبمضي مشية الحيللاء بين دهرش قبعة وخمائل  
سيفه . وأما الحزن فلأنني أخاف أن يسبقني العدو إليه فيحول بيني  
وبينه . فأصبح في هذه الحياة طريقاً منفرداً ، لا أجد بين هذه  
القلوب العاققة حولي قلباً يحزن لحزني . ولا يسير حسده  
العيون الناطرة إليّ عينا ليكي هيكاني . وهنا ذرفت من عينه دموع  
كادت ليكي غا ماجدولين . ولكنها لم تفعل ذلك حياة وعجلاً ،  
وأثقت عليه نفرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتى إذا  
لثقت إليها استردت نظرتها وألقنها على صفحة كتابها ، فقال  
مولر : لا تنزع يا ابني فانه أرحم بك من أميك وأرحم بأنبيك  
من نفسه ، ثم أخذ يده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معاً وأثناء  
مولر يحدث صاحبه عن الشاي ومفرسه ، ومنته وأحواله وأوراقه ،  
وأناوذه وألوانه ، وطريقة طيخه وأصل كلمته ومقدور اشتغالها  
وأراء علماء الليات في ذلك ورجود بعضهم على بعض ورجوده  
هو عليهم جميعاً ، وما زال يترثر في ذلك ويسهب طائلاً أن استيفين  
حاضر معه واستيفين عنه في شغل بما يختلص من نظرات ماجدولين  
وما تختلص من نظراته حتى فرغا من شايهما ، فأفترج مولر على  
أبته أن تعني لها صوتاً فأنشأت نغمة نغمة تحالطها رعدة الحانف



أو ردة المحزون ، فما أتت عليه حتى حارب له استيقظ طرباً ملك  
عليه قلبه وأحاط بمواطنه ومقارعه ، وشمر كأن القضاء بقدر  
به ، وكان قد بدلت الأرض غير الأرض والسوات ثم عاف  
أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتهاعض للقيام فمشى معه  
مومر إلى الباب يشيعه ويقول : زونا يا استيقظ كلما بدا لك أن  
تقل ، فما دون مزارك باب موصد ، فالتصرف بقلب غير قلبه ،  
وحقل غير حقله ، وحال بين جنبه غريبة لا عهد له بمثلها  
من قبل .

(٨)

## المسراة

قفت ماجدولين ليلتها راكبة في معبدتها مستترقة في صلاتها  
تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، ويبر لها ظلمة هذه الحياة  
الجديدة التي بدأت تسير فيها ، وقد ألت بنفسها في تلك الساعة  
عاطفة غريبة متنوعة الألوان مخلفة الأشكال ، كأنها هي مزيج  
من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء  
الغالب ، فكانت تنسم مرة حتى تلعب ثيابها وتبكي أخرى حتى  
يبتل ردائها ، ولا تعلم ما الذي أصحكتها ، ولا ما الذي أبكها  
ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر الكرى فوق أجنحتها ،  
فاضطجعت في معصلاها ، وأسلمت ودوها إلى خالقها .

أما استيقظ فقضى إليه جالساً إن نائمة لحرفته بقلب وجهه في  
السما كأنها هو يساهر كواكبها ونجومها ، ويقضي إليها بما لم

بنفسه في تلك الساعة من سروره إلا أنه أصبح يشعر في نفسه سرد  
الراحة من البحث على ضالة غرام ظل يشدها ويتعلق بأثارها  
عهداً طويلاً حتى وجدها . وأن نفسه التي كانت حية بين جنبه  
قد أشرقت عليها شمس الحب فالتفتت ورفرت بمناحيها في  
القضاء . فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحمدك اللهم فقد ظفرت  
بالحياة التي كنت أقدرها لنفسي ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها  
في مخيلتي ، وما المرأة إلا الأمل الذي تشرق منه شمس السعادة  
على هذا الكون فتبهر ظلمته ، والبهير الذي يعمل على يده لعنة  
الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته  
وموته ، والمراج الذي تخرج فيه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ  
الأعلى ، والرسول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال  
الله وجلاله ، هي وجه هذه الفتاة التي عثرت بها اليوم قد صبرت  
بجاني وسعادتي ، ويليني ولإيماني .

وكان يحيل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذي  
ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي يراها بين يديه ،  
فكان يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف  
الأشجار صوت الحب ، ويسمى في السيم المترقق رائحة  
الحب ، ويرى في كل ذرة نيراً باسماً ، وفي كل نامة عودة ناعماً .

ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن  
وجه الصباح فهجع في مرقده قليلاً . ثم قام فزول إلى الحديقة  
يتربق نزول ماجدولين إلى منزلهما فلم تنزل حتى أخذت الشمس  
مكانها من كبد السماء . فراه من أمرها ما رآه فلم ير بداً من  
زيارة مولد فمشى إلى المنزل يقدم مضطربة وقلب حفاق حتى  
بلغ الباب فقرعه . ثم شعر أن شجرة من شعب قلبه قد سقطت



بين أضلاعهم . وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا يتلقن ولا يبين  
فندم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبل . وتحتى لو  
قررت اتخاذه قليلاً في عطلاتها إليه حتى يستجمع رويته وثباته .  
ويسترد إليه ما تفرق من نفسه . فكان له ما شاء ولم تفتح حجابات  
الجاب إلا بعد فراغها من شأن كان لها . فسألها أين مولر فغشت  
أبصارها إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبر سيدها بمكانه .  
وكان يقرأ في قاعة الكتب . فلما خلا استيقن بنفسه أحد يدور  
بعينه في جواب الغرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً يلوح  
من وراءه سرير قائم . فعلم أنه مخدع ماجدولين . فسمع فلم  
يز أحد فهاجمه الشوق إلى اقتحامه فافتحه . وهو يعلم أنها  
المخاطرة بعينها ولكنه كان على حال لا يتفجع فيها بما يعلم . فدخل  
واقرب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعشعاً . ولكأن رأس  
ماجدولين من الوسادة لا يزال متخففاً . ورأى بين يديه السرير  
حوضاً مملوءاً ماء وإلى جانبه كرسي قد انتشر فوقه رداء مبلل .  
ثم نظر إلى الأرض فرأى ثلاثاً يمثل أقداماً صغيرة . فعلم أن في  
هذا السرير كانت ماجدولين نائمة . وفي هذا الماء كانت تبرد  
وبهذا الرداء كانت تنمضج . وعلى هذه الأرض كانت تنقل .  
فجمد في مكانه حدود الصبر في هيكله . وأخذ يقول في نفسه  
لقد سعد السرير الذي لاسمها . والرداء الذي ضمنها . والأرض  
التي ثلثت أقدامها . والماء الذي اندثر على جسمها . ثم مشى  
إلى الزداه المنتشر فأخذ يلمسه كما يلم العابد الشدد ستائر معبده .  
ونهاضت على الأرض يميل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه  
أنه يسمع من وراءه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منتصباً إلى مكانه  
الأول . فمابث إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فبرأه وقال له :  
عفوا يا استيفن فقد شغلني عملك أي كنت أفتش في قواميس اللغة

عن أصول أعلام ثباتية ما زلت معنياً بأمرها منذ اليوم . لعل  
لك أن تكون عوناً لي عليها على شرط أن لا تفرق منزلي قبل  
الغداء . فابنضم استيفن بضاعة الرضا والقبول . لأنه علم أنه  
سيقتضي وقتاً طويلاً في منزل ماجدولين . ثم ذهباً معاً إلى قاعة  
الكتب فلما ألقاها مكانها منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك  
الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه عندها  
التيات في مصادر اشتقاقها وما بدا له في التأخذ عليهم . فإذا ورد  
في كلامه اسم كتاب قام إلى خزنة الكتب واستخرجه وتصفح  
أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريدتها فيشرها بنقطة الهازية الساخر  
ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان ! أما أنا فأرى غير ما يراه !  
وماذا عليّ إن بدا لي غير ما بدا له فالعلم ليس وفقاً على المؤلفين  
والمقدمين إنما هو قرع الحجة بالحجة ودفع الرأي بالرأي .

وما زال يهبط في حديثه عذير الحمل المخشوش واستيفن لاه  
يردد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين . عله يرى ماجدولين  
داخله . فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف  
أن يلج عليها الغرفة والرج فيكنز عليها خلوتنا . فاعلم أنه ما من  
أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمرى ويقترحم على باب  
قاعتي من غير إذن . وهنا صاحبت الخادم لدعوه إلى الغداء فلم  
يقطع حديثه . فصاحت به مرة أخرى فنهض متثاقلاً ومشى  
مببطاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام . فراح استيفن  
أنه لم ير حول المائدة غير مقعدين . فعلم أن أحدهما له . وأن  
الأخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر . فوجم وجوم الخزين  
المكتتب واستمر بأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغي إلى حديث  
حتى فرغاً . فقال له مولر : لقد أراد الله بي خيراً إذ أرسلك  
إليّ في هذا اليوم فقد كنت لا أجد لي في هذه الوحدة مؤسلاً .



ولا على هذه المائدة رفيقاً ، لأن ابنتي سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل الحديقة لترتاض فيها قليلاً ؟ فنزلاً ، فما أمتنا فيها إلا قليلاً حتى سمع مولر صوت انذار تصيح به من الثالثة أن قد عادت سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودعاً وتركه مكانه حائراً مشدوهاً وليس وراء ما به من ألم غاية .

(٩)

### الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين في الحديقة فر من وجهها ، وسلك طريقاً غير طريقه ، ليختل بنفسه لحظة يدور فيها الموقف الذي يلقه بين يديها ، والتحية التي يجعل به أن يحييها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل في سبيل ذلك من ألم ما يفلن مضجعه ويغفل سنده ، ويحول بينه وبين قراره ، فلا يرى بداً من القرار بنفسه إلى اللذات والأحلام والقيام على وجهه في قدم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ليروح عن نفسه بعض ما ألم بها ، واستمر على ذلك أياماً طويلاً لا يمتشي في الحديقة ولا يرى ماجدولين ولا يزور مولر ، حتى ثقلت نفسه ، وذعب به اليأس كل مذهب ، فعاد يوماً من بعض مذاهبه محموراً لا يكاد يتماشك ضيقاً واضطراباً فلزم غرفته أياماً يطالع داء قلبه وذاء جسمه ما لا طاقة له باحتماله .

وكانت جنيف قد أملت بمحلة حاله فكاشفت بها سيدتها فقص

إلى غرفته ليعوده فقرأه مستيقظاً بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له علواً فجلس إليه بمحادثة ساعة ، فلما أراد القيام مد استيفن يده إلى ملانة بتفجع كانت في آنية إلى جانب وسادته وقال له : إني جمعت هذه الطاقة لماجدولين لأنني أعلم ولعها بالقرب المستطرف من الزهر ، فقل لك تنوب عني في تقديرها إليها ، فأخذها مولر شاكرها وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيفن بين يأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمة الله فأبلى من مرضه فنزل إلى الحديقة وقد استقر في نفسه العزم على أن لا يفر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، ويتفحص لها جملة حاله ، ولم يلبث أن رآها مقبلة عليه وجهاً لوجه فلم ير سبيلاً للفرار من بين يديها ، فحيها فحيته ثم أغشى فأغضت ، فلم ير بداً من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المريب ، فاستنصر قوته وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق حرة عبيته ، وأراد أن يقول شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحسد الله على أن كلفه تلك المؤونة ، قالت : أراك يا سيدي شاحب اللون ، غائر النفس فملكك عابله من مرضك هذا عناء كبيراً ، قال : نعم ، قالت : أشكر لك يا سيدي هديتك الثمينة التي بعثت بها إلي ، ولقد أعجبتني منها أن تلك الزهرة هي أحب الزهور إلي ، فكانت أملت ما في نفسي ، وإني أعجب لشعرائنا في إغفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها وروائها ، ولا أذكر أنني قرأت لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيتي ، وهنا وجد استيفن مشعراً في الحديث عن الشعر والشعراء ، والنيات والزهر ، فاستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودعته وانصرف ، فصعد إلى غرفته وقد



مزم أن يرأسها فيما عجز عن مقاومتها فيه .

لصاحته تراجع وكفكت يده شأ بها أن تلوثها بأقدامها تلك اليد السوداء .

( ١٠ )

من سوزان إلى ماجدولين

كما قد علمنا على أن تزورك في فريتك يا ماجدولين أنا والدي  
فحدثت حادث حال بيننا وبين ذلك : دعانا أحد الأصدقاء لزيارته في  
بلدته . وهي على بعد ثلاثة أميال من فريتا ، ولا تبعد عن فريتك  
إلا قليلاً فذهبنا إليه مسبعة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات  
حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الغلاء  
لتأخره في غايته وأرجائه . وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمرني  
أنني لا أجد في نفسي تلك الثقة التي يجدها الشعراء السخيون في  
جمال الطبيعة وحسنتها . ويحبونها وروايتها : ولا أغبط عما يغبطون  
به من منظر الغابات والأحراش والجبال والأنهار . ولا أغرب  
تجوير الماء ، ودوي الرياح . وهزم الرغبة . وحرارة الشمس ،  
وروح الطريق ، وحشوة الأرض ، واقتحام الضفدع ، والضمير  
بين أنوار الغداة وأجسادها . كما يظنون . ولكنني لم أر يدأ  
من مصانعهم ومخاملتهم . فمشيت صامتة ومشوا يتحدثون بمخام  
الحياة القروية . ويشبهون بعض العزلة بين سكوك الطبيعة  
وهذوتها . وجمال الكائنات وجلاها . وقد يعلم أنه ما من أحد  
منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتبع نفسه  
ذلك الشقاء الذي يجسد الأذى عليه . فكان مثلهم في ذلك كمثل  
أولئك الكتاب المرائين الذين يكتبون القصص الطوال في مدح  
العلاج ، والتبوية بذكره . والله على يده البيضاء في خدمة المجتمع  
الإنساني . حتى إذا مر ذلك السكين بأجسادهم وأراد أن يثد يده .

وما زلت كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فرأينا أن رأينا هناك  
جسماً عظيماً من الناس يتدفع فوق الشاطئ الآخر تدفع الموج  
المراكم ، ويشير إلى الماء بأصبعه وينادي : الغريق الغريق !  
التجدة التجدة ! فالتفتنا حيث أشاروا . فلما رجل بين معترك  
الأمواج بصارع الموت والموت يصرعه ويطلب القضاء والقضاء  
يقبله ، يطفو نارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يدأً تمد إليه ، ويرسب  
أخرى حتى تبتسط قرفة صفحة النهر فتحميه من الغالكنين ، وما  
زال يتخط ويتثبث ، ويظهر ، ثم يختفي ، ويتحرك ثم يسكن ،  
حتى كمل ساعده ، ووهبت قوته . وأيضت عيناه . واستحال  
أفوه . ولم يبق أمام عيننا منه إلا رأس يضطرب ، ويد تلتلج ،  
فيكني بالكون وأعول المعولون . ونظر الناس بعضهم إلى بعض  
كأنهم يشاملون من رجل رحيم ، أو شهم كريم . وإنهم لذلك  
إذا رجل عار يدفع الجميع بمكنية . ويترلق بين الناس اتزلاق  
السهم إلى الرمية ، حتى ألقى نفسه في النهر ونسج حيث هبط  
الغريق قهبط وراءه . وما هي إلا نظرة والفتاة أن المرج الماء  
عنها فلما هما ساعدان . وقد أمسك الرجل بلراع الغريق .  
فكبر الناس إعجاباً بجمه المخلص ، وفرحاً بنجاة المسكين .

ولكننا ما كنا نستطيع من هذا المنظر المحزن حتى رأينا منظر  
آخر أجمل منه وقماً وأعظم هولاً . فقد رأينا الغريق كأنه بين  
جنوته فلق أن عاصبه يزبد به شراً ، وأنه ما أمسك بلراعه إلا  
وهو يريد أن يهوي به إلى فاع الماء لطيفه سيرته الأولى . فأقلت  
منه وضربه يجمع يده في صدره بحرية شديدة . ثم ألتب أظفاره



في حقه ولقد سألني لفة خلفنا أن عظامه تئن لما أتينا ، فاستبان  
الرجل وعلم أنه حالك ما من ذلك يد ، فرجع يديه إلى السماء  
وحث باسم أظنه اسلك يا ماجدولين ، فلم أقهم ماذا يريد ،  
ولا من هي تلك التي يريد ، ثم ما لبث أن هوى الماء بهما ، وجرى  
جراه قرفهما ، فحققت القلوب ، ووجعت الصدور ، وخفت  
الأصوات وانعدت الأعناق ، وتوالت الأحشاء وترايلت الأعضاء ،  
ومشى اليأس في الرجاء مشى الظلام في الأضواء ، وموت على  
ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، فخرعت  
إلى أبي ذائعة حائرة وقلت : أيتدب الغرق كثيراً في مصارعة  
الموت ؟ ليكن ليكنائي ، وقال : نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر  
بعضهم أن يلدو يده في قاع الماء يفتش عن حيز يضرب به  
رأسه ضربة قاضية بشرح بها من الآلام والأوجاع . فركعت  
على كتف من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت اللهم إني  
أعذل من أن يجازي بالإحسان سوءاً وبالجور شراً ، لقد أبل هذا  
الرجل في إنقاذ هذا الغريق بلاء حسناً ، وبذل في سبيل ذلك من  
ذات نفسه ما ضمن به الناس جميعاً ، فأنقذ بذلك إلى الله التي  
طالما سجد لها الإنقاذ البائسين واكتشف عنه كبريته التي يعالجها إنقاذ  
لرحم الراحمين .

ثم استقرت في دعائي ، فلم أعد أشعر بشيء مما حولي ،  
حتى سمعت ضجة على الشاطئ . فاستيقظت ، فإذا النهر يتألم  
عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى بلغ سطح الماء فهاتف  
به الناس : أن اتج بنفسك فقد أبليت ! فأبى عليه كرمه ووقاؤه  
أن يكون قاسياً أو متعصماً ، فألقى بنفسه في الماء مرة أخرى ،  
وعاد بالبريق يحميه على كفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطئ .  
فقطاً جميعاً . فتوالت القوم أمراًهما ، وما زالوا بهما حتى ألقا ،

ومشى الغريق إلى مخضه بعد ما ألم بقعته معه يتوجع له ويصحه ،  
ويشكر له يده غنده ، ويحذر له من ذنبه إليه ، ثم انقضى الجميع ،  
وبقي الرجل وحده وليس ثابته ، ثم مشى يتحامل على نفسه إلى  
شجرات ينسج كفن على الشاطئ . فأخذ يفتعل من زهراتها  
ويضعها في منطقتة ، كأنها يريد أن يتخذ منها طاقه يجعلها لتلك  
الحادثة تذكرها . فركناه غسل حافة وعظنا إلى المنزل صابئين  
عزوفين ، وقد غابت ما كنا نؤمل من رؤيتك في ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقد أصبحت لا  
أذكر تلك الحادثة إلا وأجد للذكرها من الألم في نفسي ما  
يحيل إلي أنها حاضرة بين يدي . وربما كتبت إليك فيما بعد ،  
والسلام .

( ١١ )

### المكاشفة

حال ميزان النهار ، والتحدت الشمس إلى مغربها ، ودب  
الظلام في الأضواء ديب الرجاء في الأحشاء وسكن كل صوت  
إلا صوت الصفير المرحمة على أبواب أعشاشها . وجلس  
استقر في العديقة تحت ظلال أشجار الزيزفون يرقب نزول  
ماجدولين . وقد كتب لها كتاباً فلق في قلبه بما عجز عنه لسانه ،  
فشره بين يديه وأثأ بقلب لظرو فيه فخيّل إليه أنه غير مستعجب  
ولا سأل ، وأن في كل جيلة من جيله موضع ضعف ، فاستقر  
رأيه على أن يطويه حتى يكتب لها خيراً منه ، ثم وأما مقبله فهو  
يحمل في يدها كتاباً ، فلما دلت منه استمت له وقالت له : أنظر



سيدي مكان الشجرات التي اقتطعت منها زهرات البقع  
 التي أهديتها إليّ ؟ فاضطرب لوالها ، وقال : نعم ، إنها على  
 شقة من صغير يبعد عنا قرصاً أو فرسخين ، قالت : اقرأ هذا  
 الكتاب فإن لك فيه ذكراً ، فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة  
 الغريش وأمر نظره عليه مراراً عرفت كل شيء ، فزده إليها مائة  
 وهو لا يدري ماذا يقول ، فقالت : إنك تكلم عني نفسك يا  
 استيف قد عرفتك وعرفت بك البقاء في حادثة الشرق وبلاك  
 فيها وما عالجك من آلام الحصى على أترعها ، ثم مدت يدها إليه  
 فصافحت ، فلم يكن بين تلامس كفيهما ، وحقوق قلبهما  
 إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ،  
 وليست بعد ذلك ساعة صامتة لا يتلفان ، إلا أن في الجبين لغة  
 لا تفهم إلا العيون ، فقرأ استيف في وجه ماجيدولين لوحة الحب  
 ولم الخزن ، واضطرب الخش وخيرة النفس ، وقرأت في وجوه  
 الحب والسعادة والذهشة والسرور اللغوي والدمع المتروقي فهاجها  
 هذا انظر فأرسلت من عاجزها أول دفعة من ذنوع الحب ،  
 فبكى ابتكائها وحنا عليها حنو المضعفات على القليل ، وشعر في  
 نفسه وقد قسمها إليه تلك العاطفة اللذيذة التي يجدها الغريب الثاني  
 عن أهله وجيرانه إذا لاقى في مطاوع غربته غريباً مثله يؤولي إليه ،  
 ويحس عليه ، ثم أخذ يدها فألفسها بكده كلما يفعل الغريب  
 فأنه ليده على موضع ألم ، وكأنما هو يقول لها : إن لغة الناس  
 لا تكشف لك عما اشتعلت عليه أفعالهم من الوجد بك ، والحنين  
 إليك ، فالمني قلبي يدك تعبري مكنونه ، وتكسني غامض سريره ،  
 ثم خر راكعاً بين يديها وقال : ألتصيني يا ماجيدولين ؟ فلم تجب ،  
 فأعاد كلمته فاستمرت في مستها ، فقد يده إليها ضارباً وقال :  
 رجعتك يا ماجيدولين ، إليّ أعفان أن أكونك في حلم ، وأن تكونك

عده السعادة التي أرواها بين يدي خيالاً من الخيالات الكاذبة التي  
 كانت تترامى في أحلامي المائبة فأقبط بها وأسكن إليها حتى  
 إذا ما استيقظت وجدت يدي صغراً منها ، فأسميني كلمة الحب  
 لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأني لست والهاً ولا حلاً .

ومرت بها على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسها إلا  
 من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا يشعران  
 أنهما في معزك عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة في أفرادهما  
 ومكنونهما وهاتئنا وخطبتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ،  
 قبل أن يأكلا الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد  
 تفردت عن جسمهما فطاروا ترفرف بأجنحتها في لقاء الملائكة  
 الأعلى ، فزادت اندوارات الشمس في أفلاكها وحركات الكواكب  
 في منازلها ، ومزت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زجلها  
 وتنبيحها تحت قوائم العرش ، ودخلت جنة الخلد قرأت حورها  
 وولداها ، ولؤلؤها ، ومرجانيها ، وروحها وورعائها ، فلم يستيقظا  
 من غمرتهما حتى سمعت ماجيدولين صوت جنيفات تناديا ،  
 فمدت إليه يدها مودعة وهي تقول : لقد في مثل هذه الساعة  
 في هذا المكان ، قد يده إليها ذاعلاً لا يعلم ماذا يراد به ثم مدت  
 ومضى بظفره على آثارها حتى انقضت آخر طية من طيات ودانها  
 الأبيض ، فوجد في مكانة ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل  
 أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع عقيق بابها دار بينه  
 حول قلبه بئس وبسرعة فعلم أنه جالس وحده .

خرج استيفن بعد ذهاب ماجنولين هائماً على وجهه يمد في عرض الفضاء يتحير إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، وكأنه يريد أن يشهد الأرض ، والسماء ، والبحار ، والأنهار ، والجبال ، السحاب ، والسهول الفيحاء ، والحيوان الناطق ، والجمادات الصامتة ، على سروره وتعظيمه ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي تافها من فوق ما يحتمل حرقه ، فكان كلما مر بأحد من الناس حدثه نفسه أن يقضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءاً من سعاده ويز بأطلاق يلبسون فيجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نشر عليهم كل ما معه من المال ، ويوده لو ملك مفااتيح الأرزاق فأصبح على الناس جميعاً أئمة وآلاء فمنحاً يؤسهم وشقاءهم . وما زال يتغفل في احتشاء القلام منبسطاً مياسراً صاعداً متعقراً ، حتى رأى باب الحقيقة مفتوحاً بين يديه فالتحمة ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المبعث من بين ستائر غرفة ماجنولين فحبل إليه أنه يرى قيامها وتعودها ، وحيتها ودعائها ، وبسمع حفيف ثوبها ، وشخششة أوراق كتابها ، حتى انطلق الصباح ، فاضمد إلى غرفته وجلس إلى مكتبة يكتب إليها كتاباً غزيراً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره وغام نوماً عادوا لذيلاً حلم فيه أحلاماً ما رأى مثلاً بعد ليالي طفراته الحسية .

لا أزال أشعر حتى الساعة بخيال ذلك المقام الذي قمته بين يديك أسير ولا أزال ألس صديري يدي لأعلم أين مكان ظني من أفعالي مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي كل ما يبتغي الحب أن يكون ، والتي لا أعتقد أن أبناء الخلود يقننون لأنفسهم في دار نعيمهم غيراً منها ، ولو أن لأمرى أن يعيد من يسدي إليه أفضل النعم وأسبقها ، وأجمعها لكل غير ولو ، لوجدتني يا ماجنولين سائداً بين يديك في كل مطلع شمس مسجود العيد الشاكر للإله النعم .

إن الله لم يبيني نعمة الجمال التي وهبك ، ولم يجعلني يثل ما جعلك به من رقة الحس وعذوبة النفس ، فإن أنت أحببتني فقد أحببت في مجرداً من مزايي القتيان ، لا يستطيع أن يمت إليك يثل ما تحين به إليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما أنتك منها ، فإن كنت تزين أن الإخلاص في الحب والوفاء بالعهد ، وهبة النفس هبة خالصة بلا دهم ولا أسف ، غزية استحق لما عطيته لها أفنذا أقدمها بين يديك ، فغنيها مني وقولي إنك سعيدة كما أنا سعيد بك .

قدم استيفن كتابه إلى ماجنولين يداً بيد فتمشت حينما رائته



وألفت عليه نظرة الحائر المتردد ، فظهر إليها استيفان نظرة المتوسل المستعطف ، ففتلته منه وغبته في ثيابا صلبها ، وقالت : أصبح يا استيفان ما حدثني به سوزان في كتابها أن السبي كان آخر كلمة خفت بها في الباطن التي كنت تحسب أنها آخر صلاتك في الحياة ؟ قال : نعم ، ولقد كنت يركة هذا الاسم ما كنت أقدر نفسي من النجاة عندما خفت به . فقد علمت أن الله ما متحكك هذه النجاة من الجمال ولا جعلك بما جعلك به من الحسن الملال . إلا وأنت آخر بنات حواء عبده ، وأكرمهن عليه ، فهو أمن بك من أن يفرح قلباً يخفى عليك ، أو يفرس لساناً يهتف بذكرك . فعلمت باسمك في شأني كما بعدة المؤمن في شدة باسم الله ، فكانت لي خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت في شدتك هذه عباء كثيراً ، ولقد كنت فيما فعلت من القوم المحسنين ، قال : فلما كنت غنياً قبل اليوم ، ولكنه الحب ملا القلب رحمة وحياءً ويصغر في عبته عظام الأمور وجلالها ويوحى إليه أفضل الأعمال وأشرفها . أما ما لقيت في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحصل المحتمل ، فقد غلب إلي أنني أهوى في متحدر لا أعرف له قرأراً ، وأن جسدي يتفتح عن روحي فتشأ فتشأ منه إملاس الفرج من يغبته ، فلما ذكرتك استبرحت من ذكراك ما استروح يعقوب من قبض يوسف ، فلما نجوت علمت أنك سبب نجاتي ، فما بلغت الشاطئ حتى جمعت تلك الزهورات فأولسيتها إليك تذكراً لتلك النعمة السابقة التي أسديتها إلي . لمدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زئبق وقالت : إن أبي قد جمع لي بها هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أقدمها إليك رداً لتحييت التي حييتني بها ، فتناولها منها وشربها بين يديه وأخبر يوكلف بين أنشائها ويظلمها في ملك مستدير حتى صارت إكليلاً جميلاً

فرجعه على رأسها وقال : إن من يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عرس على رأس عروس فاحسنت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ، ثم رفعت رأسها فإذا نعمة ورفقة تزجج في عجزها . فقال : لا تبكي يا ماجدولين ، فما في قوى في هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بيني وبينك ، قالت : إنما أبكي خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة محكية منقطعة أشعر بالخيرة التي تشمر بها كل فتاة لا أم لها ترشدتها ولا ناصر لها يمينها ، قال : ألا تعتقدن أن قلبك تقى طاهر ؟ قالت : ذلك ما أعتقد وأشهد الله عليه ، قال : إذا طاف هو الذي يصورك وبينك ، وهو الذي يأخذ يدك في حيزتك ويبر لك السبل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافي من الحب يا ماجدولين ، ولا تخافي من غضب الله فيه ، واعلمي أن الذي خلق الشمس وأودعها النور ، والزهور وأودعها العطر ، والحسم وأودعها الروح ، والدين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعته الحب ، وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين لأكما ما تحابيا إلا إبداعاً لإرادته ، ولا تعالما إلا أخلاقاً يسته في عباده ، فامددي إلي يديك وأقسي بما أقسم به أن تعبتن معاً . فإن فترلك أن تفرق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فحدثت إليه يدنا فطامنا وناعداً ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فالتفتا

(١٥)

من استيفان إلى ماجدولين

كسبت إليك كثيراً فلم تكفي إلي كثيراً ولا قليلاً ، لأنك

تعتدلين ما يستفده كثير من النساء من أن المرأة التي تكتب إلى حبيبها كتاب حب آتية أو غير شريفة ، أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهي مراغبة مصانعة لأن المرأة التي وهبت قلبها لغير خالصة لا يخالطها شك ، ولا روية ، لا ترى مانعاً يمنعها من أن تكتب لحبيبها في غيبته ، بمثل ما نعتشه به في حضرته .

إن الطبيعة في الحب رأيت نراه لنفسها المرأة التي تتخذ لها كل يوم حبياً تقسم بين يديه بكل حرجة من الإيمان أنها ما فتحت باب قلبها لغيره قبله ، فهي تخاف أن تسجل يدها على نفسها في يومها ما يفسد عليها أمرها في غيبها ، أما المرأة الشريفة فما اعتادت من ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص لمقول ، فتكتب ما تقول .

اكتفي إلى يا ماجدولين ، فإن الذي يستطيع أن يكتم سر حديثك لا يعجز عن أن يكتم سر كتابك ، واعلمي أن رجلاً غيري ذلك الذي يتخذ من رسائله سبباً يجرد فوق عتقك ، إن بدا لك في الفرار منه رأي ، وإن قاة غيرك تلك التي ترضى لنفسها أن تهب قلبها إلى رجل يشجر بأسرار النساء .

( ١٦ )

## البحيرة

مضت على استيفان و ماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على شفة النهر ، وكثيراً ما كانا يجلسان بجانب شجرات البلوط ، ويلبثان ساعة النهر ،

وماطة الزهر . وأحياناً كانا يزلان في زورق صغير يسيرون به في البحيرة ساعة أو ساعتين . ثم يعودان .

فزلان في الزورق يوماً ، وكانت القصص قد لبست ثوبها الثالث . ثم ما لبثت أن هوت إلى مسفرها على أن ترسل من حبتها سليلها القمر . إلى هذا الوجود ليقيم عندها بحراثة حتى يعود إليه . وأمعنا في البحيرة . وكانت عادة سائكة كصفحة المرأة . وكان السيم بارداً رطبا يترفق فيلامس الوجوه نعمة كما تلامس يد الحساء واجه حبيبها . وقد سكن كل شيء ، إلا صوت قطرات الماء المتحدرة من الجاذبات إلى البحيرة وتفتت الضفادع من حين إلى حين . ثم هناك القمر سمر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء إلى الزورق والبحيرة والشاطئ . وما وراء ذلك . فكانا يريان على مسوكة بعض الأشجار كأنها أشباح متحركة . ويتخيلان أن جيون الحشرات السارية بين لعائن الأعشاب تشرر يفرح . قد فما هذا النظر البديع . وذلك السكون العميق . وذلك الوحدة التي لا يكتدرها عليهما مكلف ، وتركوا الزورق يمتي بهما حيث يشاء . ويتحدرا كما يريد . والشأ يتحدثان . فقال استيفان : إن أؤثر يا ماجدولين أنه يكون البيت الذي لسكنه في المستقبل على شاطئ بحيرة كهذه البحيرة . وأن يكون له زورق أوسع من هذا الزورق . وأجمل منه شكلاً . فليضي فيه الناي المصنوعة بين الرياضة والصيد والاستحمام . ولا بد أن يكون لغرفة حديقة صغيرة لغرض ياما ما نشاء من الكروم والأعشاب والأزهار والأشجار . وسأؤتي بنفسى عرس شجرات البلوط . وسأظهر على جدران الحديقة والنزل خلجان رقيقة من الحشرة البائعة . أما المنزل فأريد أن يكون منسجماً على طينين . طينة عليا يكون فيها أربع غرف : غرفة للأضياف . وأخرى لمكتبة . وأخرى للملابس . وسمت حنطة . ثم قال : أما الزاوية فهي



التي تكون في ذلك ، فاحسرت ماجدولين عجلاً ، ثم قالت :  
لقد فالتك أن تذكر حرفتين أخريين . إحداهما لأخيك والثانية  
لأبي . قال : نعم ، لقد فاتني ذلك فلا بد إذن أن تكون الطبقة  
العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطبقة السفلى فتشتمل على قاعة  
الطعام وعُزْن المُوْتة وبيت الخدم والحمام . إل ما يخص ذلك  
من مرافق البيت وحاجياته . قالت : لقد فالتك أيضاً أن الخديفة  
لا يعمل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يتدفق ماء  
تبراً ، قال : نعم وستخلده لتربية الأسماك الملونة ، ولا يغوتنا  
أن نحولها بسياج عال من الأغصان المشبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر  
لها وجهها . ثم أطرفت برأسها طويلاً ، لحنا عليها استيفن وسألتها  
عما بها . فرغت رأسها فإذا هي تنكي . فقال : ما بك يا ماجدولين ؟  
قالت : إن الدهر يا استيفن أعين بالسعادة من أن يبها كلها لشخص  
واحد ، وأخاف أن يكون كاذبين في أمالي ، أو غططين في تصور  
مستقبلي . قلت الدهر - إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين  
معادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بفاجعة من لواجمه  
أو نازلة من نوازله - أن يجد إلنا يده في هذه الساعة فيسل حياتنا  
من بين يدي أجبلاً لتحت في أفواهنا سراوة الموت ؟ قال : لا  
تخافي يا ماجدولين ، فإن سلطان الدهر لا تمتد يده إل مواقف  
الحب إلا إذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ،  
لكوني مني ألتزم من حيث عدة أثارل بها حوادث الدهر وأرزائه ،  
وأفسد عليه حوله وقوته . فصصت واجبة ، ثم ألفت نظرها  
على البحيرة ويجري الزدوق منها وقالت : لو أن لأمرى أن يمتحن  
نفسه ما يشاء لتثبت أن يكون هذا الطريق الذي سبر عليه طريق  
الأبدية وأن يظل هذا الزدوق مطرد بنا في منيره لا يفت في طريقه

نبيء حتى يبلغ بنا أبواب السماء .

ثم تنفست الصعداء وقالت : حبسها يا استيفن . لقد أوشك  
الدهر أن يجيب ، وأنا لا أحب أن أرى مقبها ، لأني أخاف أن  
تترب سعادتنا بفروبه . فظفر إليها وأجماً مكشاً ثامناً دار بقية  
ما دار خلفها من الحشوف والأرواح . ثم قام إل المجاذيف بحركها  
وأعطفصحت تحت قنديه . وما زالاً حتى بلغا الشاطئ . ثم مشيا  
حتى بلغا المنزل . فلما أرادا أن يفترقا أدنى يدها من فمه يحاول  
أن يقبلها ، فأبت فقبلها في جيبتها فارتدت . وألفت عليه نظرة  
عيب أخافت من نفسه مأخذها وانصرفت

( ١٧ )

من ماجدولين إل استيفن

لماذا صنعت يا استيفن ؟ إنك سلتني الليلة الماضية وأخني وسكوتي ،  
فإني كلما تذكرت تلك الليلة التي وصمت بها جيبتي شعرت كأن  
ناراً مشتملة تتأجج بين أنفاسي . وإن صحيفتي التي لم تزل يضاء  
حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب في يافئها الناصع غفلة سوداء ،  
فأحاول أن أطردها من أعالي فأكون كالأرملة الذي يحاول أن  
يطرد العشاة السوداء عن عينيه فلا يستطيع ، لقد سكب عياني  
كثيراً من الأبراث . ووشلت كثيراً إلى الله تعالى أن يفر لي ذنبي ،  
ولا أدرى ما هو صانع لي . ولا كيف أستطيع أن أفر من يديه  
يوم الحساب هذا الحين المسود من الإنم ، وهذا الوجه المنحمر  
من الحجل ؟ لا أستطيع يا سيدي أنني لولا أن عزيت نفسي عن  
عده النكة بأنك أخذت عني تلك القيلة أختاً ، ولم أمتنها لك

منعة ، فقلت نفسي يدي : لا تعد إلى مثها يا استيفن إلا إذا  
لردت أن تراني يوماً من الأيام بين يديك جثة هامدة .

( ١٨ )

من استيفن إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفتاة التي تحب ، وتعاود من حب ،  
وتقسم بين يدي حينها بين الإخلاص والوفاء على أن تكون له  
كما يكون لها ، وألا تجعل ليد غير يد الموت سبيلاً إلى التفريق  
بينهما - تستكر عليه قيلة شريفة بأخلاقها من حينها كما بأخلاقها  
الأخ من حين أخيه ، والتعب من بد كاهنه .

ما أحب إلا أنك قد خلعت قلبك بقلبك يا ماجدولين  
حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء . لأن الفتاة  
التي تحب لا ترى بأشياء أن تمنح قيلة لحبيها منعة ، ولا تنتظر  
أن يأخذها منها شيئاً .

لأنك عرفت أن بكاءك بين يدي ، واضطراب يدك في يدي ،  
وعفوق قلبك عند رؤيتي ، إنما كان أثراً من أكثر الخوف لا مظهراً  
من مظاهر الحب ، وأن عطفك عليّ وتحببك إليّ ، ولصوتك بي ،  
لم يكن لأنك كنت تحبني ، بل لأن فتاة مسكينة ضيقة مثلك لا  
يذ لها أن تشعر بالليل إلى كل رجل قوي يعانيها .

تدركين لي أنك قضيت ليلك أسى معذبة ، لا يبا لك مضجع ،  
ولا يتميخ لك جفن ، أما أنا فأقول لك : إلى لم أفضل في حياتي  
ليلة أعيا من تلك الليلة ، لأنني يت التحليل تلك القيلة التي تناولتها

من حينك كأنها نقر متفرد يتسم إلى أروق الصمام وأغلبه ، فاشعر  
بروح الحب لذب في أعصابي وحب الحياة في وجه شاربيها ، أما  
اليوم فإني أصبحت أقتيلها تمثالاً جافاً من الجوعر الصلدة مائلاً  
بين يدي لا يتحرك ولا ينفق .

عزوا يا ماجدولين ، فإن ما تدرك تلك القيلة من حينك إلا  
وأنا أعتقد أني أقبل زوجتي لأنني لا أرى فرقاً بين عهد الإخلاص  
الذي يوحد بين يدي الحب وعقد الزواج الذي ينفذ بين يدي  
الكاهن . وأشكر تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ،  
وإن كانت معذرة مؤهومة ، ويمكنني أن أقول لك إنني ما تنقصت  
- حتى الساعة - ذلك العهد الذي بعهدتك عليه - وإنني لا أزال  
أحبك كما كنته ، لأنني ما كنت أحببك لأجارك على حب مثله ،  
ولا لأنك جميلة أو غائقة أو ذكية ، ولا لأنني ما يحب الرجال  
له النساء ، بل أحببك لحب نفسه والسلام .

( ١٩ )

من ماجدولين إلى استيفن

عزوا يا استيفن فما كنت أحب أن كلمني بالغة منك ما بلغت ،  
أو أنها ذاعية بك هذه المذاهب كلها ، فاعف عن ذنبي ، فراقاً ما  
احتفظت بعرضي إلا لك ، ولا معتك نفسي اليوم إلا لأبالحا  
لك علناً ، أنت اليوم حبيبي ، وعدة تكبرك زوجي ، توكل ما  
سنته أني توسلت إلى حبيبي أن يرفني طاعراً نقياً إلى زوجي ،  
أما الخداع الذي تذكره في كتابك فإنا أعتقد أنك تعلم من أدبي  
غير ما تقول ، ولكنك غفبت فقلت غير ما علمت .



## من مؤلف إلى استيفين

أكتب إليك كتابي هذا وبذي ثلثي خجلاً ، ونفسي تيبلاً  
حزناً ، لأنني ما كنت أقدر في نفسي أن أسمر في ساعة من ساعات  
حياتي أرى نفسي فيها مضطراً أن أقول لصديقي الذي أجله وأعظمه  
وأزله من نفسي خير منزلة : إني لا أستطيع أن أستطيعك في منزلي  
بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحصل بقاءك في المنزل الذي أسكنه  
ولسكنه ابني لأن لي شرفاً أبقي عليه أكثر مما أبقي على صداقة  
الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا أزال أتعلم منك الخلق  
إليك ، كما إني لا أزال أعتدك كذلك ، وإن قررت بيتنا الأيسام .

## حبيبتي

جئت ماجنولين في غرضها تحيط ثوباً لها ، ربما كانت تعدد  
ليلة عرسها فلدت ليرتها من بدعها لمعت رأسها فإذا أروعها مائل  
باب الفرة فلدعت لمرآة وراعيها منظر سكونه وجموده . ثم  
مشى إليها بدم طمعة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين  
يا ماجنولين إني أرسلت جنياف الساعة بكتاب إلى استيفين أعتد  
فيه من دخول بيتي ، بل أعتد من البقاء في منزلي ؟ قالت : لا  
أعلم من ذلك شيئاً ، ولا أعرف لصنيعك هذا شيئاً ، قال : لا  
سب لي إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبني ، ولكنه يحب أن

يتزوج لي ، قال : ذلك ما لا أريد أن يكون ، قالت : ولماذا ؟  
قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجاً لك ، قالت : أنا أعلم أنك  
أخفقت لنفسك صديقاً ، وأنت تعرف له مكانه من الفضل والبل ،  
فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقاً من لا ترى أنه لا يصلح  
أن يكون لابنتك زوجاً ؟ قال : إني أصادقه لأنه شخص كريم ،  
ولا أحب أن أصاعره لأنه باتس فقير ، فقد عثرت بكتاب سقط  
منه بقرآنه فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه فأجرتي ألا يملك  
ما يقوت به أهله ، قالت : إنك حدثني عنه أنه في ذكي متعلم ،  
ومن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الله إلا بضع جولات  
يعرفها في ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدهما رجلاً غنياً وزوجاً  
ساحلاً ، قال : إن في أسلافه من الأثمة والترف ما يحول بينه وبين  
النجاح ، قالت : إن الحب يقوم ما افوج من الأخلاق ويغني  
ميت الأمل في نفس المحب ، فلا تظني جيرة الحب التي تشتمل  
في قلبه ، فإنك إن فعلت فقلته وقلبت أهله وأثفت عليه حياته ،  
قال : يا بنية إني أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم مالا تعلمين ،  
وقد رأيت إني أكون خاطراً بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك  
من سعادة في الميشت وهناء ، إن أنا رغبك لك الزواج الذي أعلم  
أن شره أكثر من خيره بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظري  
يا بنية في أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فإنها دائماً حوالة ،  
واقكري أن أبالك الذي يحبك ويترك من نفسه منزلة لا يعطيك  
عليها غالب لا يمكن أن يكون غائباً لك أو غادماً ، فركعت بين  
يديه ومدت يدها إليه خازعة وأشدت شترحمه باليكاء مرة والنداء  
أخرى ، فكانت كأنها تستبط الماء من الصخر ، أو تستبث الريح  
في القفر حتى وعت لوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركتها مكانها  
ومضى ليلها وهو يقول : إنك اليوم تجهلين ، ولذا تعلمين .

دخلت جنياف على استغنى في حرفته وقد جلس إلى مصباح ضئيل يقرأ في كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أدراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، لم ير يخطر له وهو يفضي علاقته كل شأن إلا الشأن الذي كتب فيه ، فما أمر ففكره عليه حتى فهم كل شيء .

فلو أن رامياً سجد إن قلبه سهماً جديداً فقدد إليه ما بلغ منه ما بلغ هذا الكتاب ، ولو أن نازلة من توازن القمر هوت عليه فاعتصمت نفسه من بين جنبه لكان في مصابها رأي غير رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكواً لا تطرف فيه عين ولا ينفض فيه عرق ، ولا يهتق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى يكاد يعتقد الناظر إليه في تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تيمت فيها الحواس في سيطرها ولكنها لا تعود إلى الدماغ بشيء مما تحس به .

ولستمر على ذلك ساعة ، ثم انقضت النفاث المذبذب ، ودار بعينه بمنه ويسره كأنما ينش عن شيء أصابعه ، فرقع نظره على الكتاب وهو ملقى بجانبه فقرأ مرة أخرى ، ثم ضرب جبهة يده وأثنا يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ، وما هو ذا الكتاب بين يدي ، وما أنا بعام ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طرفتي من بينه وفلن نفسي فلتاً ، ونجني في جميع آمالي ، وحال بيني وبين ما جدولين . أي إنه فرق بين روحي وجسدي

إله فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل ، إنه يحرق هذه يجرته كلها حاكناً عادياً كأنما هو يبيت بقائه في أرضه أو يتول جديده من طريق إلى طريق . لقد فسا على قسوة لم ينسها أحد من قبله على أحد . إنه عظم أي فقير لا أملاك شيئاً ، وروى أن الفقراء يعرفون لا عقاب لما إلا القتل . فلتني

ثم كأنما جن جنونا فدار من مكانه ثورة الأسد المائج ، وتخلت له كأن مولر مائل بين يديه فتنى إليه مهدداً . وحال يهذي ويقول :

مهلاً رويداً أيها الشبح الأبله . أظنت أي بين يديك شاء عرقاء أو عجاوبة بلهاء تقدم قصها لشكين الذابح حينما يريد ؟ لا . لا أنا إنسان عاقل ورجل شجاع . لا بد أن يكون لي أمل شيء به . وسعادة أنعم بها . ولا بد أن أقاتل عن أمل وسعادتي حتى أتبلغها أو أقتل دونها .

كذبت أيها الرجل . إنك أصعب من أن تعد يدك إلى عصفاء الرباط المقدس فتمطيه . إنك أخجى من أن تنزع شعرة من شعور رأسك البيضاء فأحرق أن تنزع روحاً من جسدها .

إن الذي بيني وبين ما جدولين شيء . لا تصل إليه يدك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يعتق به أنك وتبيك ومطورك ومعتك .

ذلك تستطيع أن تطردني من بينك لأنك مثلك ، وأن تحبس ابتك في عرقها لأنك أبوها . ولكنك لا تستطيع أن تمنع قلبنا أن يتحداً ونقتسب أن نتصلا .

إن الذي خلق الإنسان وأمدى إليه لعدة الحياة والرواق لم يشرقة بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه ممناً لما . بل تركه حسرة



يحب من يشاء ، ويفض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف  
السكين أن يكون لك على ظهرك الناس سلطان فوق سلطان الله ،  
ولادة فوق لادته .

أي شأن لك عندما ، وأي حيلة لك بنا ؟ وقد ذهب مصرك  
وذهبت يدعابه ، وأصبحنا لا نلد وجودك وجوداً ، ولا حياتك  
حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر في ساعة من ساعات فراغنا  
إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عثلك الذي يمل ورنث وانتشرت طوقه طيقة سرداء من  
القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة تری فيها وجوها ، وتجاكم  
إليها في سعادتها وشقاها .

إنك شره طباع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن  
أحرية الفناء السود تحلق فوق رأسك المتصل شيئاً ، لمز عليك  
أن تموت فبحثت إلينا نحاول أن نقاسنا حياتنا الجديدة العنقة ،  
فكان مظهرك كمثل ذلك الملك الظالم الذي كان يمتص دماء الأطفال  
ظناً منه أن ما يمتص حياتهم يزيد في حياته .

إني لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابيتك شراً ولا  
ضيراً ، بل كنت أهد لها عيشاً حزيناً راعداً في مستقبل حياتها ،  
فأنا غير لما منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذاباً  
دائماً وشقاء طويلاً .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر في كتابك الصداقة والإخاء  
والإخلاص كأنك تظن أن إليه قد بلغ مني مبلغه منك ، وأني أجعل  
أنك شيخ مبادج مصانع ، تكب الحكم بالإعدام ، وكأنك تكب  
بطاقة دسوة إلى ولاية ، وتقدم قطعة الخلوى ، وقد دسست في

WWW.LILLAS.COM

بنو فبارة

باطنها نافع لهم ، وترفع فيعتك احتراماً لمن يظفر بحجرك من  
قلبه دماً . وهنا بلغ منه التعب مبلغه فسقط مكباً على وجهه .  
يكني بكاء الطفل الصغير . وينشج تنشجاً عزباً ، ثم جثا على  
ركبته ورفع وجهه إلى السماء وأناً يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أي رجل ضعيف لا  
ناصر لي ، ولا معين . فكن أنت ناصرى ومعينى . اللهم إني أعترف  
بأنى أذنبت إليك في اعتزازي بقصى . واعتقادي بمولى وقولى .  
وأني أغفلت قصائدك وليلتك . وما تخبره عن عبادك من أحكام  
السعادة والشقاء ، والحب والبغاء ، فقدرت لنفسى من سعادة  
المستقبل وعناء ما لا أملك . ولا سبل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك ،  
فاغفر لي ذنبي ، وعذبي يدي في تكبتي . فقد أصبحت أعجز  
الناس عن الصبر والاحتساب .

ثم سكن بعد ذلك سكناً عميقاً ، ولم يزل باسطاً يديه رافعاً  
رأسه إلى السماء . كأنما كان ينتظر أو يسمع صائلاً ينتف به من  
الآلة الأعلى ، فلم يلبث أن رأى من خلال دموع الحائرة في عينيه  
شيئاً من نور يتلألأ أمامه . وكان المصباح قد انطفأ ، وأضاءت  
الفرقة بأشعة القمر فسبح دسره يمينه ونظر ، فإذا  
هي ماجدولين .

( ٢٣ )

الوداع

لبثت ماجدولين في لحزنها بعد أن غارقتها أيرها ساعة تطلب

لشتر في أمرها ، فلا ترى في ذلك السلام الخالك نعماً يتلأ ،  
ولا ذبالة تضي . فبكنت ما شاء الله أن يفعل حتى مضى الليل إلا  
الله . فحدثها نفسها بأمر ما كانت تحبها به لولا لوعة الحب .  
وفجأة بين : وقامت تخلص خطواتها اختلافاً ، وما على وجه  
الأرض قلب أضعت من قلبها . ولا لوعة أشد من لوعتها . حتى  
وصلت إلى السلم فصعدت تتسرق فزوجاته حتى انتهت إلى غرفة  
فوقفت قليلاً تستنقر الله من ذنبها وتساله إحسانه ورحمته .  
ثم مشت إلى غرفة استيقظ ودفعت الباب قليلاً فراءت نجاة على  
وكتبه يمشى بدعائه فأمر منظره في نفسها . وأخذت تبتكي ليكاته ،  
وتدعو بدعائه حتى التفت فرائها . فخلق قلبه حقاً متدبراً ،  
وتعلقت أفعاله وجدد نظره . وترأيت أوصاله . حتى ما يكاد  
يتحرك من مكانه . فقد إليها يده كالسيف المثبت فقلت به  
وقالت : إني جئت لأودعك يا استيقظ . ولا أستطيع أن أبقى  
عندك طويلاً ، فهل تستطيع أن تفعل وعداً صادقاً ألا تترك نفسك  
في يد الموم تمس بها كبت شهوة ، وألا تجعل لباس سيلاً إلى  
قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك . فانت  
التي تستطيعين أن تجعلي شجاءً سيوراً متجملين . وأنت التي  
تلكين أن أحيا بالأمس ، أو أموت بالأمس . قالت : لبي أمول  
لك اليوم يا استيقظ كلمة كان ينبغي الحياء أن أقولها لك قبل اليوم .  
وهي أني أحبك حباً ملا فرائع قلبي ، فما يسع غيري ، وبذلك  
منه منزلة الروح من الجسد ، فما يضل عنه . وقد عاشت على  
الزواج بين يدي الله وبدي سميري . وما أنا بخاتمة ضميري ،  
ولا بكافئة ربي ، فسافر يا استيقظ . وقش عن معادنا في كل  
مكان . وبكل سبل . حتى تجلعا . وعد إلى بعد ذلك فلي  
سأكون لك ما تحب . سافر حيث تشاء . وتقلب في البلاد كما

أردت . وانت زلت بعد عام أو عامين أو عشرة أيام أو أكثر  
من ذلك . فإني سجدت لك كما تركتني تقيّة جاهرة . ووفية . وأعلم  
أن الله ما أحسن البشر حياء . وأعلمت مثل ذلك في مثل هذا الموقف .  
الذي تليث فيه القول وقبحه وواجب الإحلام . إلا وقد أراد  
بنا خيراً في جميع شؤنا . وفكر لك الصداقة الغناء في غسقل  
أولنا . سافر يا استيقظ بعد . وأكتب إليك بكل ما تلاقى من غير  
أولشر لأقاسمك سرادك وصداك وما كتب إليك كما كتب إلي .

فككن ثأره قليلاً . وقال : إن سطري سيكون طويلاً يا  
مابدولين . فهل لك أن ترويني بقليل من الراد استيقظ به على  
بعد أشقة وعناء المسير . فعدت بدعا إلى شعرها وقصت منه  
عصاة فأعطاها من شعره مطلة . ثم تراجمت قليلاً قليلاً . وهي  
تنظر إليه بعين ملؤها الحب والخرج . والتصاية والدموع . فقام  
إلها ليدركها وانظرت .

( ٢٤ )

السفر

استيقظ استيقظ صباح يوم الرحيل وأمل من نافذة الغرفة  
الشرفة على المدينة فرأى الأفق يفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً ، ورأى  
الشمس قد هبت من مرقعها . ولا تزال في خطها من الغمش ،  
ثم رآها وقد است توبها الأول وبعت بعض الخطوات إلى مطلعها ،  
صعدت أمامها جاشة من الأشواء تشبعها كما تقدم الملك حاشيته  
في مقلته من باب قصره . ثم انظر إلى السماء من ناحية المشرق ،  
رأى الشمر في أعاليها الفارق السحب وشتت في خلوتها حمرة



التور . فتخيل إليه أنه يرى هالك بزجاً عظيماً تضطرم فيه النار  
اسطرافاً . وأن دجاء تلك النار يترأكم فوقها مرة وبترج عنها  
أخرى . ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تغاطب حبات الفل في أوراق  
الزهر والفل لم يجر فائيه . فكان كأنه يرى أحجار من اللس نصبي .  
فتعكس عنها ألوان مختلفة بديعة تلك القلوب والأيقار . ولم  
يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين التحل وهو  
مكب على أزهاره يرشده كروؤسها . ويتظاهر من حوله كما تتظاهر  
الأحلام اللذيذة حول الأطفال الصغار .

فالتفت على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يسترجعها إلا منته  
بالدمع حينما ذكر أنه سيقارني عما غلب هذه النار . ويقارني  
بقراها صباهه وهما ، ويقارني ظلال الزيقون التي كانت يمس  
إليها مع ماجدولين . والجندول الذي كانا يمشيان عابيه . والزورق  
الذي كانا يتزحمان فيه . وللملح الذي كان يقتضيه من الخديجة  
ليستقر بجيشها . أو ليرى نياها من نافذة الحديقة . والفرقة التي  
كان يشرف من نافتها لسمع نغمت موتها كغلت . ولما كانت  
الزهر التي كانت تهديها إليه فيسرح منها لروحها . فلم يزل  
يكي بكاء الشيخ على عهده صاه . حتى كادت تنثف نفسه .  
ولولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس صرى نفسه عن مراقبها  
وإخلاصها وولائها . وما عقدت بينها وبينه من العهود لنفسه في  
مكانه أسفاً . ثم قام إلى حديقته فوضع فيها ملائنه ومراقبه . ونزل  
إلى الحديقة فوضع أزهارها وأشجارها ومقاعدنا . ولم  
يترك جدياً لم يبقه . ولا قصاً لم يشده . ولا متعباً لم يبرح عنه  
فرقه . ويظهر بدموعه . وتقتش اسمه واسم ماجدولين على كثير  
من المقاعد والجداول . وانتقلت من كل شجرة زهرة . وجميع  
تلك الأزهار في طاقة واحدة . وتركها على بعض المقاعد ماجدولين .

ثم ذهب إلى البستاني وأتفق معه على أن يعمل على قوسه إلى (كوبلانس)  
ثم قارق (ولهاج) بين وجد يفتله . وأمل يبيبه .

(٢٥٠)

من ماجدولين إلى استيقن

سافرت يا استيقن وأصبحت بعيداً عني . وما أحببت أني  
أراك في عهد قريب . فما أعظم توتني وشغلي . وما أشد ظلمة  
الوحشة المحيطة بي .

لقد خدمت نفسي يوم أشرت عليك بالسفر . فقد علمت  
أن بين جيني ذخيرة من الصبر والاحتساب . أقوى بها على تفرج  
كثير فراقك المريرة . فلما فقدت وجهك علمت أن فناء ضعيفة  
بالسة . لا تقوى على احتمال أكثر مما تطيق من الآلام والأحزان .  
والتي فيما أذليت به إليك من تلك الضعيفة . إنما كنت أحدث  
عن خواطر عقلي . لا عن شعور نفسي .

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك وقلة  
أفغها في نافذة عرفتني أشبك فيها نحية الوداع . وألقي عليك  
فيها آخر نظرة من نظرات الحب . لولا أنني عفت عليك الخزع  
أن ترائي باكية . وعلى نفسي الشك أن أراك جازعاً . فافقتك  
واقفيت نفسي بيده التوعة التي تتأرجح اليوم في صدرتي . فما  
أصبح الوداع . وما أصبح الفراق بلا وداع !

وتركت بعد سفرك إلى الحديقة فلم أجدك . ووجدت على  
بعض مقاعدها طاقة الزهر التي تركتها في قف سفرك . فلتحتها

والتمت شخصيتك فيها . ثم مشيت إلى ذلك القعد الذي كما تخيل  
عنه مراً تحت شجرة الزيتون . فجلست فيه وحدي . وفشرت  
بين يدي رسالتك الماضية ، وأنشأت أفروها وأصغي إلى حديثك  
فيها . فخليل إلى أنك جالس بجانب عذلي فبدأ القم . وأن ما  
يقع عليه نظري في صفحات رسالتك إنما هي نبرات تنمها أذلي ،  
لا عطلوط تنمها عذلي . فبكنت لذلك الخيال ساعة مكون  
الطفل الباكي لتبديد الهدم ، حتى سمعت تدعوني في بعض أحاديثك  
« يا عذلي » ، وهي تلك الكلمة الخطوة العلية التي تهبط حلاوتها  
إلى أعماق قلبي كلما سمعتها ، فالتفت وألقيت نظري على مكانك  
الذي تخيله بجانبني فوجدته خالياً ، فعلمت أنه تلك الساعة الجميلة  
التي مرت بانتمت هذه الساء الماضية . وفوق تلك القاعد الجميلة .  
وبين مشيتك هذه الغموض والأوراق . لقد ذهبت ، ولم يبق لي  
منها غير ذكرها . فيكتب ساعة طويلة لا أعلم لي عذاتها ، ثم  
استيقظت لمصعدت إلى برفتي ، وجلست في منصلي أكتب اليك  
هذا الكتاب .

معنى تعود يا شيفين ؟ متى تعود بعد ذلك الأيام الحسان ؟

( ٢٦ )

من عاجدولين إلى استيفين

لقد كتابدت بالأمنس ليلة ليلاء ، فلم يتعلم كوكب الشمس  
أن يلمزها حتى سمعت صوت الباصفة يهبط في كل مكان . رأيت  
أفاني الساء قد أوبدت واقشعرت ثم أوقضت عن غيوبها المنهلة ،  
فذكرت أنك لا تزال على الطريق . وأنت تقاسي في تلك الساعة

من عشرات الطريق وعشاة ووقفقة الجرد وورعته عذاه عذلي .  
فالتفتت وذاتي وأوتيت أن يعنى ذوايا غرقتي . وفطنت أنك  
من فراقك مرة وعلى شمالك أعزى . وأقود القم . حتى  
تبدأ لأنتي لا تستطيع أن تكون واحدة عن نفسي . ولما كنت  
في حفصي إن كنت في ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة حيولة  
حتى يلقى الليل إلا أنك . فصرحت أن العائن الذي كان يحاط  
حقي قد غلبي عليهما كنت في مكان . يوماً مشرقاً على عذري  
حتى استيقظت مع الصباح . ولذا الريح ساكنة . والشمس ساكنة  
والجو باسم طلق . فجلست أنا على ذلك

إلى أحد الساعات والتحقيقات يا شيفين ، وألتفت بشرف عظام  
ومررت أول كتاب منك يشرفني بطولك مستقر ساكناً . فحسني يأتي  
كتابك إلى ؟

( ٢٧ )

من عاجدولين إلى استيفين

لم تكلف الأرمون ساعة التي مرت لي لتخفيف شي من عذومي  
وأعزاني . فقلت فقلبتها خافرة الزمن مشرفة على ألب . حتى في  
كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا ساعة من عذابي  
الخيال عزاء ولا حلوى . ففدعت إلى عرفتكم المنهورة عذلي أجد في  
شأني بها ساعة علاج ما أكلفه من هوم وأجزاء . فأدركتها  
ورويحت يدي على مفتاحها شعرت برعدة شديدة فقلت ما بين  
تلة وأمي إلى شخص قلبي . فقلت عذلي إلى أنني كوفيت ١٥  
الياب . وجعلت وراة . وأدركت بضم إلى ونفخ فزاعيك لانتقالي .



فلما جئت لم أجد غير الوحشة السائلة ، والسكون المجرم . وعبر  
سريتك المثلث ، وأوراق البعثة في كل مكان ، والغيار المنتشر  
في أرضها وسائيا ، فمهدت ما تشئت وجنمت ما تيمر ومسحت  
القيار عن المقاعد والتوافد ، وأعدت الفرقة إلى عهدها الأول أيام  
كنت تسكنها وتربها ، كأنها آيت إلا أن تكون غرفتك المجددة لك .  
المساء بامسك ، حاضرا كنت أو غائبا .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير .  
فلمست أنها أسيرة الفرقة التي يتفادها أي قد تركتها له فأخذتها  
من حيث لا تراه فأخذتها لأحسنها إليه ثم استوجه إليها لأجاع بها  
حيلة أو ذخيرة لأخذها ، كأنها هدية مرسلة منك إلى .

سأحمل نفسي يا استيقن على الصبر هناك ، حتى يطوى  
القدر مسافة البعد بيني وبينك ، وستكون تملئي التي أتمل بها  
منذ الساعة كلما حاج في طالع الشرق إليك ، إليك ما يحدث عن  
إلا لتغرب مني ، ولا فارقتي إلا لأنك آثرت اجتماعا آتيا  
طويلا على اجتماع مضر غير مأمون ، فامض في سبيلك إليها  
الصديق المحبوب ، وذلل بينك جميع العقبات التي تتردى  
سبيل سعادتنا وهئانا ، حتى نلتقي بعد ذلك لقاء تسيبنا حلاوته  
مرارة ذلك الماضي الحزون الويل .

( ٢٨ )

من استيقن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجتمعنا بيت واحد ، لا يكثر اختلافنا

فيه مكنون . واليوم عن يميني ويمنك خمسون فرسجا لا تضي  
بدي يدك . ولا تعبت أنامل بشرتك . ولا أشتاق غير أقباسك .  
ولا يرد صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تصفي استجاباتك  
البحيلة ظلمات نفسي . ولا تنضي أنظاري في مكان واحد ،  
ولا تخرج أنفاسا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها .  
ولا الجو يائس مطلق كما أغرقه ، ولا الماء صاف عذيق . ولا  
الغراء زرقاء بغيض ، ولا الروض مفتوح عن أزهاره . ولا  
الزهر منتصب عن عيره . كأنما كنت سحر الحكيم الكامل في الأشياء ،  
فلما جئت منك انقرت والتفتت ونبت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت في دكوبلانس ، أبي وأهلي وكثيراً من أبناء  
وطني فلم ينجني لقائهم من لثاكت ، ولم أجد في وجوههم ذلك  
الأنس الذي كنت أجده فيها قبل أن أتركك ، فأصبحت أشعر  
في مقامي بينهم بما يشعر به الغرب المثلث الذي يعيش في وطن  
غير وطنه ، ودار وأهل غير داره وأهله ، حتى تنفضي أيام  
غربي ونسي أعود إلى أهلي ووطني ؟

قد أحزني كثيراً ما تكاديت من الآلام والأحزان من أهلي ،  
ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها ، لرقت أنك  
أشد مني حننا ، وأروح بالاً ، لأنك تبيتين في المواطن التي  
شهدت سعادتنا وهئانا ، والتي لبثت في تربتها آمالك وأحلامنا ،  
فكل ما حوكت بذكرك عجبك ، وأيام سعادتك ، أما أنا فكل  
ما حو لي غريب مني ، أنكره ولا أكاد أعرفه . كأنما هو مؤلم  
بي أن يتزع مني ذكرى تلك الأيام الحسنة التي قضيتها بجانبك ،  
وهي كل ما أصبحت أملك من بسلامك .

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي

في تدليل كل عقبة تقف في طريق سعدي بك ، فلا تخفي إلى  
كثيراً . وحاشي عن كل ما يحيط بك من الأشياء . وما يمرض  
لك من التوكل ، صغرها وكبرها . أجدد على البعد منك لذة  
القرب منك ، وأجعل حيك حوياً في في مقاصدي وآماله .  
فحيك هو الذي يحيي . وهو الذي من أجله أعيش وأبقي

( ٢٩ )

### حفلة رقص

أقام والد استيف في بيته حفلة رقص ، وشر ولده أن يشهدها .  
ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذن على كرمه منه .  
فلما اجتمع الجميع وماجت غابة الرقص بالرافضين والرافضات .  
وقفت استيف موقف الميرة والحجل أمام هذه المناظر المتعددة  
الغريبة . لا يجرى ماذا يفعل . وأي سبيل بأشده ؟ وبخيل إليه  
أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات والخيالات والروحانيات .  
وأن من الخلق حرفاً واحداً من حروف ذلك القانون اتخذته العيون .  
وحدث به الأنظار . وورثت حوله ضحككات الغزاة والسخرية .  
وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى حالة من الحالات .  
كيفما كان شأنها . فلمح على البعد شجرة تشبه نورها بين  
الشروع المحيطة بها ، فخطر له أن ينلج بإصلاح ذالقتها . فمشى  
إليها يتخيل في ثيابه الخلاء . لأنها ثم تكن ثيابه . بل ثياب بعض  
أقربائه أعاره إليها هذه الباعثات من الليل وصاحبها أطول منه  
قامة . وأصغرها جصداً . فلما دنابها رأى أن ذواتها قد التوت  
على نفسها غطائل ولبودت وغرقت في الشعن المحيط بها .

ليدا له أن يمرض أملاًها ليضفر لشفها ثم يسمح للشعن البائل  
حولاً . فلما هو إلا أن مد يده بالقرصان إليها حتى انطعأت  
وتظاهر دعيتها إلى ثوبه فأنشر في أكتافه فجند في مكانه جعود  
القرصان في يده . واستحال إلى قتال مضطرب حال بين أحمدة  
الشموع . لا يستطيع أن ينقل قلبه حياءً وسجلاً . فوقع ما  
كان يخافه . وحدثت حوله الأنظار غطائل . ومشت السبات  
والغمرات في الأفواه والعيون . ومر به في موقفه هذا أحد  
الظرفاء الشائعين وكان لا يعرفه فأمر في الله . أما تعلم يا سدي  
أن إصلاح الشموع في الخللات عمل قبيح لائق ؟ . وضع فتاة  
تقول لصاحبها وقد وقعت به : « ما أجمل زيكه هذا اللوب »  
فأجابها الأخرى : « إنه أجمل طوار في الكريكات » . فلم يجد بداً  
من السجدة بنفسه . فمر من مكانه عارياً لا يولي على شيء . حتى  
دخل بعض الماعز الخالية وسلس على ضفده فيها بتدريج بشرة  
القرصان ما شاعر على ثوبه من الشمع . فلتحن به ثوبه بعد قليل .  
وقال له : « ما بقاءك هنا وحدك يا استيف » . إن أسرة شارون قد  
حضرنا . ولا بد لك من بقائنا والبقاء معها حتى تنصرف .  
فاستعص استيف في اسمه وتناقل في مكانه كآفة عرفه . ويزاد به .  
فألح عليه أبوه فأدعى . وعش إلى مكان هؤلاء التوم فحياتهم  
رجاء تلك الفتاة التي يرتدون عطفها له بحبة واحدة لا تشبه الحبة  
الخطية . ولا الخبز . بل لا تنقص من ثوبه المتأخرين الشاكزين  
لا قليلاً . ثم ثم يلبث أن وحده السيل إلى الخواص . وما فاقبل  
من مكانه وأخرج إلى ضياء الحديقة . وجلس على بعض دوابها  
يقم على المعامل والمراقص . وما ضمت بين أطرافها من دواب  
وشرور وقول

على هؤلاء القوم أن يرضوا بكمالهم

يرقصون ، ويقترعون صفوف النيات والآثام ، ويتولون لهم  
يتون أو يطرون ، وواقفاً اجتمعوا إلا ليخطب العاشق مشقته  
من يد زوجها أو أختها أو أيتها ، حين أعيته الوسائل إليها ، أو  
لفتش الزوجة التي ملت زوجها وسقت عن عثير جديد غير  
محول ، أو ليلقي الأب بابتة العانس الشغواء بين ذراعي فتى  
من القتيان الأغرار يرجو أن يصبه الشغب الحاضر بها عن شقر  
إلى عيوبها فيقع في بحالها ، ويصبح على الرغم من زوجها لها .

إن كانوا يريدون للنساء فلم لا يتولون إلا راقصين ، أو الرقص  
فلم لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع  
رجل ؟ ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماصكين ، كأنهم بين  
جلودان عذاهم ، أو وراء أستار نوافلهم وأبوابهم .

من هذا الزوج الذي يلقي زوجته غايبة الصبور والفهر  
والذراعين والكتفين بين ذراعي فتى جنيل ساحر بلاصفها  
ويغاصرها ويقلها بين يدي شهواته ما شاء - أن تعود إليه ساعة  
تعود بالعقل الذي ذهبت به ، وبالقلم الذي كانت تحمله بين  
أصابعها ؟ ومن هذا الأب الأبهة المألوف الذي تهرم بابتة ويستغل  
مكانها من فيقذف بها بين غلاب هذه الوحوش الفترسة -  
الأنموذ إليه بعد قليل حاملة مع هذا الأول حين آخرين ،  
عائداً على رأسها ، وجيئاً في أحضانها .

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون  
أعراضهم بأيديهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنأً .

ولم يزل يهتف في نفسه بأمثال هذه التصورات القرية حتى  
انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ،

وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقاءه  
أن يتخللوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم المكان دعا اثنين منهم ،  
وقال له علي مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مضاهرة هذه  
الأسرة منذ عام وذلكك على مكان الخمر لك في هذه الضيقة  
الرابضة ، فأبيت واستعصيت وقررت مني راحياً رأسك إلى حيث  
لا أعلم لك ملجأ ، فلما عدت في هذه المرة علمت أنك قد أذعنت  
وأصحت .<sup>١</sup> وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً  
فيبحث نظرها من الطريق التي يطلونها من فاقمت هذه الحفلة  
الراقصة وأنفتحت في سبيلها ما لا طاقة لي باختناؤه لا أريد بها إلا  
أن تكون موضع الفلة بينك وبين تلك الفتاة التي اخترتها لك  
والخطوة الأولى إلى عطفها فأبيت إلا أن تردأ وعناداً كأنك علمت  
أنني باق بك الدهر - أنفك وأنتك ، أو بجلي إليك أن هذا  
العلم الذي تدرك به وتعتز بمكانك منه منجم من مناجم اللعاب  
يخرج لك ما يتوكل اليوم ويقوت من دماغك من بذك وأهل بينك  
غداً ، فإن كان هذا ما ذهبت إليه فاعلم أن تروني لا تسع لأكثر  
من أيام حياتي ، ولا تسع في حياتي لأكثر من الاتفاق عليك شكلاً  
وخلواً وعلى . ثم أنت وحاشاك بعد ذلك ، وأن هذه القنون الأديبة  
التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن تكون في  
زمن من الأزمان وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبباً من أسباب  
السبب ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ، لأن السعادة حقيقة من  
الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك  
الخبر فتوكل الرأي الذي رأته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ،  
فتوكل الأرض الفضاء فامش في مناكبها ما شئت ، وأطلب لنفسك  
الرزق من الوجه الذي تراه ، فقد أصبح وجودك في منزلي على

(١) سبب الخمر ، قال واثق



حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً عليّ وعلى أمك جسيماً .  
بل عاراً علي نفسك إن كنت من الشاعرين !

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هاأنذا قد أشهدتكم عليه وبرئت  
إليه وإليكُم وإلى الله من ذنبه ، فلا متبعة عليّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه : « إني لم أرى في حياتي جنوناً مثل هذا الجنون » !

وقال آخر : « لعله سقط في حوة من حوى الغرام ، فلا مانع  
له من الارتباط في قعرها حتى الموت » !

وقالت زوج أليه : « لعله أحب عروس الشعر فتى بها عن  
كل عروس سواها » !

وقال معه وهو يرتعز غضباً : « فتح بالقي أن يكون لي من  
كهنه السن حاملاً طوي كاهله قوة كهنه القوة ، ثم يرضى نفسه  
أن يكون حالة على قومه وذويه » .

فطار طائر العلم من رأس استيلين واعتلى من وجهه ذلك  
الغنى الذي الحصول الذي كان يثوب عند ساعة عجباً أمام النظرات  
والفتنات . وحل محله رجل خائف خيال لا يخشى أحداً ولا يبالي  
شيئاً ، فرجع رأسه ونظر إلى الجميع نظرة شواء ذهلت لما انقارهم ،  
وخلفت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أليه . وقال له : إني لا أحب  
على واحد من هؤلاء ، لأنهم مسجون نفسي فصرخوا على لفتك ،  
لما أنت طائي أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إليّ فيما مضى  
كما تقول ، ولكن لا يجعل بك أن تمن عليّ إحسانك هذا ،  
ولا يجعل لي أن أشكرك لك ، أو أنني عليك به . لأنك أب .  
والثبوت حين لا بد لك من أدائه ، واحتمال المؤونة فيه ، على أنك

لم تمنحني في يوم من أيامك الماضية عطفك ، ولا رحمتك ، ولو  
فعلت لكان ذلك خيراً لي من كل ما أسديت إليّ من صنوف  
البر والمعروف . بل كانت شأنك معي في كل آناء حياتك  
شأن رجل عابر في سبيل . وجد في طريقة طفلاً ملقاً في قدامه  
مطرحاً تحت جنود بعض المارلين أو على باب إحدى الكنائس  
ذالقة وكفله مئة وإحساناً لا رحمة وخشياً ، فقد أخذني عنك  
أنا وأخي منذ مائت أمة . وبيت يزوجك الحاضرة قبل أن أبلغ  
السابعة من عمري . ووضعني في جحور قوم لا تحبني بهم جماعة  
بجدة ، ولا تعطفهم على أسرهم رحم ، ولم أجد فيهم من يذكركني  
بك ، أو يحبك إليّ ، أو يخليني عنك حيناً واحداً ، وكنت  
كلما عدت إليك في أيام إجازتي من الشام سخطيني بالوجه الذي  
تستقبل به أبعاد الناس عنك ، وأصغرهم شأناً عنك ، فلا تمنحني  
بكلمة طيبة ، ولا تؤثرتني بنظرة رحمة ، ولا تنهر عليّ في مرضي ،  
ولا تتفقدني في شدة ، ولا تبتسم لقلبي ، ولا تحزن لقرائي ، وكثيراً  
ما سمعت الميالي قويات البعد أتعب جفني عنك ، وأصرع إلى  
الله تعالى أن يخلي قلبك من قلبي . وبرز قلبي حيك وحالك ،  
علم يستحب دغلي ، فاستوحشت نفسي من نفسي . وغلبت على  
طبعي هذه البقرة التي لا تزال ملازمة لي حتى اليوم . ولولاك لما  
سنت غلواً ولا متوحشاً ، وما بقي القصوة كلها ، فأصبحت  
لا أعطف على أحد ولا أحب أحداً ، لأنني لم أتعلم العطف ولا  
الحب من أحد ، وما لم أجد في الناس من أحبه وأعطيه أحبت  
نفسي وحريتي وأعطيتهما وأثرتهما على كل شيء . في العالم ،  
فلا أحسن أن أرى من ياترني فبما أو يخالني عليهما .

إن حياتي هي . وأنا ماضيها الذي ألقى شأنها ، فلا سلطان  
يحد يدي عليها ولا شأن لكائن من كان فيها سواي . فلا أصبر

في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل حياتي  
على أساس غير الأساس الذي أضعه نفسي ، ولا أحب إلا الفتاة  
التي أحبها أنا . لا التي يحبها الناس لي ، ولا أحشر إلا المرأة التي  
أقيس سعادتي معها بمقياس عقلي ، لا بمقياس عقول الآباء والأمهات .  
فهاج القوم عليه حياءً عظيمًا ، وصرخ أبوه في وجهه .  
وثاوره عنه يزيد الفتك به ، وتناولته الألسن بالشتم والبس ،  
فلم يأنه بذلك كله ، ولم يزلزل من موقفه ، واستمر في حديثه  
بقول :

يأتي حين تريدون أن تسلبوني حريتي وتلكعوا علي ، أين  
العبد الذي يذنبوه لي ، فيما مضى . وما عرفت بينكم حياءً  
لي ، ولا راحاً ؟ أم بين الكرامة والحق ، وقد كنتم جميعاً تصرونني  
صديراً . وما أنتم أولاء اليوم تشتموني كثيراً ؟

إني قاتل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم ،  
إني لا أحب إلا من يحبني ، ولا أكرم إلا من يكرمني ، ولا أذعن  
إلا لأولي ولداوتي ، ولا أبيع حياتي وحريتي حتى خلافتها الذي  
منحني زواجها بشئ من الأمان مهما علا .

إني لا أطلب منكم مالاً ، ولا معرفة ، ولا أشكو إليكم قراً ،  
ولا عسماً ، وأسألكم نفسي بنفسي حطة حياتي ، فإن قدر لي  
التجاع فيها فذاك ، أو لا ، فحبي من السعادة التي فقيت أيام  
حياتي حراً طلباً . لا سبيل لأحد علي ، ولا شأن لكائن من  
الكائنات بعدي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما بيني وبينكم .

ثم انقل من بين أيديهم ومرح إلى غرفة فبدأ ليابه وتناول  
حقيبة ملايه . وخرج هائماً على وجهه يخرق أحناء الظلمات ،

حتى خرج إلى ضاحية المدينة فبعه في من أبنائه أحواله كان قد  
ألم ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيف ؟ قال : إلى حيث  
أرسلني أهلي ، فبكني قريبه مرثاة له عما حو فيه وقال له : والرحمنه  
لك أيها اليائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب ،  
لم يشتبه لها استيف إلا بعد ذهابه ، فشكرها له في نفسه ، ثم مضى  
لسيله .

( ٣ - )

### النفس العالية

لا تفتضح النفس العالية للحوادث ولا تدل لها ، مهما كان شأنها ،  
ولا تلين صحتها أمام التكيات والأرزاء مهما عظم خطبها ،  
وحل أمرها ، بل يزيدنا من الحوادث وحسن التواب قوة ومراساً ،  
وربما لد لما حسداً التصادم الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر  
وأرزائه ، كأنما يأنى لما كبرياؤها وترفعها أن يوافيها حظها من  
العيش سهلاً سائماً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب وتجاهل في  
سيله وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدعا قوة والخصاباً ،  
فعلتها بين النفوس كممثل البث بين السباع لا تحدد عينه إلى لمسة  
غيره ، ولا يبتأ له طعام غير الذي تجمعه أيابه وغاليه .

كذلك كانت نفس استيف بعد نزول تلك التكيات به ، فإنه  
لم يخرج ولم يتلم ، ولم يبيت الناس بقله ، بل فارق ( كريلانس )  
كما دخلها سائق النفس ، مطمئن الفسير ، مغرور القلب ثقة

( ١ ) قصيدة : فتاة للفرقة .

وأعلاء ، فلم يزال سائر أبقية ليك يعطون الأرض على قدميه طية  
حتى مشيت في حلبة الظلام لثمة البحر . فالتفت فإذا بقية من شيخ  
( ثوبلايس ) لا تزال حائلة . فالتفت عليها ففرقة . والخمة مكتوبة  
ثم قال :

الوديع ألب العوم الذين طردوني من بيهم . ولم يرووني السمة  
واحدة أتبع بها في طريقتي . ولا دابة أحمل عني حطيتي . ولا  
كفلة أحمي نسي إلي في مفارح طرقي . لقد تبتت حكم من  
قطني قبل ظم التوبة ونقضت يدي منكم بغض الوديع بانه من  
تراب البيت . فأصبح قطني وسديري وحبي وحادي ونفسي وحيتي  
وكل ما ليك يدي منكأ جالسة لذلك الأتوب الذي أحسني وأحبه .  
ووق لي من دون الناس جميعاً . . . . . لا يبارك في مزارع .  
ولا يزال معي في سويده قطني نازل . وسيكون حبه ماري الذي  
أعطني به في سلمات حياتي . حتى أتله دعوة السعادة التي ألقنها  
لنفسى . وهناك لزود أياهم تقوم أخفاف القساة أن ذلك التي الخامل  
لسكين الذي وقتت بكم بالألمس ميتة وثيلة لا يكاد يرفع يده  
إليك حياه وخيلاء . قد أصبح رجلاً زلياً عطشاً غياً بماله وجاعاً  
عن مالكم وحافكم . وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل  
من بعدها بكم ولا برحمتكم

ثم مشى في طريقه يعك نفسه بالأعمال الخسار . ويرسم لسفيل  
حياته ما شاء من الخطط والنظم . وكان كلما أتبعه الشر دفع إلى  
أصحاب المعاملات الثارة في طريقه تحمل الأثقال وزحماً أو ذريعين .  
ليحملوه على عهدهم أو يذوقوا به داخلوس في مؤثرها ساعة  
أو ساعتين . ثم يعود إلى شأنه الأول . حتى وحمل عند مجتمع  
الأميل إلى « جوتنج » وهي طيلة التي تعاد في مدرستها . وتبين  
فيها أكثر أيام مساء

( ٣١ )

## النفوس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط « جوتنج » إلى أستاذة القديم في  
الموسيقى « هومل » ليفضي إليه بشأنه . ويستعين به على قضاء  
حليته . وكان له بمثابة الأب الرحيم . يحبه ويكرمه ويؤثره على  
تلاميذه جميعاً . فلما وقف بين يديه عقل الحياة لسانه . فلم يستطع  
أن يقول له شيئاً وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية بدأ الشعر  
لنفسهم عزة وخيلاء . فصلاً للزرة وجوههم حياه وخيلاء . فلا  
يفلون ولا يضرعون . ولا يجرعون على شيء مما يجرؤ عليه الناس  
حيماً كان تخليقهم الدائم في مساء الخيال ومقربهم في تلك الأجواء  
العالية عذرين والحين . قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملاء أرفع  
من الملاء الذي يعيش فيه الناس . فإن عرضت لهم حاجة من الحاج  
أبوا أن يسألوها أبداً من سكان الأرض . وربما اتقوا أن يسألوها  
ساكني السماء ذهاباً بأنفسهم من مواطن القسوة والمهانة . وقتاً  
بأديم وجوههم أن يخلفه السؤال . وكذلك يعيشون فقراء ويموتون  
بؤساء .

لذلك لم يستطع استيفن أن يقضي حاجته إلى أستاذة في المقابلة  
الأولى فرغم أنه إنما جاء ليتلقى عنه دروساً في الموسيقى . وظل  
يختلف إليه أياًما يسع غنامه ويغفله عنه حتى جرى بينهما يوماً  
من الأيام ذكر الحياة والمستقبل . فسأله أستاذة عما رسم من الخطط  
في مستقبل حياته . فقال : لا أبدي حتى الساعة . فقال : لا  
أعزف لك شيئاً غير هذا الفن الذي تحبه وتستهيم به . وأرى  
أن غرائك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه . فنقص



له استيقظ إن ذاك حيلة حاله ، وصارحه برغبته التي يريد بها ،  
لوعده بمساعدته والأخذ بيده . فانصرف مضطرباً مشروراً .

( ٣٢ )

من ماجنولين إلى استيقظ

لم استطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأنني كنت مريضة وبأسفر  
عليك قصة مرضي .

خرجت ذات ليلة لألقي رسالة كنت كتبها لك في صندوق  
البريد في قرية . هال . فلما بعدت عن « لقاخ » وغاب عني  
شعبها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين « هال » . حيث  
على ربيع عاصفة شديدة دوت بها جوارب الأفق . ولقعت لها  
قبة السماء حتى حسبتها توشك أن تنفض . وأخذت تحاذي لوري  
بجاذبة شديدة كأنها ثأني إلا أن تنزعني مني أو تنزعني معي ،  
فحدثني نفسي بالعودة من حيث أتيت . ثم ذكرتني وذكرت  
أنك تنتظر رسالتي . فاستعرت أذراحي ومثيت في مرفئي  
أبداً مع الريح مرة . وأتيسر أخرى . وأندفع متقدمة . وأكرر  
راجعة . فمن وأني في تلك الساعة خيل لي أنه يري ذات ليلة  
مرزاة . قد لعبت النار بالأنوار . وعظمت بأطرافها وأوصافها .  
معي نيم على وجهها في كل مكان تطلب الخلاص مما هي فيه فلا  
تجد إليه سبيلاً . فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين . فألقيت  
الكتاب في الصندوق ثم رجعت . وكانت العاصفة قد عذات قليلاً .  
ولكنها ما عذات إلا لتفتح الطريق إلى البيت الماطل . فلم تهدد  
لجودتها حتى نازت نازراً . وأخذ يتساقط سقوطاً شديداً . فابذل رداً .

بموقف بارقة

WWW.LIILAS.COM

ومشت الرعدة في جميع أعضائي ، واشتدت ظلمة الليل فما أحتدى  
إلى طرفي .

ولقد حدثتني نفسي لشدة ما نالني من التعب والإعياء . وما  
نلا قلبي من الخوف والوحشة . أن أسلم نفسي إلى كنف من أكتاف  
المضايك أو سفع من سفوح الجبال . أنتظر فيه منيتي حتى توافيني .  
لحال بيني وبين ذلك أنني أريد أن ألبا لك . وأقول شأن سعادتك  
التي عاملتك على أن أتولاهما لك . وأني إن ظلت نفسي ظلك  
معي ، فيمت ذكرك في نفسي قوة غابيت بها الطبيعة وعوامها  
والوجها . وبروفها وروعها . حتى يلبث التزل بعد لأي .  
تستطت مريضة محمومة .

ولقد كابدت في مرضي شدة عظمى لم أر مثلاً فيها مني في  
من أيام حياتي . دب اليأس في نفسي ديب المية في الأجل .  
وظننت أنني لا بد هالكة . وأني لا أراك بعد اليوم . فلم يكن  
يخزني في تلك الساعة شيء سوى أنك تستمع بغير موافق . ولا  
تسمع مع أنك كنت الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر فيه في ساعتي  
الأخيرة فحاولت أن أكتب إليك كتاباً وداع أبلك فيه بعض  
شأني فلم استطع . ثم شعرت في فترة من فترات السكون التي  
تتخلل سكوات المعنى أنني أستطيع التهوؤ من فرائي . فكشيت  
إليك كتاباً أوصيت لك فيه بجميع ما تخلك بيدي . وما تخلك بيدي  
إلا كشيء وعظفة رسالتك والخاتم الذي نسجته من شعرك وذخيرة  
من الذهب وزنتها من أمي وهي أجز الأشياء عتيق . وكياً صغيراً  
يشغل على بعض قطع قصية وذخيرة بما كنت أستغله من لغتي .  
ثم طويت الكتاب وأعطيت لمغنياف لترسله إليك بعد موافق .  
ولكن الله كان أرحم بي وبك من أن يحرمي منك ويحجبك بي .



له سعي المجد الملح فلا يتجوع ، حتى أوشك أن يتفد ما كان منه من المال . ولم يبق في يده عنه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو صانع بعدها . فلم يجد له بداً من أن يأخذ نفسه بالتقتير . ويحصل عليها العيش حلاً شديداً . فأكل الثافة من الطعام وليس الحظان من الثياب . وغنى بالأكل من الأكلتين . وبالحيز من الأدم . يقول في نفسه كلما برحت به الفاقة . واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لي يحيى : إن من كان قنياً قوياً . مثلك لا يحسن به أن يعيش حالة غل أهله ودونه . وهذاذا على فتولي وقولي أكاد أموت جوعاً . فما ألقى قلوب قومي . وما أبعد الرجعة عن أنفسهم !! لقد كان في استقامتهم أن يغفوني غنهم ضيقاً عاماً أو عامين . حتى يفتح الله لي بابه من أبواب الرزق فأرحل عنهم . أو أن يهتوا لي قبل أن يفرودوني من بينهم ملجأ احتصم به في المكان الذي طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الخراء المشردين .

وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالنسي إلى البروة والنجاح فيها . وملاً قلبها ثقة وأملًا في المستقبل . وأن مثله إن قدر له الفشل حيقنتها . ويقتي بها في مهواة اليأس والشفاء . فرى لها وأشقى عليها إشفاقاً عظيماً . وود لو ضلحت حياته لأن تكون ثمة لبعادتها فيلها في سبيلها . ثم دخل من الدنيا طيب النفس عنها . وعن جميع آماله وأماله فيها .

ولقد مرّ به يوماً . في بعض مواقفه بجانب بعض الحفريات . في زوي الحبس . الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعونة فردى وجهه عنه حياءً وحجلاً . فقال له يحيى : أقسم لك بالله يا سيدي أنني تركت زوجتي ورائي ما تطلق الوقوف من الطوى . ولقد من لي وبها يوماً ما أجد ما يتبلغ به إلا البكاء والدموع . فانتفض

استيقن التضاضة شديدة والتفتت إليه وقال له : أذهب زوجتك كثيراً أيا القى ؟ قال : نعم يا سيدي كما أحب حياتي . فأطرق برأسه خيبة وظل يقول في نفسه : إنه يستعدي !! عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها . والناس لا ينطقون ولو عقل لعلم أنه يسألم حقاً من حقوقه المقتصة لا يعرضه من دوله معرض إلا استحل منه ومشي على جسده إليه . فلا جرعة في الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التي بجها ثبوت بين يديه جوعاً فلا يفعل شيئاً أكثر من أن يمتص عينيها وسحبها بطنها . ثم يجلس بجانب سريرها يتكلمها ويندبها . ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان منه من المال فأعطاه لفتي صامتاً . ومشي في طريقه وهو يقول : لقد أنقذتها من غلاب الجوع بقصة أيام . وأسأل الله أن يقبض لها من يتول شأنها بعد ذلك .

وكذلك عاد استيقن إلى مأواه . وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

(٣٥)

من ماجدولين إلى استيقن

مرت في اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيغها إلى كورلايس فالتفتت بزيارتها اغتراباً عظيماً وتحتيت أن لو كنت حاضراً بينا لثراها قري أجمل الفتيات وجهاً . وأرقين شمائل . وأغنى حديثاً . وأجمعين لأفضل الصفات وأكرمها لهم تنطق

(١) الصنع لون تداء على لون . شب إليه أن يشبه عليه . أن يتصفه به .



معات كثيرة - ونحن الرسم والتصوير - ونوقع على جميع أنواع  
الأوراق - وتعي عام سائراً قناراً - ولما نثر وعاء لا يفارقه  
بالسما حقة واحدة ولا يطرأ في الحياة شيء - مثل منظر التهو  
والعب ولا يجمعها حديث مثل حديث المعامل والمناقض - وقد  
أصبحت مفتحة بها لا أكاد أصبر معها لحدة واحدة - ورجائي  
إليك يا استيفين أن كتبها كما أكتبها - وأن تودد إليها كثيراً يوم  
تسرعان

(٣٦)

من استيفين إلى ماجدولين

سأحب صدقتك يا ماجدولين كما أكرمت - ولكن ليس لأني  
حبيبة فائدة كما تعلمين - فقد ملأ حداثك قضاء قلبي فلم يتبق  
فيه بقية لسواك - ولا لأني ترخص أو تمنح فإن نفسي الحزينة لا  
يتقبلها من دأبها إلا أحد الأكرمين إما لقائك - أو الموت - بل  
لأني نؤس وحشتك - ونحبت ألامك - ونجيت من اعتسأ أهداء  
الحياة والأفلام - فاشكرها عني شكر أجزيلاً - وبلغها تحيي وسلامي

لا يزال الشعر عساً في وجهي - ولكنني صار حتم - لا  
زأمر ولا أسلم ولا نعم لي مرة حتى أنان نفسي - والسلام

(٣٧)

من أوجين إلى استيفين

وصلت إلى عذبة السيدة ماجدولين - فتكرت صيبتها شكر

جزيلاً - ولقد أصبحت بفضل عذبتها صاحب زداة جديد كنت  
في أشد الحاجة إليه وكانت يدي تقصر عنه - فأتبعه وأصبحت  
فخوراً بخلافه به بين أترابي وعشرائي - فيلج صاحبة العذبة شكري -  
وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزيا عجزاً بما فعلت - فإن  
عجزت عن ذلك فلا أعجز عن أن أكتبها عن الوقائع الثرية التي  
شاهدتها أحاديث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً

شاهدت بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعت عند  
الصدمة الأولى - ولكنني ما لست أن سمعت صهيل الخيل وقرع  
الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انشيت وانطلقت  
بجواري اندفاع السيل الشهير لا أشعر بشيء مما حولي ولا أرى  
إلا فريق سيني في يدي - ولقد استأثرت نفسي غبطة وسروراً  
عندما رأيت جيش العدو يظهر أمام جيشنا - حتى خيل لي أنني  
أنا الذي زحزحته وحدي من مكانه وأجأته إلى القرار - وقد عرف  
قائدي فضل ما أبليت في هذه المعركة فرفقاني إلى عرجة - وصفت  
ضابط - ولي أمل أن أعود إليكم في عهد قريب باسم « الضابط  
أوجين »

(٣٨)

من استيفين إلى ماجدولين

قد انضم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين لقد ولاني أستاذي  
بالأمس في الخان الذي أنزل به ما انقطعت عن زيارته بقعة  
أسابيع لأمر ما - ويشترى أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس  
الصغيرة بوظيفة شعبة قليلة ... وقال لي إن مدير المدرسة وعده

أن يصاعفها إلى شعبين بعد ثمانية شهور : فسميت الله على ذلك

لا صعب في الحياة يا ماجولين غير الخطرة الأولى : وإذا  
خطأها المرء جازى عليه ما يبدعها . فلها من اليوم بالقادح . ولتخط  
بالسعادة التي طالت تحياها حتى بلغها .

( ٣٩ )

من إدوار إلى استيفين

لا يران الفراخ قائما بيني وبين عمي . يأتي إلا أن أعيش عيش  
المقلين وأني إلا أن ألتصع بمالي الذي ورثته عن أبي كما أحب  
وأشتهي . ولا أعرف ما الذي يحب من الخرص على ما لا يحسم  
أنه ليس له . وأنك بصير . فمما طالت الأيام لساعة ! ولكنها  
حيلة الجلاء والأشقاء . لا يقع في أيديهم شيء من عظم أو من  
ما لا يبرمهم حتى تلتوي أسيابهم عليه التواء الحية على الفصاء .  
ثم لا يفلت منها بعد ذلك . فقلهم كمثل الحياة التي تتقلب حادثة  
على كل ما يدنو منها . وإن لم تكن لنفسها من وراء ذلك شيء .

عني أنها أيام قلائل مشغوبة . وسألتك عن الرشد بعد بضعة  
شهور . فلا يبقى له ولا غيره . علي من سبيل .

لست ببعيد شاك الخاطر . وصحت أن أهلك قد نقصوا منك  
علاقتك أيهم . فوكلوك إلى نفسك . وبقوا أيديهم منك .  
فتركتهم . فكلوا . وسافرت إلى « جوننج » فقلت لك  
بها الرزق من طريق العمل . فلم يوافقك حتى اليوم ما تريد .

فليت الذي كان يا صديقي لم يكن . وليتك أعلت بذلك الرأي  
الذي رأيته لك من قبل . وسلكت إلى الحياة طريقاً غير هذا الطريق  
الخيالي الذي تسلكه اليوم فزوجت من الفتاة التي اختاروها لك .  
وخطرت بنسبة العيش في غلظة . فلا سعادة في الدنيا يا صديقي  
غير سعادة المال . وكل ما في أدعة البشر من علم وعقل وما في  
أجسامهم من قوة وأبد . وما في نفوسهم من فصائل ومزاج .  
إنما هي سبل المال وقوائع إليه .

أعديك تحيني وسلامي . وربما زرتك في « جوننج » في عهد  
قريب . فقد ضقت ذراعاً بذلك الرجل . وأصبحت لا أطيع  
القضاء معه لحظة واحدة في بلد واحد .

( ٤٠ )

من استيفين إلى إدوار

لا تحب علي يا صديقي . إن قلت لك إن لي في الحياة رأياً  
غير رأيك وغير ما يراء الناس جميعاً .

إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس . ولا أنهم  
من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة . وإن تمت يدونه  
فلا حاجة إليه . وإن جاءت بقليل فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا يتفني من المال وماذا يبقى غني يوم أغلب طرفي حولي  
فلا أرى بخاتي ذلك الإنسان الذي أحب وأؤمنه . وأرى في مكانه  
إنساناً آخر لا شأن لي معه . ولا صلة قلبي بقلبه . فكأنني وأنا  
نحال به خال يتفني متقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذي يتزوج المرأة طامعاً إنما هو لص خائن . لأنه إنما يأخذ من مالها باسم الحب ، وهو لا يحبها ، وإنما يأخذ آخرى . لأنه فقد عن الشيء نفسه . فوكل أمره إلى المرأة ضعيفة نظونه ونحوه وساقط المروءة . مثقال : الأكمة يأخذ جسمه للنساء . كما تأخذ الشيء لنفسها للرجال . يستفيد من وراء ذلك قوة .

نعم إنني بأش فقير . كما تقول . ولكنني أسعى لنفسي سعي المحل المتعوب وقد بدأت أتبع في مساعي منذ أمس . فقد حصلت على حليقة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد . واستأجرت لي غرفة بسيطة وأصبحت في مسكن خاص وسيتهي يومي ومقتني . وأول السادة التي أرجوها . وسيكون أعظم ما أغتبط به في مستقبل حياتي أنني أنا الذي صلت لأكليل معادني يدي .

أحييت يا إدار . وأرجو ألا تغيب عليّ فيما قلت لك . ولعلك تفرح بوعدي لي . فأراك في خروجي في عهد قريب .

( ٤١ )

### غرفة استيفان

سكن استيفان بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة طويها عشرة أقدام وعرضها سبع . ووضع فيها سريراً من خشب وبضعة عارية يكتب عليها ليلاً ويأكل عليها نهاراً . وتربص غطاني الحجوم والشكل . يجلس على أكرامها وأملحها ذاتاً . ويضع حبة ملابس على الأجر . ويصنع قفطليج ، وحرة ثناء . بعض آية أخرى . وكان يعرفه كثرة اشرف على خروج مثلال .

قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما اشرف منها ورأى ذلك المنظر الوحشي استأزت نفسه قليلاً ، ثم قال : لا بأس . فذلك خير لي من أن يطلع على عليّ أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة موزقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي أفتح عليها نظري كل صباح . وهل يتبع صاحبها الذي يملكها ويتعدها منها بأكثر من ذلك ؟ ثم رأى على مقربة منه كيسة صغيرة فقال في نفسه : أربح أن تساعدي دقائق ساعتها على معرفة التوقيت ، ثم ما لبث أن سمع رائحتها فأخذ يدها فزعاً متبهجاً وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفان بمسكنه الجديد على صخرة وحجارة شاله الخياط عظيمًا لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وإتاع أكلته وأدواته من ماله وظل يقول في نفسه : في المسكن الطامع يستطيع المرء أن يكون حراً في قيامه وقعوده وجلوسه والمطبخاته ، ونومه على الحبة التي يريد لها لا يتكلف ولا يتصل . يتعامل الناس ولا يراهم . ولا يضع نفسه في القالب الذي يصنونه له ، فيرفع يده في اقواء بقعة دون أن يخاف وقروها على وجه أحد . ويستعين بتقليب يده وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسبه أحد ، مجنوناً أو مجتلاً . وبعد قديمه في الثانية التي يريد لها لا يغشى حجاباً يحلله على الأدب أو يلاحيه في قواعد وأصوله ، أي أنه يكون على الصورة التي خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص شيئاً .

وكان لا يد له من أن يعيش عيش الإقلال والتفكير فلا يلاق في ذلك عناء عظيمًا لأن كان قهرماً مجزأ . فظم دخله بين ثقات طعانه وشرايه وماله وأجرة مسكنه ورواق ما عليه من دين الأثاث



التي ابتاعها ، وعاش بسنة سائمة لا يكتسبها عليه مكدرا ، لأنها  
كانت مبنية على الأمل ، ورجاء .

( ٤٢ )

### الطارق الجديد

جلس استيفن في غرفته لمدة يوم من أيام الآحاد ، وهي الأيام  
التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصفه ، لمسح خفق لعل  
ثغيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارتها الميجوز التي  
كانت تختلف إليه من حين إلى حين لتصل له جرة الماء من البئر ،  
فدعش وتسمع فإذا القادم يصبح باسمه صياحاً عالياً فتحيل إليه  
أنه يعرف صاحب هذا الصوت ، فانتظر الباب ففتحه فإذا صديقه  
« إدوار » فانهج بمرآة وعلاقته عناقاً طويلاً وقال له : لقد وفيت  
بوعبك أيها الصديق فلنك الشكر على ذلك ولقد كنت أترقب حضورك  
ترقب المبرور أشعة الشمس ، والغمام ، دجاجة القطر ، فقال له :  
سأزل عندك في ظرفك هذه الصغيرة خبثاً شهرين أو ثلاثة ،  
وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد ، ولقد اشتد النزاع  
بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أعقبه ولا يطيقني ، ففكرت  
منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي  
بيني وبينه ، ثم دخل ، وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفة وأبدع  
شكلها ! إيا أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أفكر ، وعند  
إلى حفيته ففتحتها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطاً وبضعة متاعيل  
من الخبز وقلعها هدية إلى استيفن ، فقبلها به شاكراً ، ثم قام  
استيفن إلى شريحة لحم كان يدها طعام اللد فاشتواها ووضعها

على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من البصل ،  
ثم أعطاه باكلاًان وبسببانه وببلاكران أيام طفرتهما الماضية ،  
وكذلك قفيا بقية يومهما ضروريين مغتربين حتى أثت ساعة النوم ،  
فغرس استيفن لنفسه حشية في بعض جوانب الغرفة وترك السرير  
لصيقه وتاما .

ولما أصبحا أعطى استيفن « إدوار » قبل ذهابه إلى المدرسة  
جميع ما كان معه من المال وقال له : إن وظيفتي في الشهر مائتا  
فرنك أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة  
الغرفة وسداد دين الأثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين  
فرنكاً في الأيام العشرة الماضية ، وما هو ذا الباقي يقول أنت إنفاقه ،  
فأثت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ،  
فلم يلبث « إدوار » أن نزل إلى السوق فاشترى لحماً وخبزاً وتوابل  
وقاكة وخميراً ، وأنفق في سبيل ذلك اثني عشرة فرنكاً وجلس  
يطبخ ويشوي حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ما  
هذا يا إدوار ؟ أوليمة هي ؟ قال : نعم وليمة الاحتفال بقدمي ،  
فأجلس استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما قلت ، وذكرني بما  
كنت عنه لاهياً ، وجلس يواكبه حتى فرغا من الطعام ، فقال  
له إدوار : أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لا بد لنا منها ،  
فأذن لي بمشتراها ، وأعطك ألا أتباع إلا ما لا بد لنا منه ، ولا  
أنفق في سبيل ذلك إلا ثمناً طويلاً ، فقال له : لك ما تريد ، فخرج  
ثم عاد بعد ساعة يمشي أشد سحياً ووراءه جمال يحمل له  
مرآة كبيرة ومشطاً للشباب وهو يقول : ما أنفج الغرفة التي لا  
مرآة فيها ، وما أشد وحشة البيت الذي لا يشع فيه كلب ، على  
أنني لم أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكاً ، وأنتك  
تري يا استيفن كما أرى أيها صديقة راحة نادرة قلما يتفق مثلاًها

لأخذ ، فضحك استيفن وقال له : ما أعجب جنونك يا إدوار ؟  
قال : وهل تطيب الحياة بغير جنون ؟

وكذلك لم يأت اليوم المشرون من النهر حتى حضرت أديهما  
من القود ، ولم يجد عليهما الكلب ولا الشيب ولا المواء شيئاً .  
فقال استيفن : ما السمل يا إدوار ؟ قال : الأمر أعون عما نظن ،  
وسأرى لك الرأي الذي يتقنا ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل  
يصحبه أحد الخمايين ورجل آخر من تجار الأثاث ، فرقت على  
عثة الغرقة وقال للرجل : خذ وهذا السرير فإنه يضابق القرية  
كثيراً ، ولا ظهر أثبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض وعند  
هاتين الوسنتين الثابتتين ، فالوسادة الواحدة إذا ثبتت تنكبي  
صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك يا صديقي ؟  
فأجاب استيفن وكان ميكاً على منضدة يكتب كتاباً إلى ماجدولين  
لهم كل شيء ، وقال : بل يا إدوار ، قال : أنتظن أن زواجاً  
واقعاً كزواج هذه النافذة يفي طويلاً على هذه الرياح العاصفة في  
هذا الشتاء الشديد ؟ قال : لا ، قال : أليس من الحزم أن ننتقم  
بشئ بدلاً من أن نتركه لعبة في أيدي الرياح تميت به ما نشاء ؟  
قال : ذلك هو الرأي ، فمشى إلى النافذة فأنزع ألواحها واحداً  
بعد آخر وأعطاهما الخمال ، ثم قال له : وهل ترى أننا في حاجة  
إلى مثل هذا القطاء الضيل في مثل هذه الغرقة الضيقة ؟ قال : لا ،  
فأمر الخمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع في هذه الخزانة شيئاً  
تخاف عليه أن يسرق ؟

فضحك استيفن وقال له : لو كان عندي ما أخاف عليه لم  
نصر إلى ما صرنا إليه ، قال : إذن ما يقاء هذا القفل فيها ؟ ثم  
مدّ يده إليه فأنزله من مكانه ، وغلق يقب نظره في الغرقة حتى

وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له : انتظر يا إدوار لا  
تمسها حتى أتم رسالتي ، فضحك وقال : إني أتركها لك إكراماً  
لماجدولين ، وأخذ يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه  
بثلاثين فرنكاً ، ثم عاد إلى استيفن قال له : ماذا ترى فيما تم ؟  
قال : أرى أن تعطيني هذا المال الذي سمعت لأنت في إلقائه بدلاً  
منك ، فإنك لا تستطيع أن تكون حازماً ، قال : أظن أننا قد بدأنا  
تختلف يا صديقي ، لأنك تحب التفتير وهو لا يجني . وأنا أحب  
السعة وهي لا ترغيك ، فتخير لي ذلك أن تقسم رايك بيننا  
قسمين ، وأن يعيش كل منا وحده بالقسم الذي يعبه ، وسمت  
هبة ثم قال : على أن أفترقا في البيت لا يتم إلا إذا افترقا في  
السكن ، فليخص كل منا بهبة من الغرقة مستقلة من جهة صاحبه .  
وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الحص وخط  
بها وسط الغرقة خطاً مستطيلاً ، وقال : هذا قسمي أنا وكلبي  
ومراتي وشجتي وهذا قسمك وحدك وهو خير من قسمي وأخبر  
منه مرافق ومنايع ، لأن فيه المنصب الذي تطبخ عليه طعامك ،  
والمنضدة التي تكتب عليها رسالتك والنافذة التي تمد لي قضائياً  
فراغتك كلما أردت أن تلبس قميصك أو سمطك ، فأغرب استيفن  
في الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرقة يعمل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينتقم على استيفن عيشه ، واستيفن لا  
يغضب ولا يشكو ، بل لا يشعر بألم ولا ضيق لأنه كان صديقه وكفى .

( ٥٣ )

التفصيح

خرج إدوار ذات يوم يرفاض في بعض أطراف القرية ، وبقي

استيقظ وعنده يلقون في دفتري بعض نقمات موسيقية لقديوس القدي ،  
وله كذلك إذ سمع على السلم خلق نعال كثيرة وأموراً مختلفة  
وصباحاً غالياً فدهش وقام إلى الباب ففتحه فإذا رجل طويل القامة  
عريض الكتفين بلبس لباس عمال المناجم تشتمل عيناه نازراً ويتلفت  
الزيد من شغفه وقد أمسك بيده سيقين عربيتين ، فلما وقع نظره  
على استيقظ قال له : أأنت المسمى إدوار ؟ فعلم استيقظ أن الرجل  
يريد يصديقه شراً وأنه لا يعرف شخصه فاشتق منه وأراد أن  
يعرف ما قرنه عنده فقال له : نعم أنا هو فعماذا تريد مني ؟ فاجلوه  
الرجل بالطمعة على وجهه أغفلت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك  
التي دفعتك إلى مبارزة زوجتي وانتهاك حرمة بيتي والبيت يترفي  
لا تفارقك في هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف  
النهر ، وما هم أولاء شهود المبارزة فليختر كل منا من يشاء منهم ،  
فأخذ استيقظ من السيف صامتاً وقد فهم كل شيء . وكان ملداً بعض  
الإثام بقعة إدوار مع زوج هذا الرجل . وأشفق عليه أن يصيبه  
من تلك المبارزة شر ، ولأنه كان يعلم أنه لم يجرؤ في حياته سيقاً  
قط ، فمضى مع خصمه صامتاً لا يقول له شيئاً حتى بلغا الضفة  
النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيقظ ماجدولين وود  
لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال :  
هل أحد مع أحد منكم بطاقة صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد  
فكتب هذه الكلمة الموجزة « إني لموت في مبارزة شريفة وأنت  
أكثر من أنكر لي فالوداع يا ماجدولين ، وكان أحد الملاعين  
واقفاً على مقدمة سيفه بجانب الضفة فرأى استيقظ وهو يكتب  
كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفتش عن رسول يبعث بها  
معه ، فأثر نظره في نفسه وتقدم نحوه وقال له : ائذن لي يا سيدي  
أن أحصل رسالتك إل من تريد ، فشكر له استيقظ صميمه وأعطاه

الرسالة بعد ما كتب عنوانها على ظهرها ، ثم شرع في المبارزة  
مكاثرت بيده فيها أنجز من يد خصمه ، فخرج بعد ضربات في  
فراخه جرحاً بليغاً ، فأرقت الدموع المبارزة وتضافح الحصان  
والفلاح لا يزال واقفاً مكانه ، فقال له استيقظ وهو ساقط على  
الأرض بصوت ضعيف : مرق الرسالة التي ملكك فلا حاجة إليها  
الآن ، فمزقها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه منديلًا فغصب  
فراخه ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ بيده وظل سائراً معه حتى صعد  
إلى غرفته ، فأجلسه على فراشه وجلس بجانبه بضعد جراحه وبأسه

( ٤٤ )

الصدقة

جلس إدوار إلى صديقه في الليلة التي عزم على السفر في بعدها  
وكان جرحه قد أشرف على البرء ، وقال له : سجلت لك  
بذمتك يا استيقظ في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ،  
كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وحسبك قد  
أوبيتي . وواسيتي أياماً طويلاً ، واحتضنت لي ما لا يحصى أع  
لأخيه ولا أحدهم لحبيبه ، فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع  
ما كاداً به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف منذ خلقت  
الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ،  
فقال له استيقظ : إني لم أسد إليك يداً مستحق مكافأة ، ولكنك  
صديقي ولصدقة آثار طيبة تنبعث ورامها جريان الماء في  
منحدر ، فإن كنت لا يد شاكرة فاشكر الصدقة التي غفلت بها عنها  
مذ كنا طفلين صغيرين . واليوم الذي لك شغل بشملك ، وعلمت



تفني بنفسك ، وحول قضية القرعون الكثيرين إلى قلب واحد ،  
وإن قدر لك يوماً من الأيام أن تعد يدك لموتني فليكن ذلك منك  
إذعائاً لرحمة قلبك وحسنه لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على  
معرفة .

إنني خفي منذ ولدت يا إلهي ، فأنا أحب الأشياء وأحلف  
عليهم لأني واحد منهم ، ولا صداقة في الدنيا أمن ولا أوتى  
من صداقة الغفر والثقافة ، ولا رابطة تجمع القليلين المختلفين مثل  
رابطة البرنس والشفاء ، فلو أنني غيرت بين صبية وجنتين :  
أحدهما فقير يضم فاقته إلى فاقتي ويصاحبها ، والثانية هي بعد  
يده لموتني فيرقه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لأثرت أرفها على  
ثانيهما ، لأن الفقير يتخذني صديقاً والثني يتخذني عبداً ، وأنا إلى  
الحرية أخرج مني إلى المال .

يظن السعيد دائماً أن السعادة التي يخرج في ظلها إنما هي منحة  
سماوية قد آثره الله بها من دون عياده جميعاً لتفضيلة كاشنة في نفسه  
لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص في العالم سواء ،  
وليس في استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية  
من عواردي النعم ، يأتي بها اليوم ، ويلعب بها غداً ، ولعبة من  
الألعاب ، يخلف بها بين الناس أخداً ورداً ، ويدلونها بينهم عطاء  
ومشياً ، فتراء واقفاً بها مستجيماً إليها ، يتعلق بذلك لسانه ، ويهتف  
به حركاته وسكناته ، وملايح وجهه ، وإبتسامات نغره ، ومن  
كان هذا شأنه نظر إلى غيره من الناس المحبوبين<sup>(١)</sup> الذين  
لا يتمتعون في حياتهم بمثل متعته ، ولا يهابون فيها بمثل نعمته .  
نظر الشمس إلى ذرات التراب المبعثرة على سطح الأرض ، فهو

(١) السعداء : المحبوبون .

يئن عليهم بالفتنة والظفر ويحاسبهم على القنعة والقومة ويقاضاهم  
بجلاله وإعظامه كأنما يقاضاهم حقاً من حقوقه المقدسة التي لا  
ريب فيها ، فإن أدن لأحدهم يوماً من الأيام أن يجلس في حضرة  
لا ينجيه منه إلا حضوره له ، واستخفافه بين يديه ، وتساؤله  
أمام نظراته المترفة تضاول الحماة السابقة تحت أجنحة السر  
السلتي ، ثم لا يجازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو  
الإتيام عليه بقصصة ماله أو خلقان ثيابه ، لا يسهه إلى ذلك باعث  
رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة  
وإزهارها ، وحلوظ الأيام وحيدوها ، وليضيف إلى عقه  
الشلل بأغلال الغفر غلا جديداً من اللذة والاستيعاد ، فإذا أراد  
الشكين أن يقضي إليه يوم من عيومي قلبه ترويحاً عن نفسه ،  
وترفيهاً لألامه أعرض عنه ويرم به ، ويجعل إليه أنه ما ذهب معه  
هذا المنع في حديثه إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ،  
أو يسأله في قصره ، أو يشاوره لعت وسعادته ، فلا يعزبه من  
بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذيره وإسرافه ، أو على بخله  
وغفلته ، ثم يتم حديثه معه بقوله : إن جميع ما يعيب المرء في  
حياته من بؤس وشفاء ليس الذنب فيه على التقدير ، بل على قصور  
الإنسان وجهله ، وعدم استطاعته يشرب أخياه وتجاربها ، وإن  
الله تعالى أعلم من أن تمتح نعمة جاعلها أو يسلبها مستحقها ،  
أي أنه يجمع عليه بين البليت : بليت العلم ، وبليت اليأس من القراجة  
والقضاء .

لا يستطيع البني أن يكون صديقاً للفقير لأنه يخشاه ويؤذره  
علا يرى فيه قضية يصادقه عليها ، أو يصطفيه من أجياله ، ولأنه  
يشعر من نفسه باقتداره على احتمال إعاء الحياة وحده دون أن  
يعينه عليها معين من الفقراء أو الأغنياء ، أما صديق الفقير فهو

الغبير الذي يصلي لشكاته إذا بلغا إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويحزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويعمل له من صدره متكة ليتأبى رأسه عليه ، وهو غيب مكنود فيجد فيه برد الراحة والسكون .

لذلك أسيبتك يا إدوار ، وانخذلك صديقه ، وكان الشقاء هو الوثيقة التي تعاقبتنا فيها أن يكون كل منا عوناً لصاحبه على دهره ، وحنة له من جون نكبات الأيام وأوزائها ، مهما تفلتت بهما الأحوال ، أو فرغت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار بيد استيفن وأقسم له بكل مخرجة من الإيمان ألا يبدأ له في حياته روع ولا يطلع له صدر ، حتى يراه عافراً من دهره بالسعادة التي يبرمجها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءاً من ثروته التي صارت إليه غايي ، وقال أما هذه فلا ، لأنني لا أريد أن أشتري سعادتي في دنياي إلا بأشرف أغانيها .

وفي الصباح مشى استيفن مع إدوار ليودعه حتى بلغا مكان الانفراق فتعانقا طويلاً ويكفي استيفن على صديقه ، ثم انفردا .

( ٤٥ )

من استيفن إلى عاجلولين

خرجت ليلة أمس أرتاض على شاطئ النهر ، فلما استقبلت الفضاء شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطراباً سريعاً في خفوف وهنس ، وأن الهواء يمشي متعاقلاً مترجحاً يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تنقل في صفراء السماء تنقل قطعان الغلبة في غاياتها ، وسيل إلى أن أسع في أعماقها

تقطة مبهمة تدنو حيناً وتأني أحياناً ، وكأنما قد راع هذا الصوت الأجنس طيور الله ، وحشرات الأرض ، ورأيت التطوير مرفرفة على سطح النهر تمشي إلى أوكارها ، والحشرات متعاقبة بين الصخور تسرب إلى أحجارها ورأيت المواد قد صلب كل شيء حتى لون الله ، قبة السماء ورقعة الأرض والأفق الذي يصل بينهما منجم أخوف عميق من مناجم الفحم يغاول اليرق أن يمد له في جفوانه الغاية الصماء متغلاً يتحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا التزمضة بعد الوثيقة تفلج بين طيفانه ولا تنفذه .

ثم ما لبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن غدت وزجرت فثبتت الزوينة من كل مكان تخطئ يديها أوراق الأشجار تطير بها كل مطار وتنهز السقوف والجدران هزاً وتضرب بعضها ببعض ، ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويقنع لنفسه واليرق طربقاً في خلخاله ، ثم همى فسالت به الأودية والأرجاء ، وامتلأت الأحاديث والأغوار . وكنت على مقربة من كوخ صديقي « فرتر » وهو فلاح فقير أسدى إليّ فيما مضى من الأيام صنيعاً لا أزال أحفظها له حتى اليوم ، فلبثت إليه فخليل إليّ حين دخلته أنه متفرج موحش ليس به أنيس . ثم أفضاء لليرق فرأيت في دماغه مظهر من أجعل تشارف وأبدعها . رأيت زوج الرجل وأولاده جالين على أقدامهم خاضعين يدهني أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بتعويذات جميلة يرددونها بصوت شجي مخزون . فخليل إليّ ، ولا مصباح هناك ولا ضياء ، أني أرى إشرافاً وبهيمهم ولأفولها في هذه القذبة الخائكة ولحست في المأفة فالتفت إليّ وقالت لم يعد « فرتر » حتى الباية ، ونحن نشئ أن يكون قد أصابه مكره من أعوان تلك القيلة ، فتحن ندعو الله تعالى أن يرده إلينا سالماً ، فأثر في نفسي جلا المتفرج فأبصر شديداً وقلت في نفسي : « ويل للذين

إلا ثلاثة أشهر سافر من بعدها إليك في «الفاخ» لأعطيك  
إلى أهلك، وأصح يدي في يدك، فلا يبقى لشقاء بعد اليوم إلينا  
من سيل.

(٤٦)

من ماجدولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى «كوبلانس» وتركتني حزينة أسفة على  
فراقها، ولكنني سألقى بها عما قليل، فقد وعدنا أبي أن يسافر  
إليها بعد شهر واحد لتقضي عندها بقية أيام الشتاء، وسأكتب  
إليك عند وصولي لتكون على بينة من ذلك، فقل لك نجد السيل  
المراد في هناك، فأراك ولو على البعد - والسلام.

(٤٧)

من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبي إلى «كوبلانس» وتركنا ضيقنا  
في منزل سوزان وأنا مقطعة بلقاءنا وبالسعادة التي أجدنا في منزلنا  
الغني عظيمًا وقد أخبرني اليوم أنها ابتاعت لها مقصورة في بلجيكا  
«الأوبرا» وتذهب إليها مساء كل أحد، فيها نحن أولاد قد وجدنا  
للكتاب الذي يمكننا أن نقرأ فيه أو نتخلى إن استطعنا.

فعلنا إلى يا استيفن، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك سترى  
مرة ثانية وجه ذلك البلد الذي أبعدت عنه واجتريته وخزيت  
من لاقها عليه، الحق كل شيء من أجلي.

يحاولون أن يملأوا أمثال هؤلاء الساكنين فيهم وبقيتهم، إنهم  
يسلبونهم حياتهم التي يحسون بها في هذا العالم، وكل ما تخلط أيديهم  
من سعادة وهناء، وشعرت بحزن شديد في أمانتي قلبي لحرمانني  
من مثل هذه السعادة النفسية التي يتمتع بها هؤلاء القوم، فحسرت  
بغائبتهم أهتف بملأهم، وأدعو يدعائهم وأصرخ إلى الله أن يمنحني  
بقية مثل بقيتهم، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو البقي الذي أنشدته،  
وأصرخ إلى الله فيه ثم رفعت رأسي فإذا «غرر» واقف على عتبة  
الباب، فهرعت زوجته إليه تقيه وتضو عنه رجاء المبتلى، ودار  
أولاده بكسوته ويستقبلون بكلمة الأبوية الرحمة ويستطيرون فرحاً  
به ومروراً ثم احتضروه جميعاً إلى القاعة وجلسوا حوله يحادثونه  
وبسألوه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشغائدها، وجلست  
على مقربة منه أسمع حديثهم، وأستشف سريرة نفوسهم، فأخبرت  
مظهرهم هذا من نفسي مأخذاً شديداً، وكنت - وما حدثت  
أحدًا في حياتي على نعمة قط - أن أحسنهم على نعمتهم هذه،  
ولدت في نفسي زوجة تحب زوجها وتبكي رغبة به وإشفاقاً  
عليه وأولاده يحفون على - - وأب يسكن فرحاً بروية أولاده  
ضارعين أن يحفظ لهم حياة - - إنها السعادة النفسية العالية التي لا تستد  
يبحثها وروادها من القصور والرياض، والأثاث والرياش،  
والقصة والذهب، بل من السبب الخالص والود الخين.

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجدولين، كتب لنا  
أن نعيش عيش الفقراء البائسين، ولكننا ستكون على فقرنا وإفلاقنا  
سعداء مقبطين.

لم يشكني وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها



سافرت ماجدولين مع أبيها إلى «كوبلانس» وتولت في صياغة صديقتها سوزان قاعدتها منظر القصر وأبوابه وحجراته ، وما يستعمل عليه من أثاث وديكورات ، وما يتلأل في جوانبه من زخرف وآنية ، وأعجبها منظر التوسايف في إيفانج وإندبرغن ، وما يترامى فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء ، حتى خيل إليها وهي واقفة أمام المرأة تنظر إلى نفسها وإلى مرفقهن بجانبها آسن لموق أن يخدمتها أو يسعين بين يديها ، بل تحمل لما آسن يسخرن في أعماق نفوسهن يحفظنها ، ومنظر ثيابها القزوية القصيرة المخططة التي خاطتها بيدها ، وكثيراً ما كانت تحدثها نفسها كلما بدت لها حاجة من الخلع أن تقوم إلى قضائها بنفسها خجلاً منها وبخاء ، والله يعلم كم نالها في مبدأ أمرها من سيرة وإرتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أو شهدت مجمعاً ، أو حضرت ملبأ ، وكم كابدت من ضاء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتى أسلت واستقامت .

وكانت سوزان قد أعدت لها فروع الأقنعة من حرير ومخمل وحز وصوف وفرو ، فخاطت لها ثياباً ماهرة ثوباً للرقص ، وأخر للتلعب وآخر للتمادة وقصياً للبيت ، وغلائق للثوم ، فرفقت وأغت وأنست بمظهر الرافعات والمفتيات ، وتحدثت بأحدث ثياب «كوبلانس» ، ودعبت ملاهيهم في آرهن وتصويرهن ، ولدت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملأتها بين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتعادل في نظرها كل شيء في ماضيها إلا حبها لاستيف .

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفتها الخاصة في القصر وهي غرفة بدعة فائقة قد كسيت أرضها وجدرانها بالقطيفة الحمراء المطرزة وأسبكت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيضاء تترامى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتلور في أطرافها ألوان النصوص الثلاثة وانتشرت في جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمقاعد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأصص الرخام والزهر ، لحراث بين يديها ستاديين صغيرة من الفضة قتلت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن أتربها ؟ قالت : لا أحب إليّ من ذلك ، فتحت سوزان الستادين أمامها واحداً بعد الآخر فلما عتقوه ودعالمج وأقراط ومصوغة أجمل صياغة وأيدعها ، مرصعة بأفئس اللآلئ وأثمن الجواهر ، فدمعت ماجدولين لنظرها وقلت نقلها بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطاً صغيراً من اللؤلؤ فوضعت في أذنيها ، فافترحت عليها سوزان أن تشدد الحلية بأجسها لترى منظرها عليها . فتمثلت ووقفت بها أمام المرأة وأقبلت بها وأدبرت : قتالت لها سوزان : ما أخوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أخوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال ولدي لا أنتمى على الله شيئاً سوى أن أراك عظمى رجل من ذوي الثمرة والثراء يحبك ويستهم بك ، وعلاً أقضاه حياتك هناك وزخداً ، ثم أشتات نصف لها قصيراً بديعاً ابتداء لها عطيتها في إحدى ضواحي «كوبلانس» وأعد لها قبة من أسياب البعة

والرغبة ما لا يعد مثله أصحاب التيجان لشأنهم وحظائهم<sup>(١)</sup>  
ونحمت حديثها بقرعاً :

وفرديك فوق ذلك فني جميل سائر لا تقع العين على  
أبداع ولا أطرف منه ، وهو يجني جاً شديداً ، ولا أحب أن  
الذي أنسر له من الحب أقل مما ينسر لي ، فأطرفت ماجدولين  
عتيبة ولم تكن قد أنفست إلى صديقتها حتى الساعة بسر حبيها  
لاستيفين ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكنين سرّي يا سوزان  
إن أنقصت به إليك ؟ قالت : نعم ، ومن يكتمه إن لم أكتمه ؟  
فقصت عليها قصتها مع استيفين وذكرت لها ذلك العهد الذي  
أنقذه كل منهما على صاحبه أن يعيش له ، وألا يفرق بينهما إلا  
الموت ، فقالت سوزان : إني أذكر أنك كتبت لي عنه وكان  
حينئذ عهد بالزول بداركم ، أنه غير جميل ولا جذاب ، قالت :  
نعم هو كذلك ، ولكنني أحبت فيه أخلاقه أكثر من كل شيء ،  
وإن رجلاً يخامر نفسه من دون الناس جميعاً في سبيل إنقاذ لغير  
لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك لو أشرف  
الرجال وأبلىهم قسداً ، وأخلصهم عمة ، ولقد شهدت أنت بنفسك  
ذلك المنظر وكتبت لي عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت :  
أعو الرجل ؟ قالت : نعم ، قالت : إني أذكر ذلك ، ولقد أعجبت  
به في ذلك اليوم إعجاباً عظيماً ، وهل هو غني ؟ قالت : لا ،  
ولكنه يسر إلى الكفاف من الجيش وسيناله ، وحسبي منه أنه  
يجني حياً لا يحبه أحد أحداً ، قالت : ما أقيح المهر يا ماجدولين  
إذا كان كله حياً ، إنك إنّا تريدن أن تبطل وسترحتي وتهجري  
العالم كله بحاله ورواقه إلى خرقة عابلة في أحد المنازل المهجورة

(١) الشقة : السرية المكرمة منه حبيها ، من الاستخفاء ، ومسر القبول وقلة  
فكراته .

المفردة فقلن فيها نفسك هماً وكيداً .

قصصت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئاً ، لا افتناعاً برأي  
صديقتها ، بل حياء منها وعجلاً ، ثم أفرقتا .

( ٥٠ )

### الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما  
البرت ابن عمه ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ، وهما غيان  
جميلان متأنقان في ملابسهما ، وحليتهما ، شأنهما في حياتهما شأن  
أطفالهما من القيان الأكرام المشهورين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى  
ساعتين التين ، واحدة للضحك والسرور ، والأخرى لتعصي  
نساء واستغواين ، فيقفون على الأول حقولهم ، وعلى الثانية  
أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من حيا ولا ذاك شيء .

جلسا يقيان النظر في وجوه الغاسين في القاصير المائلة لها  
فإن وجداً وجهاً جميلاً تغلزا ونهاساً ، أو قبحاً ضحكاً وسخراً ،  
ثم علا صوتهما بالضحك والسخرية ، فلم تلبث سوزان أن اشتركت  
معهما ، ثم تبعها بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها  
أو مما يلزم مع مزاحها ولكنها فعلت عجالة لها ، ثم لم تلبث أن  
طربت لهذا الأسلوب من المجون وأنت به فأعدت فيه لملعبها ،  
وبينا هي تغلب نظرها في القاصير الجارية لظهورها إذ رأت  
امرأتين من الشيوخنة تلبس زينة القيات وحليتهن فلفتت لغير  
أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفظتها ضحكاً عالياً رناناً ، لا لأن

هناك قطعة تستحق الإعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يمازوها بجمالة بجمالة ، ومعاملة بمعاملة ، فخذوها هذا الإطراء فاسترسلت في تكائها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً .

ولهم كذلك إذ خفت ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا القرد اللابس ثوب الإنسان ؟ فقال أشيد : أذكر أنني رأيت هذا الوحش المتأنس مرة قبل اليوم ، ولا أدري أين رأيته ؟ وقالت سوزان : أظنه قدم لطلب الساعة فإني لم أراه قبل هذه اللحظة ، وما أحببه إلا الشيطان الذي كانوا يقيمونه به مسازاة ولا نراه ، فقال أشيد : إن حله وإن كانت نجمة فائقة فهي من الخلل التاريخية التي لا يلبسها إلا المفلتون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قور الفرائضة أو دور الآثار ، لأن من يملك مثل هذه الحلة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطاً يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان : لا غار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح أن يلبس ثياباً جميلة تختلف صورتها عن صورته فخلت الأنظار إلى قبعة ودعامة ، ثم التفتوا جميعاً فرأوا ماجدولين قد ترجعت إلى الزواء وهي ترتعد وتضطرب وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كقصرة الموت فسألوها ما بالها ؟ فرحت أنها مقرورة ، وأنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ، لأن الرجل الذي يسرقون منه ويشاولونه منذ حين يألتهم ويلعبون كل ملعب في تخفيفه وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيئتها الذي كعبه ونسبهم به ، فاستكروا من الضحك منهية وأقبلوا عليها يطلبونها حتى مدأ ما بها ، فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادتهم هي إلى

صنها الأول ، وظلت تكالم استيقن التقرة بعد الأخرى حتى صبحها فجأها بإتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فتهقوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على استيقن نظرة فتمتها معنى شكرها إياه على اعتناكه بها ، وحضوره لرويتها ثم انصرفوا .

(٥١)

### الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة في حبه إياها بعين غير العين التي تنظر بها إليه في حبه إياه ، فهو يراها أداته الخاصة به التي لا حق لإنسان لجوء في التشبع بها يورجيه من الوجوه ، ويرى أن حقاً عليها أن تنقص بجميع مزايها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ، فيدار عليها من النظر والفتنة ، وكلمة الاستحسان ، وسعة الإعجاب ، ويخيل إليه أن الشاظرين إليها والمحتظين بها ، والشحدين بأحاديث حسنها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد دنسوا أبدانهم إلى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعاً فاعطسوا من جوارحها جورة لا حق لهم فيها ، وقازوا بها من دونه ، فيلم بنفسه من الألم والامتناع ما يلم بنفس الشحيح المخبل إذا رأى السائلة تفر من حر الحاشرة إلى جدران داره تستلذي يظلالها ساعة من الزمان ، وإن لم يشعر ذلك شيئاً ، وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأصحبها إليه أن يرى الناس قد أجسموا رأيهم على استباحها والرواية عليها ووصفها بأفصح الصفات

وأشبهها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ،  
وأية السابلين ، حتى يكون جماعها سرّاً من الأسرار الخفية ، لا  
تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتتفر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي  
تليها وتتمزجها ، وتلك بمكانها على أثراها ونظارتها ، فلا أروع  
في نفسها ، ولا أشهى إل قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه  
إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه قبيح جميل ، فهي تحبه لحياتها ،  
أكثر مما تحبه لقلوبها وشهواتها ، وترى في إعجاب المجيبين به  
واقتناع المنتسبات بحسنه وجماله ، انطباعاً منهم بحسن حطها وسطوع  
نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا كل ما يعينها من  
شؤون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أمماتي قلبها حينما  
عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تتفخر بها أثراها نقياً ،  
وتكاثرها بحسنها وجمالها ، قد بدأتها العيون ، واقتضتها الأنظار ،  
وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وفككت تفكر في ذلك ساعة  
كأبدت فيها من آلام النفس ولو اعجبها ما تكابد نفس المحضر  
في ساعة الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إل نفسها وفككت تقول :  
لأنهم لا يعرفون من أمره ولا أمر نفسه شيئاً ، ولو أنهم علموا  
من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تطوي عليه جوانحه من  
الفضائل والأثام ، لأعظموا منه ما استصغروا وأجلوا ما احتقروا ،  
ولأنزلوه من قلوبهم القارة التي يستحقها نفسه وكرمه .

وهنا ذكرت أمالة وأعلامه ، وبرسه وشقامه ، وما يكابده  
في حياته من شدة وبلاء ، في سبيل حبته مرة وسبه أخرى ،  
فيكبت ، وحبته به ، ويشغفه عليه .

وهكذا أخذت حينها يستحيل إل راحة وشققة ، والحب إذا  
استحوذ إل عيون قد أذن ليحبه بالأفرون .

(٥٢)

من اميليفن إل ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد المرافقة علماً كاملاً ، وكانت ساعة  
من أشد الساعات وأعنتها ، ففترت بها من أجلها كل ميقاته  
حسني ، بل نسيت عندها أنني دقت ظنم الشقاء ساعة واحدة في  
يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأني ، ولم  
أرها إلا لحظة واحدة على اليد ، فكيف في إذا أصبحت كل ساعات  
حياتي ساعات لقاء . واجتماع ؟ إلي أذكر ذلك يا ماجدولين فيخيل  
إلي أن قلبي أضعف من أن يصلي هذه السعادة كلها ، وأنها يوم  
توافيني ستذهب إما بعقلي أو بحياتي .

عفواً يا صديقتي فقد أدليت إليك بيبي وبيت نفسي ذليلاً لا  
به في من أن أعترف لك به حتى لا أحنون قد أدليت إليك ذليلاً  
أعبر بكمدانه وإغفائه .

تركت (جوتنج) وقلبي يفتق زعياً وعوقاً أن تكون الحياة  
المخدنة التي انتقلت إليها قد نالت من قلبك مثلاً من نفوس  
الفتيات الضعيفات اللواتي تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء  
الذي يستشقه ، وأبهر الذي يعشن فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك  
المحابة السوداء من الحزن التي كانت تغشي وجهك وتغلبه وتعطر  
بنيك الساجدين المنكسرين المشوبين كآبة وحزنًا ، علمت أنه  
مطلوب في هواجسي وظنوني ، وأن المكان الذي شغلك من قلبك



لا يزال أفعالي في كعدي به ، وأن تلك الريبة التي عرضت لنفسي  
فيك إنما هي وسواس الحب وأوهامه

غير أن لي عندك أمنية واحدة ، وأحب أن تأذن لي بذكرها  
وأن تتوليها إياها .

وأنت في اللعب تلبس ثياباً رقيقة ناعمة تشع من فروعك  
وكيفيك وتحرك . وتكاد تم من صدرك ولذيتك ، ورأيت الأنظار  
حائرة حولك تكاد تنهك انتهياً ، فاشد ذلك علي كثيراً ، ولم  
ينسي من الغبط والألم ما الله عالم به . وما أحب أنك كنت راضية  
عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين الناس ، ولكنك  
خضعت فيه لرأي النساء ، ورأين في هذا الشأن أحب الآراء  
وأمليتها ، فرجائي عندك أن ترضي عنك هذه الشغوف الملهفة ،  
وأن تعودني إلى ثيابك القروية الأولى ، مرسناً بحسبك من حيث  
الأنظار وقسوها ، فليس يكفيني منك أن تهبني قلبك وتؤثريني  
بحبك . بل لا بد لك من أن تؤذي عنك قلوب الرجال وانتمهم  
فلا تجعل لها سبيلاً إلى الاقتناع بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا  
بالشاشة والروعة ولا بالوزير والحلي . ولا بالتجمل والثاني ،  
واعلمي أن المرأة لا تخلص لرجل الذي تحبه الإخلاص كله حتى  
تؤثره بجميع مزايها وصفاتها ، فلا تجعل برأي أحد فيها غير رأيك ،  
ولا تنزل منزلة غيرها في قلب غير قلبك . ولا تأذن لكائن من كان  
أن يقول لما لي وجهها ، أو يته وبن نفسه ، أو في رؤياها وأحلامها ،  
إنها جميلة أو فاتنة ، أو ما أظهرها وأبدعها ! حتى توافي يوم  
تراه طامعة تقي كالفرولة المكتونة التي يلتقطها ملتقطها من صلفها .

تحيي إليك وإلى السيدة سوزان ، وسأذهب مساء بكل أحد  
إلى اللعب لأراك ، وأنتس السيل إلى لقاءك .

( ٥٣ )

الدعيرة

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفها قرأتها جالسة  
الحزين المكتوب ورأت ذلك الكتاب في يدها فاحتفظته منها قبل  
أن تنسكن من إزعاجاته ، فقرأته ثم اتصمت وقالت لها : لم يبق  
علي خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن بأمرك بأن تنسوي وجهك ،  
أو تنفسي إحدى عينيك ، أو تجديني أنتك ، أو تهشمي مقدم أسنانك ،  
حتى تبدلك العيون وتنسحبك الأنظار ، وتنسحر لرويتك الأبدان ،  
فلا يفرؤ أحد علي أن يقول لك بلسانه ، أو يته وبين نفسه ،  
إنك جميلة أو فاتنة ، وأن تجعل بيدك فتيارة رنانة . تطوفين بها  
أثناء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان في عصرهم  
الأول ، وتغنين عليهما بمدحهم والإشادة به ، وتنسجين أناشيد  
الثناء على حسن وجمالها ، فما أقل عندك وأقصر نظره وأجهل بالحياة  
وشؤونها ، إني لأحسب قد أعد لك في بيتك منذ الساعة قفصاً من  
حديد يستطيك به يوم تزفين إليه ، ليسجرك فيه ، ثم يقف على  
بابك حارساً يقفأ بصوتك من عبث العيون وقصور الأنظار ،  
فلا تزين إلا وجهه ، ولا تسمعين إلا صوته ، ولا تشعرين بوجود  
أحد في العلم سواء .

قالت ماجدولين : إنك تنهيه يا سيدتي بما ليس فيه ، فهو  
من لحسن الناس أدباً ، وأشرقتهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، ولكنه  
حب ، وكل حب عبور ، قالت : أعاذني الله وإياك من حب  
يتخلص الحياة اختلاصاً ، ويأتي عليها بأسرع من ضرب السيف ،  
وكرة الطوف ، والله لو جاء في خطيبي ملك من ملائكة السماء

يجعل على رأسه تاج الملك الأعلى ، ويهبطني بإيالة التي امتدعا الله  
للمؤمنين وما فيها من حور وولدان ، وروح وروحان ، ووعظني  
بالخلود الدائم ، والتعجب الذي لا يفتي ، على أن يقضي في قصص  
مثل هذا القصص الذي أعده لك هذا الخطيب الثاقوب لأثرت موت  
القبيحة ، والتغفل في أعناق السجون ، والفرار إلى أديرة الصغاري  
المتقطعة ، على الرضا به ، والنزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت : حال أن أحاط بك وحنطبك يا  
ماجندولين وأن أتركك فريسة في يد هذا الوحش المفترس ، ينقض  
عليك عيشك ويكتو صفو حياتك ، ويقطف زهرة شبابك النضرة  
قبل إزائها ، ثم حينها والعرفت إلى مجدها .

فقفت ماجندولين بعد انصرافها ليلة ليلاء لا تسريح فيها  
من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولا من القعدة إلا إلى القومة ، تلمس  
بارقة الضوابع في هذه الدجينة الخالكة فلا تجدي إليه ، وتقلب  
أمرها ظهراً ليظن فلا يزيد لها القلب إلا جهلاً ، حتى غلبتها  
السنة على جنبها فتأملت .

( ٥٤ )

من أوجين إلى استيفين

صبر أمر القيادة العليا الشهير لسفر بعد بضعة أيام إلى جهة لا  
نعرفها ويقول سياطنا ان هناك ستكون الواقعة الكبرى التي يفصل  
فيها في مستقبل الحرب . ولا أعلم ماذا بعده القضاء في في ذلك اليوم .  
فإن قصر لي الله السجدة فسأكتب إليك . وإن كانت الأخرى فستقرأ

اسمي بين أسماء القتل في جريدة الحرب ، ولا ينزلك في ذلك  
اليوم مصيري ، فهو مصير كل رجل شريف .

له إليك حاجة يا استيفين أرجو ألا تنسى علي بها :

قد بل سرجي ، وذهبت علائقي ، ولم يبق معي من المال بقدر ما  
أنفقت عطائي كله في هذا الشهر بين التعب والشراب ما أبتاع به  
سرجاً غيره ، فأبعت إلى بعشرين فرنكاً قبل مرور عشرة أيام .  
فإن غائلك أن ترسل إلي في ذلك الوقت فلا ترسل إلي شيئاً فإنه  
لا يصلي . وتحبني . إليك وإلى السيدة ماجندولين .

( ٥٥ )

العرس

استطاع استيفين بعد سفر صديقه إدوارد أن يستفضل جزءاً  
من مرتبه الشهري فاجتمع إليه بعد بضعة أشهر عرسون فرنكاً .  
استأجر بيعة منها الحقة التي ذهب بها إلى ملعب الأوبرا لروية  
ماجندولين ، وأبتاع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه  
وشرايه وسفره وبقي معه بعد ذلك اثنان وعشرون فرنكاً ، فلما  
عاد إلى جوتنج ليث بضعة أيام يتنظر كتاباً من ماجندولين رداً على  
كتابه الأول فلم يأت ، فساء ظنه بوضع في نفسه أنه قد أفضيها  
وأفنها فيما كتب إليها ، فالتفت حزنه وغمه وكتب لها رسالة أخرى  
يحتلر إليها فيها عما ورد في رسالته الأولى فكيفت إليه أنها كانت  
عاجية عليه في سوء ظنه بها . واشتداده في مؤامرتها وأنها قد قبلت  
ظلمه ، وسأله ألا يتقطع عن زيارة الملعب لفراد ، ففرم على أن

يسافر يوم الأحد ليراها ويخلص السبل إلى مقابقتها بكل وغيلة  
ليجدها لما اعتادته بنفسه ، ويشكرها لما صفتها عنه ورضاهما .

فيما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم فيه على السفر  
إذ جاءه كتاب أخيه يحزن عند غرامته حزناً شديداً ، وذكر أنه  
لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة ، وأنه في حاجة إليها  
لينفقها على زيارة ملبولين ، فالت حائراً لا يدري ماذا يصنع ،  
ثم خلبه عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهيئ نفسه  
السفر ، وابتاع ثياباً جديدة ، لأن ثيابه القديمة كانت قد بليت ،  
وعلى أثر درجات الاحمال ، فمجز عن استئجار الخلة التي  
استأجرها في المرة الأولى فلم يجد بداً من أن يستصلح خلة التي  
بليها ، فرتق ثوبها وصبح بالمداد الأسود ما ابيض من خيوطها  
ثم ركب عجلة وسافر الى كوكيلانس ، في الساعة الأولى من  
الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملب علم  
بر ماجدولين في مقصورتها فلم يفلح لذلك كثيراً وقال : لعل لها  
شأناً شغلها عن التفكير ، وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على  
المسرح ينظر بالنظر إلى قصوله فرأى بين القطع المثلثة مشهد رجل  
من أرباب الثراء والشمعة قد استهان بحب امرأة واستهان به ،  
ثم نزلت به نكبة من النكبات المالية فتكرت له وبرمت به وعزمت  
على مقاضته والرجل عنه لمجيئ الرجل بين يديها يستعطفها ويسألها  
ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسبب الذي يدفعها إلى مقاضته ،  
وقالت له فيما قالت : « إن المرأة لا تحب الرجل خط ،  
بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحب فيه رزقتها  
وغيرها ، أو من أرباب الجمال أحب فيه قلبها وشهوتها ، فإن لم  
يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين ، فاشأر استغنى عند  
صباح هذه الكلمة ، وقال في نفسه : إنهم يمشون أخطاى الدنيا

الضالقات ، ويرهبون أنهم يمشون أخطاى السماء جامعة ، ما هي  
في ماجدولين تكاد تملئ حياً ، وما أنا من أرباب الجمال فتعب  
في شهوتها ، ولا من أرباب المال فتعب في رزقتها ، ولقد أراد الله  
بها غيراً إذا كفها مؤنة سماع هذه الكلمات المنقزة ، ولو سمعتها  
لأكتفها ونالت من نفسها مثلاً عظيماً

ثم انظر بعد ذلك ساعة فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن  
هناك شأناً عظيماً عرض عليها فشتها عن الحضور ، فاشت عليه  
الأمر كثيراً ، ورأى ألا بد له من الوقوف على شأنها قبل العودة  
إلى قريته ، وتخشى أن تكون مريضة ، فخرج من القصر ومشى  
في طريق قصر سوزان ، وهو لا يعلم كيف يتنصّب السبل إلى  
الوصول إليها حتى دناها فرأى ثوباً كثيرة تفلأ في أيها وحجراته ،  
وتندفق من لوانه وكواه ، وسبح الحاناً عذبة تردد في أحناءه ،  
ورأى الخدم والخدمتين عاقلين في صحبته وأقنيتهم يعطون على أيديهم  
آية الشراب وصحن الطعام ، فلم أتها ونبهة عامة ، ولكنه لم  
يسر ما الزاد بها ؟ فدنا من الباب فرأى عجالات كثيرة مسطرة  
أمامه ، ورأى حوزياً متكئاً على كرسي عجلته : عاله : ما هذه  
الليلة الحافلة في هذا القصر ؟ فمسد الرجل نظره فيه وصوبه . ثم  
قال له : وهو لا يفارق مكانه : إنه عرس السيدة سوزان ابنة  
صاحب هذا القصر ، فاطمان وعدة . وعلم بأن ما بضاحته من  
ألم ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثه نفسه أن يتخلل فرؤيتها ،  
ولو على البعد لحظة واحدة قبل الانصراف ، فمشى إلى طلة دافئة  
من قبل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتلوه بها إلى  
الشمول . فما لبث أن رأى عجلة مقلبة تحمل بعض الكبراء ،  
ورأى الخدم يهرعون إليها فانظروا من مكانه وانخلط بهم مكانه  
واحد منهم ، ولا تختلف أعينته عن ذلك إلا قليلاً ، ثم نزل الزائر

فمضى بين يديه مع الماشين حتى اجتازوا قناء القصر ووصلوا إلى  
قاعة الرقص ، لتدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقي هو وحده  
على الباب يستشف من ألواح زجاجه ما وراءها من المناظر ، فرأى  
الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من الهناء والسرور ويطربون  
في أجواء مخلقة عن الفلك والشمس ، فظل يدير عينيه بينهم ينش  
عن ماجنولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتتبعه فإذا هو صديقه  
إدوار . فلم يأنه لذلك كثيراً ، إلا أن ما رآه وأزعجه وكان يطير  
بله أنه وآها ترقص في ثوب رفيع شفاف لا يكاد يحجب جوارحه  
من جوارحها ، ويخيل إليه أن صدرها مكشوف يصدر عاصرها ، وأنه  
وأن رأسها مقل على كتفه ، وخدها تحت تناول لسانه ، وأنه  
يخضعها أكثر مما يخضعها ، فإن أنبأ مؤبداً ، وقال في نفسه : ماذا  
فعلت بك الأيام يا ماجنولين ؟ وحدته نفسه أن يقتحم الباب  
ويستغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقي عليها نكرة عتيق  
وعائيب ، ثم يعود أدراجه ، ولكنه استعيا لها ونفسه أن يراه  
الناس في هذه الأتواب المنيعة الضيقة ، فصاسك على مضض ،  
وأنتأ يسري عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات  
وهذه أنوابهم التي يلبسونها ، وبوالفهم التي يفتقونها ، برهم  
وعاصرمهم ، وتقبهم وعاصرمهم ، فلا ألومها ، ولا أعتب عليها ،  
فتليس ما تشاء من الثياب ، وترقص مع من تشاء من الرجال ،  
لمحي منها أي أنا الشخص الوحيد الذي بينهم وبينها ، وبالأ  
فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جميعاً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى  
فأراها قد فرغت من الرقص ومشت هي وإدوار إلى مقعد قريب  
من الباب فجلسا عليه فلم ير في مجلسهما بأساً ، ولا مستراباً ،  
فهذا ثائره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ،  
ويخيل إليه أنه ما رقص معها ، ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنها

ما يجتمع على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا  
ألمه وعهره ، ثم ما لبت أن لمح في أمسيها خاتماً فتتبعه فإذا  
هو القائم الذي نسجه من شعره ، والذي لا تزال تحدته عنه  
في رسائنها كلما كتبت إليه ، فالتفت بلك الحياطة غليظاً ،  
ولم يبق في نفسه من ذلك الحاضر المؤلم الذي مر بأذنه منذ ساعة  
أخر واحد .

ولته لكذلك إذ دفع الباب بفتة وخرج منه فني متأق من  
الزائرين يز في يده سوطاً مستطيلاً قرأه واقفاً فظنه بعض الخدم  
صرخ في وجهه بلهجة الأمر أن يدعو له سائق صجلته ، وسماه  
له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم ير بداً من الامتنال بخافة أن يتكشف  
من أمره ما كان خائياً ، فخرج إلى الباب الخارجي يفتق يامم  
غير الاسم الذي سمعه وكان قد نسب ، فأدركه الفتي ، وقد طار  
الغضب في دماغه فصره بالسوط على وجهه ضربة أدمته وأجلد  
يسه وبششه ، فاحتل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومضى  
في طريقه لا يلوي على شيء .

وما أهد إلا قليلاً حتى التفتت من خلفه صمعة جرت على  
خده فأصابته موضع الضربة منه فأكلته ففتت صارخاً : ماذا  
فعلت في سبيلك يا ماجنولين ؟

(٥٦)

المريض

عاد استيفن إلى «جوتنج» فوجد كتاباً من قرينه الذي كان



قد أحسن إليه بذلك القلع الدعية يوم خروجه من «كوبلانس»  
 شريفاً طريفاً يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وأنه يجب أن يراء  
 بجانبه في ساعة الأخيرة ، فرش له وجون عليه حزناً شديداً وروى  
 ألا يد له من موافاة رجليته في الذهاب إليه ، فاستأذن الرقيقة  
 في بضعة أيام بنفسها بجانبه فلم تأذن له إلا بثلاثة ، فصار إليه ،  
 وكان يسكن بيتاً في قساحة من ضواحي «كوبلانس» لا يرى  
 فيه إلا وجه خادمه وطيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد  
 قريب ، وليس له من الأتارب الأديين غير ابن عم له من قساة  
 الأتية ، وجفائهم لا يجبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيقن في  
 ساعة من ساعات الليل لمآه ساعراً بين من الآلام والأوجاع ،  
 وقد نال منه الله مثلاً عظيماً ، فأصبح لا يستطيع التحن إلا صهيمة  
 وتجنجماً ، فجلس بجانبه يتوسم له ويواسيه حتى استطاع الرجل  
 بعد لأي أن يقول له : لقد مررت في بضعة أشهر ، وأنا طريح  
 هذا الفراش لا أفارقة لحظة واحدة حتى مئلت وبرمت ، وأصبحت  
 أعشى خاللة الصجر أكثر مما أعشى خاللة المرض ، فلا تفارقتني  
 بعد الموت حتى يحكم الله في أمري بما يشاء .

قلت معه الثلاثة الأيام التي أمأزوه بها ثم عزم على العودة فنوسل  
 إليه المرض بانكسار عليه وترقرق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى  
 يقضي الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على  
 حالة لا ترجى له معها الحياة ، فلطمع استيقن أن يفارقه على حاله  
 تلك وكتب إلى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى بتخلطها وأقل  
 إليها بطوله في ذلك ، وكثرت يتنظر جوانبا فلم يأنه فاشد به القلق ،  
 ثم جاء منها بعد حين كتاب تقول له فيها إنها لم تزد بدأ من الاستثناء  
 منه والاستبدال منه وأنها قد أرسلت إليه ما بقي له مندها من مرتبه ،  
 فسا لئى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنقطع عما أسأله

وسقط منشأ عليه وهو يقول : وحسبك اللهم فقد عجزت  
 عن الاحتمال .

(٥٧)

## الموت

كانت العيون وهذأت الجفون في مضاجعها ، وسكنت كل  
 سارية في الأرض ، وكل سابعة في السماء ، ونزل استيقن وحده  
 ساعراً بجانب مريضه المختصر بسبع حشيرة الموت في صبر  
 ترك في حنوه الليل وسكونه فيخل إليه أنه واقف في وسط قلاة  
 موحشة تعرف جانبها وتزجج غيلاتها ، فامتلات نغمة روية ووحشة ،  
 وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تألى إلا أن تفارقه ،  
 ورأى إلا أن ينشبت بها ، فبكرته من التعب والنصب ما لا يحتمله  
 يحمل حتى عني بأمرها فتساقط خائراً مستلماً لا تطرف له عين  
 ولا يتنفس له عرق ، لموضع استيقن أفنة على صدره فلم يستمع  
 شيئاً ، فلمع أن الأمر قد انقضى ، وأن الراتقص قد ألقى قناعه ،  
 والشمل قد خلع ثوب تخيله ، وأن تنصري الحياة قد افترقا وعاد  
 كل منهما إلى أصله . فطار منها ما طار ، ورسب ما رسب ،  
 فجاء بجانب الميت يرتبه ويتوسم له ويكي عليه مرة وعلى نفسه  
 أخرى ، ومررت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته الماضية  
 من ميلنها إلى متنها ، فظل يقرأها صفحة صفحة ، ويقب نظره  
 في سطورها وكلماتها فرأى يوماً وشقاء ، وأحزاناً ودموعاً ،  
 وجدوداً عائرة ، ونحوساً متتابعة ، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة  
 منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من المدرسة ، فانتفض عند

فرائده انتفاعاً شديداً ، وصاح صيحة عظيمة صوت بها أرواح القرقة  
 قائلين : ما هذا ؟ هل فقدت ماحدولين ؟ ثم أطرق أطرافاً طويلاً  
 لا يعلم إلا الله أين سمعت نفسه فيه ، وليث على ذلك ساعة ، ثم  
 رجع رأسه فإذا حياء جمرتان ملتئمتان وإذا وجهه أسود مردي كحائتا  
 قد ليس نسيجاً غير نسيجه فدار ينظرو في أنحاء القرقة دورة الحياة  
 الرقطاء بمرورها في جنبات جيجرها حتى وقع على عزاة المال  
 التي كان يأمره الميت في حال مرضه بالإتفاق منها ، فعلق بها ساعة  
 لا يتقل عنها ولا يتحول ، كان عينيه قد استحالته إلى مسمارين  
 لاعمين من مساميرها ، ثم وثب على قدميه فجأة وقد أصابه مثل  
 الجثثون وعتف صارخاً : لا بد لي من النجاح في حياتي ولا أسمح  
 لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر  
 لا يعجز من أن يترس سبيل ، أو يثني على أمري ، فهو لا يقبل  
 إلا الضمعة ، ولا يقهر إلا الأغياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن  
 من الجبن والخوف أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ،  
 فلا يمكن أنا دعراً وحدي ، أتول شأن نفسي بنفسي ، وأصرف  
 بحياتي على الضرورة التي أريدنا ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا  
 أسمع نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسونها الفضيلة ، فما  
 سقط الساقطون في معترك الحياة ، ولا داسهم أقدام المعتركين  
 فيه ، إلا لأنهم وقفوا من ميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها  
 ولا يتحولون فلم يتجهوا إلى الضرورات المختلة التي جاءتهم من  
 خلفهم فقدت عليهم ، ولو أنهم داروا مع الحركة حيث دارت ،  
 وتقلوا في جنباتها كركاً وفرأ ، لظفروا بالقيمة مع الظافرين ،  
 ولنجوا من غائلة الموت الزوام .

لا رذيلة في الدنيا غير رذيلة الفضل ، وكل سبيل يؤدي إلى  
 النجاح فهو سبيل الفضيلة ، وما تبع التاجرون في هذه الحياة

إلا لأنهم طرغوا كل سبيل يؤدي إلى نجاحهم فاقصموا غير متقنين  
 ولا متوطينين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأخروا ونجسوا  
 وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يتلون النور والقصور والضياغ الواسعة ،  
 والرياح الحافلة ، والذين تخرج خراشيمهم بالثعب ، موج النور  
 بالذهب ؟ أليسوا القاصرون والمجرمين الذين يسعون أنفسهم ويسعون  
 الناس سراً ووجهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طالون لا يفرق النوم أحبابهم ،  
 ويقصون أيامهم هائمين هل وجوههم يفتشون عن الرزق في كل  
 مكان لا يظفرون منه بالقمة أو الجرة إلا إذا أرقوا في سبيلها  
 عجباً من دعاء قلوبهم ؟ أليسوا الأشراف والفضلاء الذين يسعونهم  
 الناس ويسعون أنفسهم معهم زعاعاً وغوغاء ؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكون  
 سارقون ، ولأن الوراثين أبناء السارقين ، فلا أسلي نفسي لهما  
 إلا إذا سرق قبراً يكسح لقوته ليه وجاره فلا يبلغ من إلا الكليات ،  
 ولا أسلي نفسي ظناً إلا إذا ظلمت عادلاً مستظيلاً لم يظلم في حياته  
 كلمة في حبة شعيرة يسليها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشطاطها أحرم من أن يترك لفظية المنة  
 المرفقة في سبيلها شيئاً وراءه تلبغ فلنقطه ، فلا غامر في ميدان  
 هذه الحياة مقاومة فإن ظفرت فذلك ما رجوت ، أو لا ، فقد  
 أليت في حياتي علواً .

وكان يهدي بأشكال هذه التصورات وهو يقرب في أرجاء

الفرقة ذهاباً وجية بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بفتة وألقى نظرة على الفتحة السجدة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتاً أيها الرجل ، فلا يهلك من المال الذي تركته وراءك شيء ، ولا شأن لك بمن يهلكك غلبه من بعدك أكان صديقك أم عدوك ، أم أقرب الناس وحبيبك الذي واساك وجاملك في ساعاتك الأخيرة ، وقام لك بما لم يسم لك به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقبل حياته في سبيلك أن تومني إليه بمالك ، فهو أحمق إليه من ابن عمك البعيد المجلود الذي لا يبالي بأزاء مالك على ماله ، أم نقص منه ، فأنا قائم عندك بعد موتك بما فاكك أن تقوم به في حياتك .

ثم أدلى ظهره إلى الفتحة ومشى إلى الخزانة وكانت على مكتب منه فوضع يده على مفتاحها فحس برعدة شديدة تنمسي في أعضائه ، وخيل إليه أن الفرقة كلها عيون ترقبه وتحلق في وجهه ، وأن روح الميت تلقى عليه من توافد جثتها فطرات شذراء ملتهبة يكاد أوارها يصل إليه فيحرقه ، فتربث في مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع له وأتته ، وأدار المفتاح فدار الباب على عبقه وصر في دوارنه صرخة غشاً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أحمس من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ويخاشته . فارتعد عن الباب خطوة ، ثم انقضت يده وبسرة فلم ير شيئاً . فها إنها خيالات الشقاء اللاخفي في كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق بقليلها على نور مصباح ضعيف كان في يده حتى غر بالسفاح التي يريد ما فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذي كان يجري في عروقه غليان الماء في مرحلة قد هدأ وبرد حتى يكاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من الفرق تسقط من جبينه على وجهه متتابعة ، وأحس نفسه يهلك السكون العميق الذي يشمر به الفائح المصروع بعد استغاثته من صرخه ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهر

وتضطرب وتنبج بعضها في بعض ، ثم ما لبثت أن استعالت إلى حركات تحية لأمعة فوقع نظره على صبورته فيها قائملاً قلبه خوفاً وذهواً ، وأنكرت نفسه نفسه ، فقد رأى في أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التي يبرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في جبينه تلك النظرات الطائرة للشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالوثة إلى سيف الجلاء حين يلعب فوق رأسه لقتل يرتعد ويضطرب ، وعلقت الأوراق تصافق من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لكتكت إذ أحس يده ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لما في أول الأمر ، وشبهها بعض الخيالات التي لا تزال تعادله منذ القيلة ، إلا أنه لم يلبث أن أحس ببرودتها فرفق كاهله فمالك في نفسه وتجمع تجمع المترفع صرخة غريبة هائلة تسقط على أم رأسه ثم انقضت قليلاً ليرى ماذا دعاء ، فإذا الميت واقف خلفه عاري الجسم ينظر إليه بينين جامشين تصرخ صرخة عطشى ودفعه يده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول فمرت عظام رأسه على أرض الفرقة رتياً شديداً ، فاعتدل وأصابه الجنون وألقى المصباح من يده فاختلأ فازداد رعبه وقرعه ، وهرع يطلب الباب للفرار منه فلم يجد إليه ، فظل يعضو في أنحاء الفرقة ، ويتلمس جدرانها قليلاً مدبراً لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ، وقد خيل إليه أن الفتحة تملو وراءه وتنتصب غشياً ذهب ، حتى أنماه الجهد ، من الحركة ، فسقط متقياً عليه .

ولم يكن ما رآه في هذه المرة خيلاً بل حقيقة لا ريب فيها فقد عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرأى باب جزائه مفتوحاً ورأى إنساناً لا يعرف من غر يقف أمامه ، فنهض الحرس القريزي الذي لا يفارق الإنسان من مبدأ ساعات حياته إلى نهايتها والوقوف على قدميه والإلهواء بيده على كتف

الشارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في  
سقطته القضاء عليه .

لم يستحق استيفن من فضيلة حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعة  
من نافذة الغرفة ففتح عينه وظل ينظر حوله بمنة وبسرة ، فرأى  
المصباح الساقط والحزاة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والجلدة  
المتقاة ، فذكر كل شيء . وقام يتجامل على نفسه فأعاد كل شيء  
إلى مكانه ، ونقل الجلدة إلى مضجعه وأسلل عليها غطاءها ، ولم  
يلتفت أن جاء الطبيب ، فلما رأى الصديق الذي في رأس الميت  
قال لاستيفن : أحسب أن المريض قد ناز من فراشه في ساعته  
الأخيرة ولم يكن معه من يشول شأنه فسقط بعيداً عن مضجعه  
فأسابه ما أسابه ، فارتعد استيفن وقال : لعمري يا سيدي ، لقد  
كنت نائماً في تلك الساعة فلم أسمع مساعدته ولم أسيغظ إلا على  
صوت سقطته ، فاحسبته إلى مكانه وكان أسقي للملك عظيماً ،  
فلم ير الطبيب بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما اتقنى النهار حتى دق الميت وحضر دمه وازنه ، وسافر  
استيفن إلى «جوتنج» وهو يردد في طريقه قوله : «ويل لي من  
يجرم أئيم» فما وصلها حتى كان قد بلغ أكثر درجات الاحتمال  
فسقط في فراشه مريضاً متلفاً ، لا يفارقه خيال تلك القاتلة التي  
كابدتها لحظة واحدة .

( ٥٨ )

إدوار

علق إدوار بمجدولين منذ الليلة التي رأها فيها استيفن من

ذراء ألواح بزجاج يزفضان معاً ، فأثماً يتخلف إلى منزل سوزان  
وكانت يمت إليها بحيل قرابة ليري حبيبته ويستلذي قلبها ، وكان من  
أقرب الناس على مثل ذلك ، لعلوبة يعرفها له النساء في أسلحة ،  
وحلاوة يجتذب قلوبهن في أحاديثه فأثنت به وبحضرة وأحبتها  
به أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ،  
ويطرحها بقرائنها وتواضعها ، ويذكر لها أسماء الرافضين  
والرافضات ويفصل ما بينهم في البراعة والافتتان ، ويشرح لها  
ألوان الرقص غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ، وتاريخ كل نوع  
منه ومنشأه ومعبره ، ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم  
في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حادثة عهد بذلك  
كله ، فلم يكن شيء من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده .  
وكان إذا جرى ذكر استيفن بينهما أتى عليه وأطراه ، وقص عليها  
طرفاً من نوادر طفولتهما وحباهما ، وما مر لها في حياتهما  
الأولى من يؤس وورغد وشدة ورجاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين  
انقضاء حياة اليأس واللقاء التي يبعثها اليوم في «جوتنج» وقرقرته  
التي يستنها ، وأثأها الذي تشتعل عليه ، وليأسه التي يملكها ،  
ثم يضع ذلك بالتوقع له ، والتأم ليؤس وشقاها ، وعازية الدفر  
زاه في مساعده وأغراضه ، فتصفي إلى حديث وتقبل عليه إقبالاً  
عظيمًا .

ولم يزل بها حتى خطبها ، ووقع من نفسها ، وأصبحت لا  
تكد تبصر عن بحشة ساعة ، ولا تزال تفتشه وتساأل نفسها  
به كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ،  
ولو كشفت لها عن دعيته نفسها لعشت أنها قد بدأت تسمى استيفن  
من أجله .



ولقد أُنشِيت موزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقتها  
وقريبها ورضيت عنها الرضا كنه ، ورأت أن الله قد أراد به وبها  
خيراً ، فزوجه أفضل القينات جداً وأدماً ، وزوجه غير القينات  
ثروة وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً عن عيوب إدوار ، ولكنها  
كانت ترى أنها عيوب خاصة به لا تنمذ إلى غيره ، وكانت  
تعتقد أن المرأة لا تثرى في زوجها الذي يتلأ لقضاء يشها نعمة  
ورغداً عيماً واحداً مهما كثرت عيوبه ، فأنشأت تسمى معها  
البلوغ بهما إلى الغاية التي تريدها لها ، فأشارت على إدوار أن  
يتودد إلى الشيخ مولر ويخالطه بمخالطة الصديق صديقه ، وقالت  
له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعبه إلا الحديث  
عنها ، ولا يتزل من نفسه الميزة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في  
العلم بهما ، والاعتماد بأمرهما ، وكان إدوار قد درس شيئاً  
من علم النبات في مدرسته فاستعان بستانى حديثه على معرفته  
معرفة ما كان يجهله منه ، وغرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر  
الغريبة ، وعرف خصائصها ومفاتها ، ثم خالط الرجل وبخالطه  
ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، وبنى معه في كل مكان وجاراه  
في كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ، وهكذا  
أصبح الثراء عند الأب وابته .

(٥٩)

### سريرة المرأة

ما أبغضت ماجدولين استيفن ، ولا أحببت إدوار ، ولكنها  
ليست جلاً جديدة لم تكن تليها من قبل ، فكان لا بد لها من

أن تليس معها جميع آثارها ومصطفاتها ، فقد ألقت المجامع والحقول ،  
والتست بالمراقص والملاعب ، وصادقت النساء الشحفرات المثائفات ،  
ورحبت كما يفتن ، ورفضت كما يرفض ومنت في مثل الزبائن ،  
وأنشأت بمنى أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة ومفاتها للمنى  
التي يفهم ، ورأت في الرجال والنساء والصلة التي بينهما الرأي  
التي بين ، فأنشأت استيفن لأنة صغورة من صغور ، الحياة الحياة  
التي التي عاقبتها واجتربتها وأحببت إدوار لأنه مظهر من  
مظاهر الحياة الجديدة التي أحببتها وأنشأت بها .

على أنها كانت إذا دخلت إلى نفسها ، وهذأت عنها عموماً  
الحياة وضحيها ، واستطاعت أن تحد نظرها إلى أعمق سريرتها  
حتى ترى ما في قرارها تراهي طاشيح استيفن في تحولها واصفراره  
وحزنه واكتسابه ويومها وشقاها ، ومظهر عينيها المظلمين حزناً  
ودموراً ، وقلبه المتقدم حياً وحرماً ، ونفسه الشاغرة الفاتحة في  
الوحدة المغموم والأحزان ، فنحن إليه حينئذ الغريب إلى دارة ، والشيخ  
التي جهود صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي قضاه معها فيكي  
حسرة عليه وإشفاقاً ، إلى وجداً به وحرماً ، ثم لا تلبث أن ترى  
سحابة بيضاء من النور مائلة أمام عينيها ، فلا تزال تيسط وتستيقظ  
حتى تشق عن قاعة الرقص التي شهدتها ليلة عرس موزان ،  
ترى الوجوه المشرقة ، والفتور الباسمة ، والذهب اللامع ،  
والخمر السامع ، والغلال المطرزة ، والحلل الدنيبة ، والصدور  
النافضة بالصدور والأذرع المحيطة بالصدور ، والبحر المائج  
بالأنوار ، والزقون الخائل بالأزهار ، وترى العروسين كالقردلين ،  
يسدان السعادة القبلية عليهما ، وينفق ثمار الحب والعصاية بين  
نفسهما ، فيضال أمام عينيها ذلك الشيخ الأول ، ثم لا يلبث  
أن يغفل في ظلمات الوجود الخالكة حتى يقبها عن نظرها .

فلا يبقى له عين ، ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غزاتها ، وكان قد مضى على زفافها شهران قللت لها : أنتلين ما اتفقنا عليه أنا وأبوك ليلة أسس يا ماجدولين ؟ قالت : لا ، قالت : أن تسافر جميعاً إلى ضياع زوجي في سان مارك ، لنفسي ليها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ننتقل إلى والفباخ وهي على بضعة أميال منها ، فستضيفكم أسبوعاً واحداً تقضيه في الشراء بين مزارع القرى وصاكرها ، ثم نفرق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجدولين فرحاً بتلك السياحة الخيطة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل البقاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغصن جبينها لألمها ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قليلة إلى عزلتها في قرينها ، وتعيش فيها عيشة الوحدة والوحدة بعيدة عن أكويلايس ، وبجانبها ومزدحم الحياة ، فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وأثت سوزان بما دار في نفسها وغرقت مأثها ، إلا أنها ناهلت واستمرت في حديثها بقول : وسيمضي في سياحتنا هذه إيدوار ، وسيكون أستا به ويمشركه عظيماً ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجدولين ؟ فقهمت ماجدولين مفصلها ، وأين تريد أن نذهب في حديثها . قالت : ليلعب معكم من تشاؤون من أصدقائكم وخطائكم ، فلا شأن لي في قعاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فأنهت سوزان واستطردت في حديثها بقول : ولقد اتفقنا كذلك على ألا يسافر إيدوار معنا إلا باسم خطيتك ، وقد قلنا هذا الأمر من دونك ، ألا تعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي تراه لك ، فاضطربت ماجدولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتزوج ، قالت : لماذا ؟ وهل تطيع الفتاة في زوج أفضل من مثلاً وأدنياً ، وشرفاً

رجعاً ، وهو لم يبق ذلك يحبك ويستهم بك ، ولا يؤثر على سعادتك وحالتك غرضاً من أغراض الحياة ، ولا مأرباً من مأربها ؟ قالت : ولكن لا أستطيع أن يجني حبة استيقن إليي ، قالت : أما هذه نعم ، لأنه يحبك حب الغلاء والاكياس ، لأحب التركي والمغربيين .

إن هذا الذي ترعين أنه يحبك ويستهم بك ، لا يحبك ، بل يحبك المرأة الخالية التي يتخيلها في ذهن ، والتي لم يخلق الله مثلاً في هذا العالم ، ولا بعيدك ، بل بعيد قلبه للوهوم الذي يحس أنه حال في جشائك كما كان بعيد آبارنا الأولون لكفهم في جلوع الأشجار ، وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكاً من ملائكة السماء يحيط بوجهه حالة من العبر ، ويرقرق في جنبه جنتان أبيضتان تلالو الأشعة ويحل بين أضلاعه نفساً غريبة عن النفوس في جوهرها ومعناها قد جعلها الله يجمع صوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة وترجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بقلعة من القلعة ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء والغنى والفقر والراحة والحب ، والسرور والحزن . لم يزل لك منه يوم تتحشر عن عينه بعد ساعة واحدة من بياته بك غشاوة الحب الأول ، غيرك كما أنت ، ويرى فرق ما بينك وبين الصورة الخيالية للحاجة في رأسه ، إنه لا يد يفتلك ويحشرك ، ويهوى بك إلى أدنى حركات الدل والشقاء ، ولا نهاية للاغراق في الحب ، غير الإغراق في اليأس ، فإن كان لا يد لك من أن تحضلي بمكانك في قلبه فلا تزوجه ودع ينظر إليك دائماً بهله العين التي ينظر بها إليك اليوم ، ولا تحشي عليه أن تشقى بمرارك فأنهت فجيعة فيك يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعة في آلامه وأحلامه يوم يراك ويرى

في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ، ويظهر شوقاً إليها .

أنت لا تعلمين من شئون الحياة ومخاطبها مثل ما أعلم يسا ماجنولين . ولقد خبرت فيما خبرت من صروفها وتجاربها أن الفرام أصعب العلاقات بين الزوجين والمصلحة أثوارها وأوقتها ، وأن الحب كالزهره ، والمال كالظل الساقط عليها ، فإذا انقطع الظل من الزهرة بضعة أيام ذوت أوراقها وشانطت ثم تعافرت في مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها العيباء أو الوجد أو الوله أو الميام ، والتي لا يزال ينفذ بذكرها الشعراء ، وتظهر في صماء خيالها ألباب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الأعصاب المريضة ، يبيجه الجذ ويظفقه القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومراقبته ، والسعادة وأسيائها ، فإن أموز ذلك فقد ماتت الحب في القلب ، ودفنت جهته في ضريح القفر ، والقفر بطوي في أحشائه جميع مواطن القلوب وبحراجلها ، بل ربما دارت الوسواس والأوهام في رأس ذينك الزوجين الذين كانوا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة الشوم له ، وألقى عليه تبعه يؤسه وشقائه ، فاستحال حينها إلى بغض متلثلل في سويداء القلب ، لا يترجمه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجنولين ، واستيقن أفقر منك ، فلا تقضي لقره إلى قترك ولبحتر كل منكما لنفسه المشير الذي يعلم أنه يسعده ، ويغلا قضاء حياته قطعة وهناء ، فإن كان لا يد لك من الرقاء له فإن أولي ما يكون الثراء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويحكمكف من زعاج قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهناءه ، فليكن ذلك شأنك منه ، واحتملي مرارة فراقه

ولم الحرمان منه ورحمة به وإبقاء على حياته التي توشك أن تموت . فكانت الشعر وأرزائه ، قد أصبحت أعشى عليه - وفي رأسه هذا القتل الصغير المختل ، وبين جنينه مثل هذا القلب الصغير المستطو - إن يمر به جده فيما يحاول من الأمل الذي يمس إليه من أجلك ، فيندعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيفترف جريمة ، أو يشتهك حرمة ، أو تنور رأسه نائرة اليأس فيقتل نفسه طلباً لراحة من عناء الحياة وشقائها ، فإن فعل فأتت الجانية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلذذ ، فاقصري كيده بكون موقوفك بين يدي ربك وعسميك خفاً إن تم تلك على يدك ؟

فاستمرت ماجنولين باكية ، وما بكث إلا رجمة بملك اليأس السكين وإشفاقاً عليه أن يتاله يسيها هذا الشقاء العظيم ، وأحرفت سناً ثم رغبت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي يا سوزان التي في حاجة إلى الخلوة بنفسي .

( ٦٠ )

### الجريدة العسكرية

التحم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات هي فيها جنودنا من بأس العدو وشكته وقرة مراره عرولاً عظيماً ، حتى بلغ منهم اليأس أو الكاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من صباط الفرسان اسمه « أوجين ولتر » فنهف بمجنوده « ورائي يا الأبطال ! » وانقض على العدو انقضاض النازلة السعادية فقتل معه جنوده لمسرت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فتهجم



ورأته ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى نلت الخزيمة لصدو  
ففر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان قبيحة وأسماء فيه فغلا وأسرا  
وعشنا منه لحائث كثيرة

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية الحركة حادث  
كثير سبق ذلك الانتصار ، فإنه بينما كان يتبع آثار العدو ويهرب  
في مخرجته إذ انقطع حزم سراجه وكان يالياً واعياً صجير عن  
التماسك فنبسط عن جواده فداسته حوامر الخيل ، ثم انه له  
من الحياة تقضي ساعة يتالم ألفاً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه  
« استيفن » حتى فاضت روحه ، فحزن الجيش عليه حزناً شديداً  
وبكاه القواد وروساء الفرق ، ثم دفن باحضان عظيم لآلئ شجاعته  
واقادته وحبيته التي ليس لها مثيل .

(٦١)

### البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان يثبتون لا  
لا يراكون يشتغلون باستصلاح بعض أملاكه فنهض يستيقظ فترى  
فلباه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي  
اتفقنا عليها ؟ قال نعم يا سيدي وتم كذلك تصميمهما وترجيح  
توالدهما ، فجزاه خيراً ، ثم انفتحت إلى البيت وقال له : هل  
غرست أشجار القاكهة التي أوصيتها إليك بالأمس ؟ قال نعم  
يا سيدي ، وستكون الكرمة المنيطة فوق الحداد من الصبح الكرمات  
وأجملها ، قال : لا تنس أن تكلم السور كنه حكمة وزرع  
بأزهار البنفسج كما أمرتك . قال : سأفعل يا سيدي يا سيدي الله ،

لمركه ودخل المنزل فالتفت على الطليقة البغل نظرة عجل ، ثم  
صعد إلى الطليقة العليا ووقف في جحر مشح تنبور به الحجرات  
وقال : ما قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين  
أنا وماجدولين ، على الطليقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرفة  
للزوجة والمرايح ، وفي الطليقة العليا غرفة الأضياف وغرفة النوم  
وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة  
والتي عليها نظرة ألست بجميع ما فيها فاعترضت عيناها بالتنوع  
وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركتني في سعادي كما  
شركتني في شغالي ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بيني وبينك ،  
وأن تكون سعادي منفصلة بذكريك أبد الدهر ، فوا أسفا عليك  
يا أني أسفا لا يفارقني حتى الموت ، وسنمر الأيام وتكر  
الدهور والأعوام ، وسأنتس كل ما مر بي من حوادث الدهر  
خيرها وشرها وبؤسها ورفقدها ، ولا أنسى أنني غسنت عليك  
بذلك اللوامع القليلة التي سألتها أحوج ما كنت إليها ، وأن يدي  
هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ، فافقر في  
فني واعف عني واقفي يوم تلقاني في آخرتك بذلك الوجه البشوش  
النفس الذي كنت تلقاني به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ،  
ولا يموت إلا بغيبتك ، وأقبل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا  
الباب بعد اليوم ، ثم كتكتف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف  
على الحديقة ينظري بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المني  
في وسطها فقاد إلى مناجاة نفسه يقول : وما هو الحوض الذي  
منري فيه الأسماك ذات الألوان المختلفة ، وما هو السباح الذي  
رأيت أن يقيمه من حوله خوفاً على أولادنا المستقبليين من السقوط ،  
وما هي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين ونوزلها على الأزهار  
جميعها تملأ البيت داخله وخارجه .



لأنها لا تعلم الآن شيئاً عن هذه السعادة المهيبة ، وربما كانت  
تكايد اليوم أشد حالات أسوأ وحزناً بعد الفطاع رسائلها  
أياماً طويلاً ، وسأبانتها بها مياض لا يزول أثرها من نفسها أبداً  
الدهر ، فقد شقينا ما استطاع الشقاء أن يكون ، ومستعد بعد  
اليوم سعادة نسبنا همومنا الماضية والآمنة ، ولا نذكرها إلا كما  
نذكر دموع طفولتنا وبكائنا .

ثم نزل وشفى في الحديقة مع صديقه فرتر بنظر القاتلين بنظم  
أغراسها ، وتهدد طرفاتها ، وينقل بين أشجارها وأزهارها سروراً  
مختبئاً وكأنه لم يلق طعم الشقاء في دهره يوماً واحداً .

(٦٢)

برونس

ما كان استيقظ قبل اليوم أمراً ولا ناعياً ، ولا صاحب بيت  
ولا حديقة بل ولا صاحب أي شيء من الأشياء إلا أنه كانت  
أثرابه القابلة للرفقة شيئاً تتعلق به الحياة والنعمة . قد عاد إلى  
جوتنج بعد تلك الليلة المظلمة التي كانت في حرة قرية صغر اليدين  
من كل شيء حتى من آماله وأمانه ، فغض في طوائف مرضه  
بضعة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يحجز عن الصفاء ،  
ثم أبل قليلاً فأثأ بفكر فيما يصنع بعد الذي كان من منه واستطاع  
رجاله به ، فخطر له الانتحار ثم منه أنه سيكون أضر عليه  
بما جلولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر في الرجوع إلى أمه والبقاء  
لهم في رفقهم التي يربونها إليه ، ثم ذكر الموت في السعادة  
للجلولين ألا ينبغي بها بدلاً حتى الموت ، فنظم عليه ما يلي

بعده وصر بشاطره القرار بنفسه إلى أية بقعة من فطاع الأرض يطلب  
فيها السلو والراحة والتفرج مما به ، ولكنه أشفق على ما جلولين  
أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا في هذا العالم من  
لحاضها .

ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستلقي بعضها منها ويلود  
بعضاً حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتاباً إلى ما جلولين ،  
ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها قصته ،  
وما آل إليه أمره ويغفلها من اليقين التي أقسمها له . ثم  
وضع أمره بين يديها ، فإذا أبعته لحياد إلى أمه وسعيه ، أو فقلته  
فأكتفى بمؤونة قتل نفسه بنفسه . فإنه يكتب ذلك الكتاب إذ  
دعخل عليه رسول البريد يعمل إليه رسالة من مسجل القرية التي  
مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه في كتاب  
وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها في الحال وخشرة آلاف يأخذها  
في كل عام ، فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحسنك اللهم غللت  
يدي عن أن أكتب هذا المال حراماً ، حتى بعثت به إلى " حلالاً " ،  
ومزق الكتاب الذي كان يكتبه وعلم أن أيام عته قد انقضت ،  
وأنه قد أدى للدهر ما عليه له من غريبة الشقاء ، فلم يبق بين  
يديه إلا أن يستقبل السعادة المقبلة عليه خالصة هينة لا يكتوفا  
عليه مكثراً حتى الموت .

وأثأ بفكر بمؤونة صديقه " فرتر " عن بيت صغير يشرف  
على نهر " جوتنج " ويكون على الضفة التي تنحاضها هو وما جلولين  
ليلة ركب زورق البحيرة ونجدنا عن آمالهما ومستقبلهما ، فوجد  
بيناً يشبه قابضه واستصعبه ، وحوله إلى الصورة التي أرادها ،  
وأخذ يوثق لحوله ، ويغرس أشجار حديقته .

وإنه لكذلك إذ قرأ في المزملة المسكوبة خبر وفاة أخيه ليكاه  
كثيراً ، ثم ما لبث أن تجدد واصطبر ، ودفن حزنه في أحراق قلبه ،  
وأقام سروره بخاصه عن التفكير في ما فيه طابع عائلاً للخطبة  
تعباً وأخذ عفته للسفر إلى « ولفياخ » وكان قد علم أن ماجندولين  
قد عادت إليها من « كورلانس » منذ عهد قريب ، ليأخذها  
بذلك السعادة التي هيأها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى  
« جونتج » ليربها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقلبه يفتق فرحاً  
وسروراً حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ،  
وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود ويترك يمشي على قدميه ويقلب  
نظره في تلك العاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى وأشرف  
على قلبه من سائبها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغاية التي  
كان يرمي فيها وحده في الليالي القسرة مناجياً نفسه بحبه وغرامه ،  
ومصوراً لها أعذب الآمال وأحلامها ، ومر بالنهر الذي اقتضه  
منذ يومين لاستنقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفاً على الغرق حتى  
كاد يفرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة  
التي كان ينزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات  
الطوال بين سائبها وسائبها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحظ له أعالي أشجار الزيتون  
التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها في ذلك العهد ،  
ورأى من خلال أودعتها غرقته العالية التي كان يسكنها . فعادت  
إلى ذهنه تلك الأيام الماضية التي قضىها في هذه القرية ، فرأى  
صبيها وسعادتها ، وليلها ونهارها ، ويكورها وأسدائها ، وكل  
ما مر له فيها من سرور وجون ، ورجاء وأمل ، وصحة ومرضى

ورخاء وشدة ، حتى شغل إليه أنه لا يزال مقيماً في تلك المزرع  
حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من طرفه لتقضاء بعض حاجاته ،  
وهو هو ذا عائد إليها .

ولم يزل يوم في أمثال هذه التصورات حتى توصل إلى باب  
الحديقة فوقف على عتبة وقال : ها هو ذا الباب الذي خرجت  
منه بالألمس طريقاً شريفاً لا أضلك من أمر نفسي ولا أمر مستقبل  
شيئاً ، وما ألبدا أدخله اليوم أننا مطمئناً كما أدخل بيتي ، وأزور  
أهله وقومه كما أزور أهل وقومي ، لا أنشئ عينا ، ولا رقيقاً ، ولا  
أنفي غائلة من غوائل الدهر ، ولا رغبة من رزايها ، فما أعجب  
تقلبات الأيام وأغرب ما تأتي به الأقدار !

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأزهارها ،  
وجداولها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقي كل شيء على  
ما هو عليه ، فما هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ،  
وهي الصخرة العائيت السوداء معلقة في مكانها تحت الجدار  
كما تركتها ، وما هي أمشاط الطيور فوق قمة شجرة اللبنيان ،  
تختلف إليها عصافيرها عادية رائحة كمنهدي بها ، ثم التفت إلى  
يمينه وقال : وما هو الجلع الذي حفرنا عليه اسدينا أنا وماجدولين ،  
ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حائطها كما قد حطرت بالألمس ،  
فأغرقت عينه بالدموع ، وجثا بين يدي الجلع وأهوى نفسه  
إليه فكتفه كأنما يشكر له تلك اليد التي أسدعا إليه في احتفائه  
بذلك الذكرى القديمة التي أودعه إياها ، وهبت على وجهه في  
تلك الساعة قصة مرث قبل غروبها عليه بأزهار الحديقة  
وأعشائها ، فحسنت إلى رأس تلك المجموعة العظيمة البديعة التي  
طلعت استروحها في هذا المكان نفسه مع ماجندولين ، ولا يحتمل

الذكرى القديمة مثل الأربع المطر ! فهاج وجهه وحبته ، وأخذ  
يعانق الهواء ويضمه إليه كما يضم حبيباً ملقى بين ذراعيه .

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى  
مكان القعد الذي كان يجلس عليه هو وماجولون تحت أشجار  
الزيتون ، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فالتفت ثائرة  
وتخفى قلبه خففاً شديداً ، وحدث نفسه أن ماجولون جالس  
هناك الساعة وحدها يئس وتنتحب ، وتندب آمالها وأحلامها  
وتفكر في انقطاع كعبه عنها ، فأشفق عليها أن يافتها بالخير  
بأفنة يفتلها ، فأخذ يجيء في قلبه طريقة لإثائه ، ثم مال  
برأسه قليلاً فرأى طرف القعد ، وراى ذبل ثوب حريري  
أبيض مستللاً عليه فاستطير فرحاً وسروراً وقال : ما هي ذي  
جالسة كما كنت أتوقع أن أراها فثبت القهم قلبي وقدمي في  
ذلك الموقف الجلل العظيم .

ثم انعطفت فما وقع نظره على القعد حتى جمد واسفر ،  
ووقفت دورة الدم في عروقه ، وتعلقت بين حبه لما تصعد  
ولا تهبط ! لقد رأى ماجولون جالسة بجانب نهر غريب تسم  
له ويسم لها ، وقد أخذ يدعا بين يديه وألقى رأسه على صدرها ،  
وحنا عليها نحو المحب على حبيب ، فظل يقول في نفسه : ما هذا  
الذي أرى ! لمي لا أفهم من كل ذلك شيئاً .. إنها ماجولون  
بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الجالس إليها ، أليس هو صديقي  
إدوار ؟ نعم هو بعينه لما بعينه هنا في هذه القرية ، وما وجوده  
في هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الليلة الغريبة ؟ ثم شد  
بيده على قلبه كأنما يحاول أن يجسه عن القرار ومشى بشتب قديمه  
القلاعاً كأنما هو شبح من الأشباح الغامضة في ظلال الليل حتى

فنا منها ، فخرعاً إذ رأياه ، ووثباً على أنفاسهما وثبة واحدة ،  
ثم ما لبث أن اختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يبحث  
به ويقلب عينيه في السماء كأنه متحمج يفتش عن النجم السابع  
والسجين بعد المائة والخمسة والعشرين مليوناً كما يصنع المتجسسون ،  
وأطرفت ماجولون إلى الأرض فسكنت في إظرافها سكناً  
عميقاً لا تتخلله حركة ، ولا نائمة ، فظل استيقظ يردد نظره  
بينهما باحثاً مستهدفاً لا يقول لهما شيئاً ، ولا يفهم من مرقعتهما  
أمراً ، ثم مشى خطوة إلى ماجولون ، وقد أخذ اللعول مأخذه  
من عقله فحس النظر الذي رآه عند لحظة ، وأنشأ بخاطرها بأساً  
مطلقاً ويقول لها : لقد انقضت أيام شغافتا يا ماجولون ، ولقد  
أصبحت والحقيقة صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ، ولكنها  
كافية لسعادتنا وهاتنا ، فبحث إليك أنتجى وعذك ، وأنتطبك  
إلى أهلك ، ثم أتعجب بك إلى جونتج لأريك البيت الجديد الذي  
ابنته لك منذ عهد قريب ، وسترين حين تزيه أنه على الهيئة  
التي تمنينا أن يكون عليها ليلة ركبتا زورق البحيرة وتحدثنا عن  
آمالنا وآمالينا ، فارتفعت ماجولون وانفتح لونها وقالت بصوت  
ضعيف خافت كأنها تهمس في نفسها ببعض الأحاديث ، إلى  
أعتك بصلاح حالك يا سيدي ، فغضب استيقظ لنفسك واستطير  
عقله وقال في نفسه : ما هذا الذي أسمع ، إنها تهتني بصلاح  
حالي كأنها ترى أن لي حالاً خاصة في مسئلة من حالها ، فلبث  
شعري ما بالغا ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه  
للغريب الذي ثلثاني به ؟ لقد كنت أعتشى أن أفتلها فرحاً وسروراً ،  
فإذا هي تقتلني هماً وكهداً ، ثم نسى هذا المنظر الأخير كما  
نسى الأول ، فأخرج من جيبه عظام الخليفة ومشى إليها خطوة  
أخرى ليضمه إليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع



خائفاً مذعوراً ، فقد رأى فيه خائفاً غير ذلك الخاتم الذي نسجه من شعره ، وكانت تحدث عنه في رسائلها كثيراً وتقول له إنه لا يفارق أصبعها لحظة واحدة فاشتد حنوق قلبه واضطرابه ، وظل يدور بعينه حائرًا متاعاً لا يعلم شيئاً يرى أم حقيقة ؟ وازدهشت الدموع في عينيه تتبادر إلى السقوط ، فقد يده إلى ماجدولين صارخاً وقال لها : ألا تستطيعين يا سيني أن تقول لي كلمة واحدة فلاي أشعر أنني غل وشك الحنوق ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئاً ، ثم عادت إلى إطارها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفيه وقال له : حبيبك هنا يا سيني فإنيك تقتل السيدة قتلاً ، فالتفت سيني وكأنه لم يكن وآه قبل هذه اللحظة لمصد نظره فيه وصوبه وقال له : إني لم أكن أتوقع أن أراك هنا في هذا المكان يا إدوار ؟ فقال له : سواء أثومت أم لم تتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تتأذن قبل الدخول ، ولم يكن يجعل بك وأنت في هذه السن المتقدمة أن تسي أول درس يتلقاه الطلبة في مدرسة في أدب الزبارة والاستئذان .

فالتفت سيني انزعاضاً شديداً وعلت صوته بحجة بغيضة لم تزل تتع وتستغيث حتى يست وجهه كله فصار كأنه يريد التناصع ، واسترخت يدها كما يكسر الطائر جناحيه للترقع ، وشعر بحداد أطرافه فراجع إلى شجرة وراه فاستد إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرة يقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قلها بوليس فيصير حينها طين من خلفه ، فالتفت فرأى أن الذي طمعه هو صديقه وصفيه ، حتى أنت يا بروتس ؟ وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تنطير مع أجزاء نفسه : أصبح

ما تقول هذا الرجل يا ماجدولين ؟ وهل تزين كما يرى أنني انصطبت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتقدن أن له شأنًا عندك يسمح له بأن ينوي أمر من أخطأني باللبابة عندك ؟ فاعترض إدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيني فقد طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللنا ، فأعطته يدها وتبعته صامخة مطرقة حتى دخلا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يتندان عنه شيئاً فشيئاً حتى انقضا وسبح غسق الباب وراهما فقال شاخصاً إلى الباب الذي دخلاه لا يتحرك ولا يطفئ ، ولا تبتع له جارية ، ولا ينفض له عرق ، ومرت يد على ذلك ساعة ، ثم أخذ يحدث نفسه ويقول :

إن إدوار بخاطري بلهجة الأمر الناهي كأن له شأنًا في هذا البيت غرق شائي ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعمه ، ولا بد أن يكون قد استمد من ماجدولين نفسها ، فقد رأيته بعينها وهو يحتقرني ويزدريني ، بل يسني وبشتني فلم تقل له شيئاً ، لا ! إنها واقفته على أكثر من ذلك ، فقد مد يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل ، وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردي ، وإذلالني ، فبعت طائفة مدعنة ، ولم تلتفت إلي ساعة انصرافها الثقات واحدة تعتلر بها عن عملها هذا ، وما قد مضت ساعة بعد ذهبا ولم تد إلي تری ماذا حل لي من بعدها ، قلت شعري ما دعاني جدها ؟ وما هذا الذي بينها وبين إدوار ؟ إني أخشى أن يكون غلبتها ، وأن يكون هذا الخاتم الذي في يدها خاتم اللحظة الذي أهداه إليها ، وأن تكون تلك اللحظة التي رأيته يغلبها بجانها جلسة غرام يتشاكيان فيها الحب وبشائانه ، فأني كان ما قلت حقاً ، فهي طاعة مجرمة خائفة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ينسر الله لي سبيل الرزق فلم تف بوعدها بل أقست لي



الأيمان التي لا تسعة فيها على الوفاة حتى الموت فلم تبر بيمينها .

لا .. لا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم حق العلم أنها لي ، وأني صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعاً ، فقد اشترتها بدم حياتي وبجميع دموعي وآلامي ، وكأبدت في سيلها من تكتلات الدهر وأرزاقه ما يخرج احتمالها عن طوق البشر ، فبعيت حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتى جبت نفسي عن الخروج من حرقتي إلا في مقام الليل وحنايته ، وتحت في القمالي القرة الباردة في بحر الغواء الجاري بلا غطاء ولا دثار ، وعرجت تحت جنح الظلام أنفسي في متاهات القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة أسد بها رمقي ، وبعت الخبز الأبيض بغير الأسمدة لاستطيع أن أجد لقمة لغواني ، وأعزى لغثائي ، وما زلت أرفع قميعي حتى صار القميص الرقاق وذهب القميص بأجمعه بل ركبت في سيلها ما هو أعظم من ذلك فقد قتلت أعزى ومثلت بالرجل الذي أحسن إليه في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل مبدت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المحرمين .

إنها لا تستطيع أن تتزح بلعاً من يدي ، ولا أن تفصل حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وهما هو اسمي مغفور بخائب اسمها على جلود أشجار حديقتها ، وهما هي شعرات رأسها منسوجة في الخاتم الذي أكيه منذ عامين ، وهما هي الأرض والسماء ، والبحيرة والقلع ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأرجار ، تشهد بيمينها وغرامها ، ومواقف تباتنا وأسلامنا ، وأيماننا التي أنفسناها ألا يفرق بيتا إلا الموت ، لإذا كانت نفسها قد حلتها بتعاطفي ، واتخاذ سبل في الحياة

غير سبيل فقد قتلت علي وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة عن الأخرى .

ثم تأوه آفة طويلة وقال : من لي بمن أيمه نصف حياتي على أن يكشف لي الحقيقة التي أجهلها ؟ ولقد كان جديراً بي أن أقت في طريقهما علماً حاولا الفرار مني وآلني عليهما أن يتصرفا إلا بعد أن يترفا لي بتحققة أمرهما ، ويترفا عن وجهيهما هذا الشتر الذي أسلاه عليهما ، فإن أيا قتلتهما غير ظلم ولا آثم ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يلجعا إلى خلوتهما لينعما فيها بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركاني في هذا المكان وحدي أعالج ما أحالني من الحسوم والآلام .

ثم قام يتخامل على نفسه حتى خرج من باب الحقيقة وشي يرتفع في مشيه ترتفع الشارب للشل ، فما أبعد إلا قليلاً حتى سمع صوتاً شديداً يتخنى وراءه ، غالطت فإذا إدوار خارج من الحديقة ممطياً صهوة جواده أصعب فاختبأ استيقن وراء ريوحة على الطريق حتى دنا منه لمخرج إليه وأمسك بعتاد جواده فظهر إدوار إذ رآه ولكنه تمسك وقال له : ماذا تريد يا استيقن ؟ قال : أريد أن أسألك عن سبب اشتغالك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذي لك فيه وما أعرف لك فيه شأناً قبل اليوم ، قال : لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت أكنت بستان جرايدي لا تتركه ، فدعهم وسلي ما تريد ، فترك استيقن الغبان إلا أنه وقف في وجه الجواد ، فقال له ادوار : لو غيرك سألتني هذا السؤال بهذه التهجئة الخافتة الخشنة التي تخاطبني بها لما كان لها جواب عندني سوى أن أقول له إلى حر مطلقاً أتصرف في شؤون نفسي كيف أشاء ،

غادر ما أورد من الجبال وأترك ما أترك منها دون أن أحرف  
 لإنسان في الوجود حقاً في مراقبتي أو مساءلي عما أنعم ، ولكن  
 إكراماً للصدقة التي بيّني وبينك أستطيع أن أجيبك على  
 سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إنّي أختلف إلى بيت الشيخ  
 مولر لأنّ خطيب ابنته ، وسأبني بها بعد شهر واحد ولو كنت  
 لحضرت حفلة عرساً ، بل أنا أودعوك إلى ذلك ، فارتعدت شفتا  
 استيفين وشعر بالوت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلاً ، وقالت له  
 بصوت خافت ضعيف : أمتي ماجنولين ؟ قال : نعم ، وليس  
 لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفين عنقه ثم رفع رأسه وقال له :  
 ولكنك تعلم يا إدوار أنّي أحبها وأنها كل حظي في هذه الحياة ،  
 وأنّ انزعاجها من بدلي إنّما هو بمثابة انزعاج حياتي من بين جنبي ،  
 فهل يكون عليك . وأنا صدقتك ورفيق حياتك وشريك الدائم في  
 سراء الحياة وغربائها أن تقتلي ؟ قال : أنا أعلم أنّك تحب هذه  
 الفتاة ، وأنك استمتعنا في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ،  
 حتى كادت تسقط في أحضنة الشقاء التي نصبتها لها ، لولا أنّ  
 تذكرها أبوها فاستقلها من يدك ، وطردك من ربه طرداً قبيحاً ،  
 وحماها ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تبته لها ، فقامت استيفين  
 وقال له : ولكنك لم تحبني على سؤالي الذي سألكه ، قال : وما  
 سؤالك ؟ قال : سألتك هل يكون عليك قتل وأنت أمتي وصديقي ،  
 ورفيق طفولتي وصباي ؟ قال : إنّي ما أردت ففكك بل أردت  
 حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعمل هذا إلى الرجوع إلى نفسك  
 والتذكير في شأن حاضرنا ومستقبلك ، فلعلمك إنّ روأت في أمرنا  
 قليلاً علمت أن غيراً من هذه الحياة المضطربة المبهمة التي تقضيها  
 بين أعلام خافتة ، وأمال كاذبة : الرجوع إلى أمك والانسواء  
 لهم والسكران تحت أجنحتهم والإيمان لهم فيما يريرون لك من

الحير في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي اختاروها لك ، ولا  
 يلعب عليك أن تواجلك من فتاة موسرة تظلل بوارف نعمتها  
 ضاحكاً " فترك ، غير أنّه من القعود قطع الدك والمترية بحالب  
 فتاة فقيرة تضم شقامها إلى شفتيك قلباً بحملاً معاً ، فما أنت  
 ترى أنّي أردت لك الخير فيما فعلت ؟ وأصبحت إليك نعمة إن  
 إن جهتها اليوم فستعرفها غداً ، وستبها عما قليل هذه العاصفة  
 الكائرة في رأسك فستعرف في مكان اليد التي أخذتها منك وتكرما  
 لي شكراً جزيلاً .

لما أتى إدوار على آخر كلماته حتى جاز الغضب في رأس استيفين ،  
 وبرزت من مكنتها تلك البقرة التي كانت رابضة وراء سكونه  
 فالتفت عليه ولبه " وهرة هرة " شديداً حتى كاد يشلعه من سرجه  
 وأنها يقول له : الآن عرفت مكان الخديعة التي خدعتم بها تلك  
 الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار . ومن أي باب دخلتم إلى قلبها  
 فعبثتم به ، وإلى قلبها فطردتم بصوابه ، فقد علمتم ما تضمره في  
 بين جوانحها من الحب والإخلاص ، وأنها لا تبني بخادق بدلاً  
 من أغراض الحياة ومآزرها ، فأنقذتم في روحها أنها علة ما آلت به في  
 هذه الحياة من بؤس وشقاء ، وألا سبيل لي إلى أن أقال من حياتي  
 حقاً من سعادة العيش وهاته إلا إذا أباستني من نفسها وانزعجت  
 بدلي من بدلي وقطعت ما كان موجولاً من الود بيني وبينها ،  
 قصدت خديعتكم وأزعجها هذا المصير الذي عيّنتم لها أنّي سأصير  
 إليه بسببها ، فأذعنت لرايكم ، واستغذت لكم ، وقطعت مسا  
 افرحتم عليها ، وحة بي وإشفاقاً عليّ ، فكذلك استطعتم أن تستمروا  
 ضمتها وتستلوه لأنفسكم ، وما يكمن من رعدة بي . ولا بها .

(١) عيسى عيسى : برز قيس هو ساج .

(٢) اليد : اليد بفتح الهمزة .

ولكن هكذا أراد الشيخ البشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذي  
يعنده ويدين به : فباعك ابنة بيع الإماء في سوق الرقيق ، وهكذا  
أردت أن تسع بشهرتك البهيمية التي لا تفهم من شؤون الحياة  
شأناً غيرها ، ولا يفتيك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمر سواها ،  
فمثلك من يبيع عن إفراده سريرة نفسها ، وما تقصره بين جوانحها  
من نيل وشرف ، وكل ما تستطيع أن تفهم منها أنها فتاة وضيفة  
حسنة تشبه في جانبها ورواقها رذول أولئك الفتيات الجليات الفراتي  
طالما خدعنهن عن أنفسهن ، وغشيت ليلك في مقاصيرهن ،  
ثم ما لبت أن تغضت يدك منهن ، وتركتهن يدين حياتهن وأعمالهن ،  
ولو استطعت أن تسلك إلى الفتاة بهذه الفتاة تلك السيل التي سلكها  
إلى الفتاة بأولئك الفتيات لقلعت ، ولا جشمت نفسك مشقة  
الزواج منها ، ولأعنتك ليلة واحدة تقضيها في خدعها عن أن تحبس  
نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من نيته قزبل لزوجته منه وويل منها  
وويل لها من شقاها الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أرغمت على زواجها  
إرغاماً ، أو خدعت فيه خديعة ، فأنت غلط . في ذلك لأنها قد  
نسيت كل ما فيها غيره وشرة . ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها  
وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه حياتها .

فاستظهر استيقظ غضباً وقال : كذبت أيها الرجل الباطل .  
إنها أشرف مما تظن ، وانفقس عليه يريد الفتك به ، فأنتك  
إدوار يديده . وقال له بنعمة المستعطف المترحم : أتريد أن  
تقتلي يا أمينة ؟ فاستخفى استيقظ وغضاض ، وترامى له طيف

ذلك الود القديم الذي كان بينه وبينه ، ونظر إليه بعينين مفرورتين  
بالموع ، وقال له : لا يا إدوار لا أستطيع أن أقفك لأنك  
صديق ، ولقد وقعت مرة في حياتي أسفك يقع قطرات من  
دمي فداء منك ، فلا أذنب حل مروي قط ، ولا أستردي يدي  
التي اتخذتها عند الله فليك أبدأ .

ثم ألقى برأسه على قبروس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه  
يبللها بدموعه وظل يتأفف ويقول : إني لا أذكرك يا إدوار باسم  
الصداقة التي رضعنا ثديا منذ طفولتنا معاً كما يتفاسم الأخوان  
لدي أمها ، ولا باسم القنومة التي أطلقنا سماؤها وأطلقنا أرضها  
خسة أعوام كاملة آس بك فيها ونأس بي ، وأعينك على أمرك  
وتعيني على أمري ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أرجين الذي  
كان كرمياً عليك وعلى ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ،  
حتى مات ، وهو يعتقد أنه قد تركني من بعده في كلمة أرح كرم  
وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التي أقسمتها لي ليلة مفرك من  
« جوتنج » ألا يهدأ لك في حياتك روع ، ولا يطلع لك صدر ،  
حتى أذاك أميني من حياتي ، بل أذكرك باسم الرحمة والشفقة ،  
لأنك بحسن كرم ، ولأنك بأحسن مسكين ، وليس لقياس المسكين  
من سبيل في حياته لغير رحمة المحسن الكرم .

فلم يبق إدوار بذلك كله وتفعله وهو يجوده فطار به ملء  
فروجه ، فركض استيقظ وراه فلم يدركه ، وكان قد أعياد الجهد  
فقط في مكانه ، وهو يقول : لا يد أن يكون ما قاله صحيحاً .

ولم يزل في سقطة تلك حتى مر به بعض السابلة ، وكان قد رآه  
عند حضوره فمرقه فأذن به سائق حبلته ، فهرع إليه المولدي

ولم يد يد حتى إركبه العجلة ، ثم ذهب به إلى منزله .

فما انفرده بنفسه في غرك حتى أخذ يصيح صباح للمجانين  
ويقرب رأسه بالمقنن : وهو يقول : أه لقد قتلتك يا ماجدولين ؟

## رسائل استيفين

(٦٣)

### من استيفين إلى ماجدولين

أصبح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى ١٢ . وأنا أصبحت  
مشاركين غير متعاونين لا يذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر  
لبداً من أحلام صباه قد عفت آثاره الأيام والأعوام ؟

أصبح أنا إذا تقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا  
في سبيله دون أن يلوي على صاحبه ، أو في مجتمع لا يكون بيننا  
من الشأن إلا كما يكون بين الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال  
هذا المجتمع ونسائه ، أو في حلوة لا نجد ما نتحدث به أو لا نتحدث  
إلا بمحدث الأجرء والأمطار ١٢

ما أسرع تقلبات الأيام وما ألحظ تصاريدها وشؤونها ١٢

أليما بين يوم وليلة تهدم جميع الآمال الحسام التي بيننا  
وأحسنا بنادعاً وبذلك في سبيلها همومنا وآلامنا وأرقنا من أجتها  
كل ما غلقت من دموع وشؤون ، وتصبح أثراً من الآثار العارسة  
التي يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ  
الماضي ١٢

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تنثر  
التكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء على السجل للكتاب .

لقد كنت أحسب يا ماجدولين ألا يتزل ذلك الأمر منا غير  
الموت ، أما وقد تولينا من أنفسنا ونسجت خيوطه بأيدينا ،  
ونحن أحياء فذلك أصحوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ولا سمع  
مثل حديثها سامع ؟

ماذا أنكرت مني يا ماجدولين ؟ وماذا دعاني عندك ؟

لقد أحبتك حياً لم يحبه أحد من قبل أحد ، وأخلصت لك  
إخلاصاً لا يقصر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده ، وأبنتك  
إجلال العابد لمبوده فما غنتك في سر ولا جهز : ولا كذبك  
في قول ولا عمل ، وملأت فراغ حياتي كله بك فلا أنظر إلا  
إليك ولا أشعر إلا بك ولا أحلم إلا بطيفك ، ولا أشرب لروية  
الشمس ساعة شروقها إلا لأنني أرى فيها صورتك ولا لسماع  
أغانيه القليل في أغانيا إلا لأنني أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا  
لمنظر الأزهار الفاسكة في أكسامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ،  
ولا لتحييت نفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ،  
ولا لأزرت القيام ليها إلا لأعيش بخديك ، وأستمتع برويتك ،

إن كنت تريد أني لا أستحق محبتك ، وأني أصغر شأناً من  
أن أملاً فراغ قلبك ، فأعني في حبي أباك وإخلاصي لك ،  
واجزيي خيراً بما بذلت لك في حباتي من دموع وآلام وشجون  
وأحزان ، واعلمي أنك إن استطعت أن تجدي بين الرجال من  
يرغبك بجماله أو ماله ، أو حسيه أو جاهه ، فإنك لا تستطيعين  
أن تجدي فيهم من يحبك بحبي ، أو يتكلم لك إخلاصي .



إنهم قد غدغوك يا ماجنولين ، وزيتوا لك حب المساك  
والشهوات وتحيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب ، وتوب فاعتر ،  
وقصر باذخ وعقد ثمين ، وقرط جميل ، وأن الزواج شركة  
عالية يتعاون فيها الزوجان على جميع المال واكتنازه ، وما علموا  
أن الزواج المالي نوع من أنواع البغاء ، وأن المرأة التي تزوج  
الرجل لماله لا تزوجه كما تزعم ، بل تبيع نفسها يماً كما تبيع  
البنى جسمها لعاشقها ، بل هي أخط من البنى شائناً ، وأسفل  
غرضاً ، لأنها لم تبيع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها ، أو  
خرقة تستر بها ضاحي جلدها ، فينصح لما حيدر العبد في ذلك ،  
بل من أجل عقد ثمين تطمع في أن تزين به صديها أو ثوب  
فاخر تكثر به أثريها ، أو قصر جميل تستمتع في جوه بأشواع  
للألفهاس .

لا تعددني يا ماجنولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب  
لأن سادقت قولك لك منك ، فإنك قد حكمت هل قلبك بالمرز :

لقد كنت عتدي أكثر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة  
وبأية لها ، وكان أكبر ما أصطعك في عيني ، وأجلك في نفسي  
واستعبدني لك أنك المرأة التي وجدت فيها وعدداً من بين النساء  
جميعاً ظناً نقياً طامعاً يفيض بالحب النقي الطاهر الذي لا تشوبه  
شوائب التوارع والشهوات ، ولا يكثره مكشور من أغراض  
الحياة ومطامنها ، فهل كنت عطفك في ظني ؟

لا .. لا .. لك لا تزالين صاحبة ذلك القلب الذي أعرفه حتى  
السياسة وهذا هو الذي أخافه عليك ، وأنت لك من أجله .

أنت لا تعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه

لشيء وأخص ما أعلم منها أنه لا يحصل بين حبس قلباً مثل  
قلبك ، ولا يلهم من معنى الحب وسره المعنى الذي تفهمين ،  
ولا يستطيع أن يكون شريكاً لك بحال من الأحوال في شعورك  
وروحانك ، وكل شأنه معك أنه أنك فاستملحك فاشبهك ،  
واللحاح عريض زائل ، والشهوة ظل متقل ، فأخضى عليك أن  
بنالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذي تغرين منه اليوم ، وألا  
ينفك ولا يجدي عليك شيئاً في ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا  
لفظة ولا ذهب ، ولئن تم لك ذلك لا تكونين أشقى الناس حيناً  
وأعظمهم بؤساً ، لأنك أحببك ، وأحب لك السعادة في كل موطن  
تكونين فيه ، من أجلك لا من أجل نفسي .

ليت شعري ! هل يصل صوتي إلى أحناء قلبك يا ماجنولين  
كما كان يصل إليه قبل اليوم ؟ وهل نستطيع أن نتصور  
كما كنت تتصورين من قبل أنني أحبك لنفسك أكثر مما أحبك  
لنفسى ، وأني فيما أنقصت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت  
سعادتك وهناك أكثر مما أردت سعادة نفسي وهاتها !

(٦٤)

من استيقظ إلى ماجنولين

لقلنا أبنى على ما أرى .

الحياة مظلمة في عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها  
حساً ولا حركة الليل متواصل لا ينقطع ، وكان شامس زقود  
في مضاجعهم لي لهم ونهاهم ، لا يستيقظون ولا يستطيعون

ويجئ إليّ أني أعيش في صحراء نائية مقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير ، ولا يمر فيها نهر ، ولا يطأ تربتها إنسان ، ولا يحول في أكفافها حيوان ، وأنني أهرم فيها وحدي ليلى ونهار ، أطلب الخلاص منها فلا أعرف السبل إليه ، وأحمل نفسي على القيام فيها ليقبلي الشجر والقيق .

فمن يميني حيني وثألي صاحي فأرتاح من همومي وألامي ؟ لا شيء . يزييني عنك في العالم يا ماجدولين ، لأنك كنت لي كل شيء . فيه فلما فقدتك لم أجد عنك صرخاً ولا بدلاً ، وكنت كمن غامر في ساعة واحدة يجمع ما تملك يده فلما حسر خسر كل شيء .

كانت لي آمال كبار ، وأمان حسان ، وكانت لي نفس مملوءة بظلمات الأمور وجلالاتها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء . في هذا العالم ، فأصبحت رجلاً خفيفاً خائفاً متألماً باتماً قاتلاً لا أشعر ولا أفكر ولا أتحك ولا أدع ، ولا أجه إلى مقصد ، ولا أملك بفرس ، ولا أجلب لنفسي خيراً . ولا أضع عنها خيراً ، ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جنة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطروح في قارة الطريق .

ألا تخافون يا ماجدولين أن يأخذك الله يداي يوم يأخذ الناس يدايهم ، ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطامعة التي قتلتها ولمحيثها في جميع فضائلها وبراعها ، وأن تتبعك صورة في كل مكان تذكرين فيه ، في خلواتك وجمعاتك ، ومعائك وبطنتك ، وبين ذراعي زوجك ، وبجانب مهود أولادك ، ويصبح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ،

والآباء الرحماء والأصدقاء والأقرباء ، ولكن خير الناس جميعاً ؟

ألم تعبدني يا ماجدولين أن تسهرى على سعادتي وعرضها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وحياتهم ؟ فهالدا أشقى الناس جميعاً ، وأعظمهم يؤساً وفلاء ، فأين ما وعدتني به ؟

تعال إليّ وقلني ألامي ساعة واحدة لأراك وأرى في وجهك صورة سعادتي الزائلة وآلامي القصاصة ، وأسمعني صوتك العذب الجميل الذي أسمعته من قبل ، وألقي عليّ نظرة واحدة من نظراتك العذبة الرافقة بحبي بها نفسي اليقة ، وقولي لي جدياً أو كذباً إنك لا تزالين تحبينني وتعطين عليّ ثم لا تريدني على ذلك شيئاً ، فقد أصبحت أقبح منك بكل شيء .

أقسم لك يا ماجدولين أنني لو رأيتك في طريقتي لهرعت إليك وجئت تحت قدميك كما يجتر العابد تحت قدمي معبوده وسألتك قبل والإحسان كما يفعل شائل الشجدي ، لأن أهرضت عني رخصت وزمرك على ركبتني وتعلقت بأهداب ثوبك حتى نصغي إليّ وتسمي شكائي .

ولكن ماذا أقول لك ؟ وماذا عندي من الأحاديث فلتحدثك به ؟ لا شيء . عندي سوى أن أعرف دعوتي تحت قدميك ، وأريد يدي إليك صامتاً ثم أصح حياتي بين يديك إنما أحييتني أو قتلتني .

إنني أشاء كثيراً يا ماجدولين ، ولا أحب أن في العالم نفس تحمل ما تحمله نفسي من الآلام والأوجاع ، فأرحمني وأعطيني عليّ ، فإن لم أكن كفواً لمحببتك ، فامحني صدقتك ، فإن أيها

عاشلي على سر حياتك ، لأن كنت بها غافلي أن أسير وراءك  
في كل مكان تبهرين فيه كما يتبعك كلبك الدليل ، لأراك وأسمع  
صوتك ، وأستنشق الهواء الذي يحيط بك لأنني لا أستطيع أن أعيش  
في العالم دون أن تكون لي صلة بك .

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك معادلي وهنائي ، أما  
الآن فقد حالت الخلال ، وتراجعت الآمال ، وأصبحت لا أطمح  
في أن أصح بين يديك شيئاً غير حياتي .

هل تبين عليها ؟

(٦٥)

من استيقظ إلى ماجدولين

لي الله من الناس مسكين ، فقد ذهبت زهرة حياتي قبل أن تفتح ،  
ودبت إلى الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب ، وانطفا  
ما كان مشغلاً في قلبي من الحسة وفي رأسي من الذكاء ، وفي  
وفي جسدي من القوة ، واقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس  
جميعاً ، فماتت أمني ، وطردني أبي ، وعاداني أهلي ، ولم يكن  
باقياً لي في العالم سواك ، ثم انقضى ما كان بيني وبينك ، فأني أرب  
في في العيش من بعد ذلك .

أقول لم أؤثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت  
أروح لي بما أكابده ؟ لأنني لست على يقين بما بعده ، وأخشى  
إن حل لي أن ينزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي جمعت  
فيها حبك وعطفك وبغلاوة الأمل فيك ، والتي هي كل ما بقي  
في يدي بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقلت نفسي ، ثم استعالت

روحني إلى طائر جميل يطيف بك ويرفرف على رأسك حيثما  
ذبحت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقبلات من فمك أخرى  
فأظفر منك شيئاً بما صيرت عنه حياً .

ياك حلفتي معادلي يا ماجدولين ، ولكنك لم تعطيني شيئاً  
بدلاً منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه  
البحريح الظالم في الصحراء المحرقة لا عقل فيها ولا ماء ، وينجو  
بنفسه غير مهال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أفناك ، وما  
أبعد الرحمة من قلبك !

ردي علي آماني وآمالي ، وليالي التي قضيتها فيك ضاعراً  
متشغلاً ، وحياتي التي وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها إليك ،  
وأعيتني إلى عطلتي وحزائي ، ورحمتي وإشغالي ، وجسج عواطف  
قلبي التي غشت بها على أهلي وقومي جميعاً وأثرتك بها من  
فؤوسهم ، وعقيدتي في الحب والقاء ، وإيماني بالله وبقائه الخبير  
في الأرض .

ماذا تقترحين علي يا ماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر  
الأرض أو كثر من كنوز السماء تحبين أن أخضع بين يديك ؟ أنزلي  
فصرّاً من المزمز الأبيض ، أم صهريجاً مملوءاً بالزئبق الرطب ،  
أم يسطاً مصوغاً من الجوهر ، أم حلة منسوجة من أشعة الشمس ،  
أم ثاجاً مرصعاً تتضائل بين يديه نيجان الملوك والأكرام ؟ لقد  
أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدي  
إلي قلبي الأمل الذي ملسته فأصبح أقوى الناس جميعاً وأندرجه  
على امتلاك نامية تكون بأجسده ، أرضه وسعائه .

آه ما كان أشد سروروي وفرحي يوم أعيدت لك ذلك القيث

الصغير في «جورنج»، وبنت لك فيه تلك الفرقة الزرقاء الجميلة  
ووضعت فيها ذلك السرير، كنت أرجو أن يكون الدوحة القبابة  
التي ألصق بك في غلالها، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أضع  
زهرة تحيئها أو يحيا أبوك إلا غرسها فيها، وكنت كلما دخلت  
ذلك المنزل ووقفت في فناءه لحظة خيل إلي أنه أهل بك، وأن  
صوتك العذب الشجي يرن في أذني، وأن أولادنا يلعبون بين  
أيدينا في حديقته، وبسقطون أزهارها وورودها ويقدمونها عذبة  
إلينا، بل كنت أتحيل عندما كنت أدخل غرفة زيتك أنني أراك  
جالسة إلى مراكك فيها تمسطين شمر الأضفر الجميل، والتي  
والف وراك أغص يدي في ذلك الخليج الذهبي الزجاج وأنتلست  
من قبة يمد أخرى.

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وفسي، فانتقطع الماء عن  
حديقته، وذوت أشجاره وأزهاره وعسفت الريح بنواقصه  
وأبوابه، وكنت الرب أرضه وسفوفه فأصبح كالمروحة الحسنة  
التي نزلت بها منيها ليلة زفافها.

أصبحت لا تكلمني إلى حرفاً واحداً، ولا تحيئني عن كتاب  
واحد من كتبتي، وما كان ذلك من شأنه قبل اليوم، فأكتبني إلى  
كلمة واحدة تقول فيها ما لشايق من خير أو شر، فقد وطئت  
نفسي على احتمال كل شيء.

(٦٦)

من استيقظ إلى ما جلدولين

لم تكلمي إلي تلك الكلمة التي صرخت إليك فيها، وعهدتي

بك ألك مشيت قبل اليوم على قدميك يضع ساعات كتابت فيها  
ما كتابت من الأحوال العظام حتى وصلت إلى صندوق البريد  
في قرية بعيدة عن قربتك فبحثت إلي برسالك، فقبل ذهب ذلك  
الماضي بأجسه ولم يبق في نفسك من أثر واحد.

لا أستطيع أن أصدق ذلك، فكل ما حولك يذكرني في  
وبأبائي التي قضيتها معك، فهناك الشمس التي كنا نستقيها معاً  
طائعة وتودعها غارية، والقمر الذي كان يشرف علينا من عظام  
سكانه، ويرسل إلينا أشعة النضية البيضاء تقطعنا غلالها معاً.  
والمنعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء وبذلك في يدي ورأسك  
على صدرتي، ولعلك تحت تناول لسانتي، والبحيرة التي كنا  
نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على صفتها صامتين  
تتحدث قلوبنا بما نملكه من ألسنة، ثم نعود وبودنا أن لو استمر  
بنا المسير أبداً الدهر إلى دار الخلود، والفرقة التي التقينا فيها ليلة  
وبلنا قربتها بدموعنا وأفئسنا بين سعادتها وأرضها بين الوقاء حتى  
الموت.

إني أأذكرك في اليوم مائة مرة يا ماجلدولين صارعاً مستغيثاً  
ياحمياً متجهاً، لا أعداً ولا استريح، وأنت لامية عني بذلك الشأن  
الجليل الذي استحدثته لنفسك، لا تسمحين لنادائي، ولا تترين  
لمصابي، وما أعلم أنني أذنبت إليك في حياتي دنياً واحداً تأخيليني  
به، بل أعلم أنني أفرقت جميع الدروب والآثام من أجلك.

إن كنت مررت مرة في حياتك بامرأة جالية على قبر زوجها  
تندبه وتبكيه أحمر يكاء وأشجاء لأنها كانت تحبه حياً جناً، ولأنه  
تركها في ريعان شبابها فقيرة معدمة، وترك لها أطفالاً صغاراً  
لا حول لهم في الحياة ولا قوة، فحزنت لحزنها، وبكيت لبكاها



أو رأيت في طريقك فتاة فقيرة هائجة على وجهها تبكي وتشتحب  
ورسالة القادين والرائحين أن يمنحوها درهماً واحداً يتناح به دواء  
لأعنيها الصغير المريض الذي لا سند له غيرها ، ولا هائل لها  
سواها ، فأوتيت لها ، وأسقطتها بطلبها .

أو مررت بفتاة نهر قرأت امرأة واقفة به تنزل وتصبح  
وتتصرخ الناس لوحيدها الذي يفرق في النهر أمامها فلا يجد  
من يبينها عليه حتى سقط سقطاً لم يطف من بعدها فجعل جنوناً  
واقطعت وزاده يتيها فطواعها البحر معاً في لحظة واحدة ،  
فأضللت نكتها ، وبكيت مصرها .

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ السكين الذي دخل عليه الجند  
مؤله ، وهو جاث بجانب زوجته المحضرة وابنته المريضة ليأخذوه  
إلى السجن لأنه كان قد سرق من أمتها بالأمس وبعثاً بقم به أودعها  
فقال الجند أن يملأوه ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع القضاة  
بملكه ، فأبوا ذلك عليه فملطت عليه النازلة فذهبت بهفله ، فعدل  
به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان .

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي قتل في غارة مفرقة فاشتد  
به الصلث وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى  
أعياه الجهد ، وعجز عن السير ، ثم لمح على التبعده صفحة ماء  
تفرق ، فمالزال يرحف على وكيته إليها ويتغصب الحصى بتمه  
المتدفق ، حتى إذا ذاقها ، ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة  
سقط من فوقها ميتاً .

أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى الجبال  
جالسة أمام كوخها ، وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلفة وبين

بليها قدر يتصاعد بخارها قلما تغتوا منها فالحلم أن رأوا في بعدها  
سكيناً مخفية بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر ، ففسروا  
أن الجوع قد أفتدها عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها  
إنما هي دميها قد دبتته وأنشأت تطفح أوصاله عذيقها وتطبخها  
فأكلتها .

إن كنت سمعت بخبر هؤلاء الشكويين ، وسمعت أنهم المذنبين  
في السجون وصراخ الرضى في المشفيات ، وضحك المجانين  
في المارستانات فليست لهم ، وأوتيت دسائهم ، فأعلمني أنني أشتي  
من هؤلاء جميعاً ، وأنتي أول منهم برحمتك وإغفالك وعطفك  
وحنانك .

لم يبق في بقية القصة احتمال أنجز مما أحتلت ، وربما لا أستطيع  
أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ إلي القصص انتهاء ،  
وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئاً ، فالوداع يا ماجدولين وداع  
الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت  
الأخرى .

انتهت الرسائل .

(٦٧)

من ماجدولين إلى استيفين

لا أكتبك يا حبيبي أي بكيت كثيراً عند قراءة رسائل والكني  
حدثت إلى نفسي وقتلت أنها زفرة من زفرات اليأس سقطتها الأيام  
كما أسقطت غيرها من زفرات اليأسين ، وربما علمت بعد قليل

من الأهم أن الله قد خلّك ليما كان ، وأنه قد أخذك من حيث لا تحسب حياة أسعد وأهدأ من هذه الحياة التي تنفد وتبكيها .

أنت تعلم يا استيفن أنني غداة فقيرة وأنت غني لا مال لك ، أو لا تملك من المال ما يقوم بشأنك زوجاً ووالداً ، فخير لي ذلك أن أغرق وأن يسلك كل من في حياة القرية التي يعلم أنها تنهي به إلى سعادة عيشه وعائلته أحياناً ذلك أم كرهها ، فتناس كل شيء يا صديقي ، وسافر إلى كويلانس واستصلح عليك أبائك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقك الوثيق لك ما حيت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي وأهنة نفسي ، ولم أشتري فيه إلا عقلي وضميري ، فأنا صاحبه والمأخوذة به إن كنت لا يد أخذاً به أحد ، والسلام عليك من صديقك الذي ترجو عفوك وغفرانك .

(٦٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء يا ماجدولين ، فاختاري لنفسك في حياتك ما شئت ، وما هي ذنبي وسألتك عاقلة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم - وإلى أنفيل صديقك بالضمير الرحيم الذي نزلت به حبك من قبل - أما الثقة فلا لا أنتم عليك ولا على عطفك شيئاً ، بل أماله الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

(٦٩)

الزفاف

لقد دعت الكنيسة بسكان قرية ولقباخ رجالاً ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور المهرسين ، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت المجلات وهي مقبلة فنهضوا جميعاً على أقدامهم واصطفوا صفوفاً متالية لاستقبال القادمين . ثم دخل إدوار أخذاً بيد ماجدولين وهي لايسة نوباً أيضاً فامسكاً بيدها قد من جرم الزهر وعلى رأسها لأكليل من الزهر يتلألأ في شعرها الذهبي الجميل ، ودخل ورأسها الشيخ مولر وسوزان وأيوها وزوجها وأشبه ابن عمه ماجدولين وألبوت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل غداة وأيوها في حياتهم قدسوا لها ولزوجها بالسعادة والمنا . وملأوا أرجاء المعبد عناقاً بهما وثناء عليهما ، ثم مشوا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القبطية الزركشة فركع الناس بركوعها ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واختبأ وراء سارية من سواربه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يسمعه أحد ، اللهم احرسها بعين عنايتك ، وأسر عليها سر حمايتك ، وامنحها السعادة والمناة في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي .

ثم بدأ القسيس ينثر صلاته وجمامت الساعة التي ينطق فيها بكلمة الأخيرة التي لا مرد لها ولا رجعة فيها ، فسمع استيفن أن قلبه يتحقق خفقاناً شديداً ويضرب ضرباً يعلو صوته على أصوات

التواقيس فأمسك بكفيه على أذنيه وأعرض عينيه وقبح في أحوال نفسه واستلهم الله الصبر على نكته . ثم قضيت غاشية لم يشعر بها كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكعبة عالية مقفرة تتخلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الماردة في نواقلها وكواها . فزفر زفرة أخرى كادت تنساق لها أخلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قصي الأمر وخرجت منجلولين من يدي ، وأصبحت كفي صغراً من جميع كمالي وآمالي ، فما العمل ؟ وكيف أعيش ؟ وإن أقضي بقية أيام حياتي ؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحميا من أجلها ؟ ثم خرج هائلاً على وجهه لا يعلم أي فيج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أصبحت في عينيه من كثرة الخبال ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين متصرفين من الحلقة زمراً قاضين بركن مظلم من أركان السور حتى اقتطع خلق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرس البيت بنظرة شذرة ملتفة لو اتصلت شرارة من شرارها يسقط من فوقه أو كوة من كواه لأنت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطلقاً في جميع الغرف والقيعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة العرس . فلم يتحاشى أن تار من مكنته ثورة الأسد المحتاج وأخذ يدور حول السور ذهاباً ورجلاً وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي ؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه توقف أمامها لحظة ، ثم حدثته عنه باختصاصها فرأى حجراً ضخماً معترساً في فميتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه . ثم التفت إلى الحديقة غير مغالط ولا وجل ولا مبال بما أقدم عليه . وأنته سبته إلى سلم الدار حتى يبلغه فسمعه يخلص الخطى اختلاصاً حتى وصل إلى باب الغرفة الضيقة فوقف به وأحس أصواتاً من وراءه ، فتمر برعدة تشبه في جميع أعضائه ، وحول إليه أن قلبه يتحدر في هوة عميقة لا

قرار لما وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونها حائل ، وكأنني به وهو يفسها الآن إلى صدره ويصلي نفسه بفسها ، ويوسعها لثماً وثقبلاً فتصليه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فترت في سمعه أصوات الضحككات والقبيلات ، وسمعهما يقول له فيما تناجيه به : أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها . فجاء جنونه وحده نفسه أن يضرب الباب بقدمه ضربة عاتقة تطير به ثم يقتحمه عليهما فيقتلهما ويخشب سرير العرس بدمهما ، ثم يقتل نفسه على أثرهما . واستصر فوته على ذلك فخذلته ، ففرقت بين الإقدام والأحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظفاره تمزيقاً شديداً ، حتى استألف قصبه دماً ، وثنازت أظلال جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بالأم ، بل لا يعلم أنه يصيح من ذلك شيئاً حتى أعياء الجهد ، فزالت به قدمه فاقبلت إلى أسفل السلم وهو بين الحياة والموت .

ولم يزل في سقطة تلك حتى استيقظت الحافض ، وجفاف . مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيافته فراه صريعاً في مكانه ، فقامها أمره ، وأدعشها وسجده في هذا المكان ، ثم رأت الدم المائل بوجه وأظفاره فظنت قتلاً فتعذبت أن تصيح فحانها صوتها ، فأبكت عليه لتعلم ما شأنه فأبكت رجع أنفاسه ، فهدأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فاشتقت عليه ، وكانت تحبه وتكرمه ، ولم تزل تضح عليه بالله وتسبح صدره حتى استفاق فدار بعينه حول نفسه فذكر ما كان ورأى جنيف بين يديه فاحسر وجهه خجلاً وسأله هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا . فاعترف لما يجمل قصته ، وتناشده الله والمردة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدهت بذلك فقام يتعادل على نفسه حتى

خرج من القزل ومشي في طريق قريته .

(٧٠)

المسديان

قالت جوزلين زوج غرتر لطبيب . وكانت تقول تخبرني  
استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ،  
والخوف ما أعانف عليه أن تنزل بعقله ثلاثة من توازل الخنوع ،  
قد أصبح لا يتعلل إلا باسم تلك المرأة ، ولا يفكر إلا فيها ،  
ولا يرى في يفتته أو في ثامه غيرها ، فيخيلها نازة مقبلة عليه  
فيتمسك لها ويتهلل ويفتح ذراعيه لاستقبالها ، وأخرى منصرفة  
عنه فيضرع إليها ويبتغى باسمها هائفاً عالياً ويحاول التهورس من  
فراشه لإدراكها والتثبت بها فهو إما ضاحك أو باك أو عائف  
أو ضارع أو مترحم . ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيام  
أخرى ذهبت التكة بعقله أو بخياله ، وما أحب أن شيئاً غير  
ظفرك تلك المرأة أو اتصالها بها يشفي من داءه ، فقال الطبيب :  
لقد خاطرت اليوم بأخبر ما في كتابي من الأسهم ، فساشرت إلى  
قريه ولقياح وقابلت ماجبولين على غير سابق معرفة لي بها ووصفت  
لها حالة المريض في جنونه واستهانته بها ، وقيامه وقعوده بأمرها  
ليه ونهاره ، زمانها أن تزوره ورورة واحدة حتى أن تقعه  
وترفه عنه بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إياه شديداً ،  
فلم أول به استرحمه واستعطفه وأشدته الله والمروءة حتى أذعن  
بمد لاي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على  
مغض ، وقد تركتهما الآن يتهيآن لحضور حل أثيري .

ثم مشى إلى المريض وجلس يقبه وأمر بقده على رأسه وقال :  
يا لصبي ! لقد قصصته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجيدى  
ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بخاتمه يتضح حينه بالماء ويحمره بضع  
قطرات من الدواء .

وإنه كذلك إذ قرع الباب فرحاً خفيفاً ففتح فدخلت ماجبولين  
وبرامها إدوار ، فلم يشعر استيفن بها عند دخولها ، ثم فتح  
عينه بعد قليل ونظر إلى جوزلين وقال لها : أين لياني التي أمرتك  
بالحضور ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي  
إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فاطرقت المرأة واجبة ،  
وأدارت ماجبولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها . فتقدم  
نحوها الطبيب وسأها أن تدلو منه وتاديه باسمه لعله يعرفها .  
فدلت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ،  
ثم أدار رأسه وأخفض عينيه ، فطلعت أنه لم يعرفها فنادته باسمه  
بذلك الصوت الرخيم المذهب الذي طالما سمعه من قبل فملك عليه  
مداركه ومشاعره . فكان موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة  
واحدة ، فانغض من مكانه وفتح عينيه وتناحس متكأ على إحدى  
يديه ، وحل يضرب يديه على جبهته كأنما يستحي في ذهنه ذكرى  
قديمة طال عليها العهد ، وبدير رأسه عنة وبسرة ويقلب نظره في  
وجوه الحاضرين حتى وقع على ماجبولين ، فأخذ يحلق في وجهها  
تحديقاً شديداً ، ثم ابتسم وشد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا  
ماجبولين فقد جشمت نفسك مشقة المحي . إلي ، وقد كتبت على  
وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن اليوم طرقتي لطبيعي عسل  
أثري ، فلهي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحب إلا أن  
أصعدكما ينتظرونا الآن في الكنيسة ، وكانني أراهم ، وقد جلسوا  
في دعليخا صغيراً مثالي ينتظرون إلى الباب يشوق وتلهف يرفيون



حضورنا ، وأرى القسيس يحد لنا وسادتين من القطيفة الزرقة  
لترقع عليهما أمام المذبح ، وكأنني أسمع رائحة الخور متصاعدة  
من الموقد ، وأسمع أصوات التواقيس تفرغ قرعاً متتابعاً ، ثم  
صعد نظره فيها وحسبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ،  
وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتديه ، إنك لا تتصلك  
الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت بجانبه فأخذ  
يغسل منها إكليلاً جليلاً ، وبثاق في تنسيق وتنظيم ، ثم نظر  
إلى الطبيب ، وقد غيل إليه أنه الشيخ سوار فقال : انقضي يا أبناه  
أن أصنع هذا الإكليل على رأس أبتك ، فنظر الطبيب إلى ماجدولين  
فطرة استعطف بألمها فيها أن ترجمه ، وألا تنقص عليه هداية  
الذي يتخيله ، فوضع استيقن الإكليل على رأسها ، وهي واجمة  
صفرها كأنها قد انقضت من كثر وقال لها : أذكرك يا ماجدولين  
يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أننا  
ولمونا إكليلاً مثل هذا الإكليل ففعلنا بذلك غيراً وقتنا : ليس  
يكثير على الأيام أن يصبح جداً ما لمولونا به ، وحقيقة ما حسناه  
خيالاً ؟ فيها قد صدق اليوم فأنا ، وصحت أمالنا وأحلامنا ،  
فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعماته .

ثم نظروا إلى جوزفين وقال لها : إلى أشعر يفتق في صدري  
لا أعلم له سبباً فالفحي هذه النافذة لأستشعر عواء هذا الصباح  
الجليل ، فأنشد بقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي  
ذي الطليعة تهدي إلينا في يوم عرسنا أجمل ذخائرها وأحلامها ،  
وعودها الطليل ، وشمسها الباطنة ، وسامعها الصافية الجميلة ،  
فشكراً لها على يدها عندنا ، وشكراً للذعر الذي أنالني أنسني  
وأطغمني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ، ثم التفت فوضع  
نظره على إدوار لمهش له وابسم في وجهه وقال له : شكراً لك

يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتني  
في منزلي ولولاك خال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارقها في  
جميع أمان حياتها ، فامدده إليّ يدك ولكن أول من يبتني بسعادتي  
من بين أصدقائي فانت أكرمهم عليّ جميعاً ، وأكرمهم عندي ،  
أفذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن  
فيها الآن عيش اليأس والشقاء ، وكنا نتلقى من الورد كتوساً  
تسببنا حلاوتها برارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك  
جلساً إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبتك وجدي  
يها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات  
الغزو والسخرة : إنها قد أنست لي يميناً محرجة ألا يفرق بيني  
وبينها إلا الموت . وإنها لن تحبس بعدها أبداً . وإن هذه السحابة  
الزرقاء التي تراها مثبته في سماء حياتي لا تستطيع أن تثبت طويلاً  
على أشعة الحب الحارة التدفئة ، والحب إله قادر لا يعجزه شأن  
في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرتها شيء ؟ لها أنت ترى أنني  
لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وأن أمانتي وأمانتي لم تكن  
كما كنت تظنها خيالات شاعر ، ولا خواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأجرى يده إليها ليغسلها فلمع أمام  
عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم اللامعي الذي يثاقني في أمسيها  
فاضطرب وصر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بينه يوم  
رآه في يدعا للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حنيقة  
منزلة فترأعت يده وامتدح لونه وانطلق ذلك الشعاع الذي كان  
يلمع في عينيه وارتفع جبينه عرفاً وأخذ صوابه يعود إليه شيئاً  
فشيئاً ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا ... لا ... لا حق  
لي في تعييل يدعا ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندعا ، ثم تناول  
غطاء فأسبه على رأسه وأخذ يكي بكاء شديداً ، ويقول الطبيب :

ليخرجوا مني جميعاً فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم .  
فأمرورفت حيناً ما جندولين بالسروج ومدت يدها إليه كالضاربة  
وهمت بالركوع بجانب سريرها فجلبها إندوار جبلاً شديداً فنبهته  
متأنلة ، خطوة والثالثة ، وهي تقول بينها وبين نفسها « وارضعتك  
لك أيها الناس المسكين » .

وما انقضى النهار حتى ترك إندوار قرية « ولقيخ » ، وسافر  
زوجته إلى « كويلانس » .

(٧١)

## البأس

لبث استيقظ في سرير مرضه شهرين كاملين كالميت فبهما من  
آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابهه ، ثم أبل غليلاً فهاجر  
فراشه وأخذ يرم على وجهه ليله ونهاره ، ينام حيث يجد مضجعا  
ليلاً أو نهاراً ، ويأكل حيث يجد لقمة ، يضاء أو سواد ، لا  
يستقر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسمه أو ثوبه بما  
يصلح شأنهما ، واستبد به الحزن ففقد جسمه ، وطارحت عيناه ،  
واسترسل شعر رأسه وحلته ، وأصمت نظره ووجهه شجواً ، وحزنة  
خديته اصفراراً ، وأصبح آية الشاغلين ، وعبرة القادين والراحمين .

وكان لا يمر بكوخ صديقه « فرتر » إلا انفاقاً ، فإذا مر به  
خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتلقوا به وناشدوه الله والمودة  
أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض  
ساعة حتى يترك الملل فيثور ثورة الوحش المحتاج ويفر من بينهم

واكتفاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزلة الصغير الذي يضاء في  
« جوتج » ويبقى فيه صروح أمائه القاذية وأمانيه الضائعة فيصرف  
وجهه عنه ولا يطبق النظر إليه ، وربما اكتفاً واحداً حين يلعب  
أول شرفة من شرفاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق مني فيه قطعاً لا يقف ولا يترتب  
ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين  
يديه مجتمعا من الناس فيستيقظ من ذهوله ويמוד أذنيه .

ولقد استمر به السير يوماً في بعض غلواته حتى وصل في  
منتصف النهار إلى « كويلانس » فأخذ يرم في شوارعها وطرقاتها ،  
والناس ينظرون إليه وإلى منظره القريب وشعره المشعث القاتم  
ونظراته الحائرة الشديدة ويعجبون لأمره .

وإنه لكانك إذ مررت على القرب من عجلة لمع فيها ضحكاً  
عالياً خيل إليه أنه يعرف نفسه فالتفت فإذا ما جندولين وإندوار  
لمصق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو  
يقول : « ما أتعلمها وأهنا عيشهما ، إنهما يريان سعادتهما على  
ألقاض لقائي » . ثم دحل عن نفسه وغل في ذهنه ساعة فلم يطق  
حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتفاحكون ويتفامزون  
ويشيرون إليه بإشارات المزه والسخرية فرماهم بنظرة شرراء  
وجفت لها قلوبهم وعظا خطوة واسعة إلى الأمام فهاشم منظره  
ونفروا له عن طريقته ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء . ما  
وراءه حتى بلغ ضاحية القدينة فرأى نيراً جارياً على رأس مزرعة  
خضراء يجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار خفيف وجين ، وما الضعف  
ولا الخوف إلا الرضا بحياة كلها الآلام وأقام قراراً من ساعة شدة  
مهما كانت المرء من القصر ، الأوجاع فهي ذابحة ولا رجعة لها  
بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أفتح من جهالة الرجل الذي  
يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على حيلة سريعة عجل نريجه من  
هذه الميات المتقطعة المتداولة ؟

إلى لا أدرى لم يفسد الرجل بثوبه فيزعه ، ويسبح في نظره  
مزله فيهجره ويبرم بصاحبه فيغافره ، ويظل على ظهره حمله  
يلقى به ، فإذا ضاقت به حياته لا يحميها ، ولا يحمي نفسه بالخلاص  
منها ، والحياة إذا بوست كانت آلم للطنس وأقل موثة عليها من  
ثوب ضيق ، أو حمل تقبل .

إننا لا نخاف الانتحار إلا لأننا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما  
هي . حافلة به من الكوارث والحن إلا لأننا جهلاء أحياء ، نطمع  
في غير مطعم ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فنعثا في ذلك كمثل  
لاعب القمار يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خساراً ، فلا يزال  
يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصغر يده من كل شيء .

إننا لم نأت إلى هذا العالم باستحيارنا ، فلم لا نخرج منه متى شئنا ؟  
وإننا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن يبقى فيه بقاء الدم ،  
فلا يسمى سجيناً في الخلاص منه شيئا ، ولعلنا ، أو كقراً بجمعة  
الله وإحسانه ؟

إنها حقوة غداها يشيرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما

قال : « إن كان لصاحب الراية في الحرب حق في إلحاقها على عاتقه  
كان للإنسان حق في قتل نفسه » وجاراه المجتمع الإنساني كله  
على حقونه حله حتى اليوم دون أن يخطر على بال فرد من أفراد  
أن يقول له : إن لصاحب الراية الحق كل الحق في إلحاقها على  
عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أصيب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم  
الله بجانبه وافتروا في تصوير عقبيه ونقشه على المتحرين ، والله  
أعدل وأرحم من أن يظل عبداً من عبده يلبه لا تطيب له معها  
الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط يديها بيدي الدهر ، ولا يبتني  
نفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزيمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة  
التي يشارك فيها الحياة عليها فلم يزال يقلب وجوه الرأي في ذلك  
حتى انتهى إلى صورة أصبحه خيالاً شعرياً ، وهي أن يكتب  
كتاباً إلى ماجدولين يبينها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه  
على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهر ثم يترج  
من أصبحه خاتمة التسويع من شعرها ويضمه على فمه ويضع يده  
عليه ويقلبه بلهفة شديدة ثم يلقى بنفسه في الماء على هذه الحالة .  
فلما أتت ماجدولين وأخرجته من النهر ورأت هذه الصورة المزعزعة  
التي مات عليها أثر في نفسها إخلالاً به ووقاؤه ، وأسفت على  
نفسه أسفاً عظيماً ، وألم يفسد الدم على فمها منه ، فلا يزال  
تذكره طول حياتها وتلب مصرعه ومضيره حتى تلحق به .

وهنا زلت في أدته تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة  
وهي واكية عجلتها مع زوجها ، فطارده ذلك الخيال من رأسه

واستحل في مسراه اضمحلال الأجرة القادرة في آفاق السماء ،  
وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلها في حياتها  
وغدوها ، وضلالية عليها وقسوة لا ياتي ما أقدم عليه من شئونه ،  
فرجا ورد عليها كتابي فأغلقته ثم سمت بخير موتي فتفتت نفس  
الرحمة والدمعة واغتمشت بينها وبين نفسها بانقشاع تلك القيمة  
السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت  
آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر بحياتها ، أو يراى لها  
في مسلك من مسائلها شبح تلك الحياة التي اقرضتها .

ثم أن آنة مؤلمة وقال : «ويل لي من يالس مسكين ! لقد  
استحال علي كل شئ حتى الموت .»

(٧٢)

### السعادة

قال فرتر لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل  
فسار بهما يمشي عباب الماء شفاً : «فه عليك غلباً يا سيدي فذلك  
أمر قد طأت واستبد به من قبله ، وليس لي في قانت حيلة ولا  
لا قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك قلت : إنه غير جميل  
بك في قضاك وأدبك ، ووفور عقلك واكتسائه ، وغزوة نفسك  
وأنتها أن تحبس حياتك كلها على امرأة قد علمت ألا خير لك  
فيها ، وأنها قد خانتك وغدلتك ، وبلغت بك في الشقاء البالغ  
التي لم يبلغها أحد وعلقت قلبك تلك القطعة التجلاء التي لا يبل  
منها جريحاً إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانه وإيها . وأنت تشقى  
الشقاء كله في سبيلها .» بقضى ساعات ليها وبهاها بين ذراعي

زوجها هائلة متعطشة ، غير حافلة بك ولا آسفة عليك ، ولا خائفة  
لك ذمة ولا عهداً ، فأين شرك وإيارك ؟ وأين عزة نفسك وأنتها ؟  
وأين نزعك الذي أعرفه لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن  
المهانة والفضة ؟ الحق أقول لي لا أعرف سهماً أعيب من سهمك ،  
ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضع من حياتك .

لقد صلتك هذه المرأة يا سيدي زهرة حمرك ، فحسبك ذلك  
واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتقع فيه بما أهد الله لك في هذه  
الحياة من لذائذ ومنع لا تنفذ ولا تبلى ، وأطلب السعادة إن أردتها  
بين أحضان الطبيعة وأعطافها ، وفي كل ما يحصل بساط الأرض  
وتظلل فيه السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها  
اليوساء الحزوين فتسبحهم عن صدورهم عن صدورهم ، ودموعهم عن  
مأكبيهم ، وتغلق قلوبهم خبطة وهناء .

أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ،  
والأغراس والأشجار والأوراق والأنهار ، والبحيرات والأنهار ،  
وفي منظر الشمس طامعة وغاربة والسحب مجتمعة ومطرقة ، والطيور  
غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، وأطليها في نهد حديثك  
وتحيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشتبب أشجارها ، وتسبق  
أزهارها ، وفي وقوفك هل تخفاف الأنهار ، وصمودك إلى قسم  
الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إسفلتك  
في مسكون الليل وهبوطه إلى تحرير المياه ، وصغير الرياح ، وحفيف  
الأوراق ، وحرير البساتين ، وثقيق الضفادع ، وأطليها في مودة  
الإخوان وصداقة الأصفياء ، وإسماء المرفوف والتفريج كربة  
المكروب ، والأخذ بيد البائس المكروب ، ففي كل منظر من  
هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف ظاهر



يستغرق النظر ، ويستلهي الفكر ، ويستغرق الشعور ، ويحيي ميت  
الفس والوجدان ، ويملأ فضاء الحياة هناك وروحاً .

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشربوا سعادة الحياة بعمالتكم  
وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا تمن لها ولا قيمة ،  
ولكنكم تجهلون وتعرضون عنها وتظنون ألا وجود لها إلا في  
لحظات النساء ، وبين أمتارهن وأرائكهن فيبدلون في سبيلها  
من فروعكم وآلامكم ، ما لا قبل لكم باحتضارها ، فلا تلبثون  
أن تدبل حياتكم ، وتضوي أجسامكم ، وتطفئ جذوة نفوسكم  
قبل أوانها ، فتصوتوا أصيح مينة وأصعها ، لا أملاً أقدم ولا  
حياة حفظتم .

إنما يشقى في هذا العلم أحد ثلاثة : حامد يتألم لنظر النعم التي  
يسبها الله على عباده ، ونم الله لا تشد ولا تقنى ، وطماع لا  
يسرع إلى غاية من الغايات حتى تنبثق نفسه وراء غاية غيرها  
فلا تقنى مطامعه ، ولا تنتهي متاعه ، ومقترف جريمة من جرائم  
الشرع والتشرف لا يقارقه خياله بحشا حل وأينما صار ، وما  
أنت يا سيدي يراحد من هؤلاء ، فمن أي باب من الأبواب  
يسرب الشقاء إلى قلبك ؟

أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تراهي فيها صور  
الكائنات صليها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك تلك  
السعادة فتنش عنها في أحقاد قلبك ، فذلك الصورة الصغرى  
للعالم الأكبر وما فيه .

النساء جميلة ، والشاعر هو الذي يستطيع أن يتوكل من جعلها ،  
ويشرق بنظره أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي

الثاني ما لا تراه عين ، ولا يفتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله ،  
ويرى في صفحت الرجراجة صور الأمم التي طوامها ، والذئب  
التي جماعها ، والنول التي أبدعها ، وهو ياتي على صورته لا بشيء  
ولا يتبدل . ولا يبل على العصور والأيام .

واقبل موحش ، والشاعر هو الذي يسمع في سكوتة وحوشه  
أبن ليكن وزفرات للتألم ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى  
آفاق السماء ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع التألم ،  
وعيالات السعادة والشقاء القائنة في روق المجنودين والمحلودين .

والشاعر يرى الجمال في كل شيء يتأمله سمعه وبصره حتى  
في الرقرة الدابلة والنبية الخائنة ، والنحلة الطائرة ، والفرشة  
الخائنة ، وفي مدارج السالك ، وأفاجيص القضا ، والنبوي المهتم ،  
والحدث البالي ، والشيخ الحنيف ، والليال الرابع ، وفي القفصعة  
المقاة على شاطئ البحر ، والشودة المنفذة في باطن الصخر ،  
فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تشد ولا تلبى .

أنت كالمطار السجين في قفصه ، فتزق من نفسك هذا السجن  
الذي يحيط بك ، وطرح بيتيك في أرجاء هذا العالم الشيعت القصيع ،  
وتنقل ما شئت في جنباته وأكفاته ، واعتصم بأفكاريك الجميلة  
فوق قسم جهاله ، وروؤوس أشجاره ، وعذقات أنهاره ، فأنت  
لم تحلق للسجن والقيود ، بل للهاتف والتفريد .

فأطرق استيقن ساعدا ، فحبت بها نفسه كل ملهيب ، ثم وضع

(١) المجرد . - صاحب الله في الخط ، والشعر : المردوم .

رأسه وقال : إني أحاول ذلك يا فرتر منذ أيام طوال فلا أستطيعه ، ولو كان لي فيما قضى الله حيلة أسحقت قلبي بقدمي سحفاً ، ثم أسلمت ذواته إلى الرياح الأربع تلعب بها حيث تشاء ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به حين قد أريد لي ، على أني أعامدك منذ الساعة عهداً لا أنيس به إلا نراي بعد اليوم ذاكرة لها ، ولا ياكياً عليها ، أما ما يقسمه القلب من نكل ولوعة فأسأل الله أن يميني عليه ، فقال له فرتر : ذلك كل ما أريده منك ، والله يقول شأنه وبمينك على بقية أمرك .

(٧٣)

#### المسود

الحب قطرة حيث صافية تنزل بالترية الطيبة فتشمر الرحمة والشغفة والبر والمعروف ، وبالترية الخبيثة فتشمر الخلد والغضب والشر والانتقام ، وكان استيفن ، طيب القلب ، طاهر السريرة فاستحالت تلك الآلام التي كانت تتلجج في نفسه إلى وجدان طاهر شريف يشمر بيوئس اليائسين فيرتي لهم ، وفيجعة المتضجعين فيبكي عليهم ، ولقد ولى بعدهم الذي عاهد عليه صديقه فرتر فأمسك عن ذكر ماجدولين والتفكير فيها ، وأخذ نفسه بنسائها ونسيان ماضيها معه فاستقام له بعض الذي أراد وتراجعت آلام نفسه وأحزائها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبه فكسفت فيها ظلم بعد يشمر إلا في البقية بعد القينة ، ولا يذكرها إلا كما يذكر المسيقف حلساً شبيلاً من أحلامه المزعجة ساعة أو بعض ساعة ، ثم يمضي لسيله .

وكان أكبر ما أعانته على عدوته وسكونه أنه أخذ نفسه بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لغة تفوق لغة تلك الآمال والأحلام ، طويع به . ولماً شديداً ، وأصبح لا يسمع بمحكوب قريب منه أو تاء عنه إلا ذهب إليه وأعانه على نكته جهد استطاعته ، ولا بطرق عليه بابه في دعي الليل أو ضحوة النهار طارق حاجة من الحاجات إلا أخذ يده عليها واحتلها في نفسه أو في ماله ، وأخذ أسرة صديقه فرتر أسرة له فعالمها ، ووساها وخلط نفسه بها ، وأصبح أحمأ لكبيرها ، ووالداً لصغيرها ، ووجد في نفسه من الأنس بها والأغنياء بعشرتها ما كان يسمي لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته وأولاده ، وعاد إلى فنه القديم ، فن الموسيقي ، وكانت قد شغله عن تلك الشئون الماضية ، فمعهده نفسه واستحياء واستجد جميع آلامه وأدواته ، فكان إذا جن الليل وخلط بنفسه قام إلى قنارته فغلب بأوتارها أو جلس إلى البيانو فوقع عليه بعض الأحلام القديمة الجديدة ترفيحاً يحيد فيه لإجادة لا جهد له بمثلها من قبل ، فقد صقلت تلك الآلام الماضية التي كابدتها في حياته صفحة نفسه وأثارتها وملأتها شعوراً ووجداناً وسمت بها إلى سماء فوق سمائها الأولى ، فتجلت بملأها وروفتها في نبرات صوته حين ينشتم ، وحركات أنامله حين يوقع ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى منزلة الابتكار ، فوضع ألحاناً جديدة هزينة كانت تنضج من ذلك القلب المصدوح بفجر المياه الصافية من صدوح الأحجار ، فتساب في أقدانه اليائسين والحزوين ، وتغلغل في أعماق قلوبهم حتى تبلغ سويله ما .

وما كان استيفن عالماً من علماء الموسيقي ، ولا حافظاً من كبار حفاظها ، ولا كان نفعيه من الإلام يتواعدها وأمرها أكثر من لعب زملاته ولدائه ، ولكنه كان ذا قلب ، وقلب هو

التيوع الشجاع الذي يقهر به الشر والموسيقى وسائر الفنون  
الأدبية ، وليس أشعر الشعراء أنظمهم لقواعد اللغة وفوائدها ،  
بل أدنهم شعوراً والظنهم حساً ، وليس أفضل اللتين أعلمهم  
بفنون النغم ، وضروب الإيقاع ، بل أنظمهم قلباً وأفعصهم  
قوياً ، وما ملك نواحي المستطين أفئدة الناس وقلوبهم في مواقف  
تمثيلهم ، ولا استبدوا جموع اليائسين من محابرها إلا لأن لهم  
الربا حزبة متضجعة تتأثر بصور الوقائع التي يمثلونها ، فلذا بكروا  
صدفوا في بكائهم وإذا تفجروا تضيضوا بقلوبهم ، ولا يفهم لغة  
القلب غير القلب ، ولا يشعر بسر النفس غير النفس ، ورب  
أنه بسيطة ساذجة يسبحها السامع في جوف القبل من تاكل مكتوب  
تأخذ من نفسه ما لا تأخذ قطعة شعرة بيضة مخلوطة بترائب المعاني  
وبذائع التصورات ، ينظمها شاعر غير بك وبينها ممن غير  
عزود ، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود  
يضي بها المقلدون المحتنون للفرع في القفا الفني ، أما الملهمون  
فما أفتاهم بركة وجنتهم ، ولطف صهم وصفا نفوسهم ،  
وسلامة طابعهم ، عن التمثل والاحتذاء .

(٧٤)

من مابلولين إلى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشترا في «كوبلانس» أكثر مما  
طالت ، وألا يفرق بيني وبينك إلا الموت ، ولكن هكذا أراد  
زوجك أن يطوي بك هذه المرحلة المبدية ، وأن يجرمني أحر  
صديقة كنت لا أجد لذة الحب إلا بجوارها ، ولا أستطيع طعم

الحياة إلا معها ، وأملك عائلة في موطنك الجديد كما كنت مائة  
في «كوبلانس» .

أنا سعيدة والحمد لله ، لا أشكو شيئاً غير قرايكت ، وحرمان  
رويتك ، وإدوار لا يزال ينجني ويترك عند زيجاتي ويفقد جميع  
حراقتي وحاجاتي فله الشكر على ذلك .

لا أحتسبك يا سوزان ألي كنت أشعر في نفسي ببعض الحزن  
على ذلك الفن السكين الذي لقي في سبيل الشتاء العظيم الذي  
تعليبه ، ولقد سررت اليوم سروراً عظيماً حينما علمت من  
أخباره أنه قد نسي ذلك المأزب جميعه غيره وشبهه ، وأنه قد  
عاد إلى رشده وصوابه وترفع عن تلك التصورات الغريبة والخيالات  
السوداء التي كانت تخالط عقله ، وتضرب براحة ومكونة ،  
وأصبح يأنس بالناس ويشعر بلذة المخاطبة والاجتماع ويميل  
في بيته الذي بناه في «جورنيج» عيشة عادتها ساكنة لا يمازجه  
حزن ولا كبر ، بل سمعت عنه ما هو أكثر من ذلك ، وهو  
أنه يشغل بين الموسيقى اشتغالا يستغرق جميع مشاعره وحواطفه ،  
وأنه قد برح فيه براحة غريبة لا يبلغ مثله لها إلا القليل من  
الناس ، ويقول الذين حذقوني حديثه إن شأنه في ذلك الفن سيكون  
شأناً عظيماً ، وربما بلغ فيه بند قليل من الأعمام يبلغ النابيين  
من تراثه وأفكاره ، فعمدته الله على ذلك حمداً كثيراً ، لأنني  
كنت أشعر في أعمالي نفسي بالحزن عليه والثناء له ، بل الثقة  
على الذعر من أجله ، وكان يميل إلى أنه لو مات في سبيله هذه  
لتنص علي عيني ، ولقفت بقية أيام حياتي عزوة النفس ،  
موحنة القلب حتى يواليني أبلي .

انتهي إلى كثيراً يا سوزان ، وحديثي عن كل ما يحبط بك

من الأعياد ، فذلك ما يزيني عن لراثك بعض الزاء .

(٧٥)

من ماجنولين إلى سوزان

أنني إليك مع الأسف والذي فقد مات رحمة الله عليه بعد  
مرض لازمه خمسة أشهر ، وكنت قائمة بشروطه كل هذه المدة  
في « ولفياخ » حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أجد إلى « كويلانس »  
إلا منذ أيام غلائل وهذا ما حال بيني وبين الرد على كتابك التي  
أرسلتها إليّ فسامحني في قصوري وابكي معي ذلك الأب غير  
الرحيم الذي لمحي في حياته فوق ما يجب الأيام أبنائهم ومات  
وهو لا يأسف على فقد شيء في الدنيا سواي ، ولقد كنت أسبح  
فيل اليوم أن الفتاة القاتلة لا تيكلي أباهما وهي متزوجة ، كما  
تيكلي وهي عذراء ، فأرتاب في ذلك ارتياباً كثيراً ، حتى مات  
أبي فبكيت بكاء لا يتيكلي متزوجة ولا عذراء ، لرحمة الله عليه  
وعلى أيامه القدر الحسان ، وعلى نفسه الغيبة الطامرة .

ولقد جزاني عن فقد بعض الزاء أن كثيراً من صواني  
وأصحاب زوجي كتبوا إليّ كتب تزية رفيقة حصلت من نفسي  
بعض مومها وأشجانها ، والذي عجبت له كل العجب وملاً  
نفسى دهنه وجيرة ألي وجدت بين تلك الكتب كتاباً من استبدن  
أرسله إليّ من « جوتج » يزيني فيه أجمل تزية وأرقها ويضج  
فيه حل ألين تضجماً عظيماً وشاعري تلك اللهجة التي لا يخاطب  
بها المرء إلا أكرم أسدقائه عليه ، وأكرم عتده ، فعميت لأمره  
كثيراً وقلت في نفسي إن كان الرجل لا يزال يفسر لي في قلبه

حتى اليوم بقية من ذلك الإجلال القديم بعد الذي كان بيني وبينه ،  
فهو أكرم الناس خلقاً وأشرفهم نفساً وأعلامهم عمة ، على أن  
الذي سرني في عمله هذا أكثر من كل شيء . أنه قد غفر للفتك  
الشيخ المسكين تلك الإساءة التي كان يظن أنه أرسلها إليه فغفري  
لربه طاهر النفس ، بقي الصحيفة ، لا يحمل تبعه ، ولا يجر  
وراءه إنماً .

ألا تصحين معي يا سوزان لهذا الإنسان القريب الذي سما  
عنه بالأسف في عقله ونزول به إلى مرتبة المخاطلين المزويين  
الذي لا يصلحون لشأن من شؤون الحياة ، كيف استجالت حاله  
وهذات ثورة نفسه ، وأصبح رجلاً كريماً مهذباً عادلاً منطبقاً  
طيب السريرة والنفس ، لا يخذ ولا يقطعن ، ولا يأبى أن  
يفخر القالب الذي لا يفخر أجده . وينسى الإساءة التي لا يسامها  
إنسان إلا أعديك يا سوزان تحبني ، ولتلي لمردديك تحبني وتحبة  
بفوار .

(٧٦)

من ماجنولين إلى سوزان

لم تكتفي إليّ يا سوزان منذ ثلاثة أشهر إلا كتاباً واحداً لا  
يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقتضي منك . فإن لم تكتفي  
إليّ لتعزيني وتسرية موم نفسي أكتفي إليّ لأعلم أنك سعيدة  
عانة في موطنك الجديد .

أشعر يا سوزان منذ مات أبي أنني خبيقة القصور شائرة النفس ،



ولا أفرى ما الذي طرأ على إدوار ، فقد تغير بعض التبرير عما كان عليه وأصبح لا ينظر إليّ بالعين التي كان ينظر بها إليّ من قبل ولا أريد أن أقول إنه أبغضني أو يكره لي أو فر عن خلعتي والقيام بشأني ، بل أريد أن أقول إنني أصبحت أرى في عيني تعصراً عني وازدواراً لا عهد لي بها من قبل وصارت أبناسه مزيجاً من الجملة والحب ، وكانت خالصة للحب قبل ذلك ، وأصبحت تتخلل أحاديثه فقرات طويلة موحشة ما كانت تتخللها قبل اليوم ، وكنت لا أقنع به في الحديث ملجأً لمنحسني له أمراً أو استهجه إلا ذهب معي فيه ، فأصبح يستهجن أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يتعمد معارضي ومخادفي ، وصار يأنس بالثرثريين والوافدين ويطلق جلوسه معهم ، ولما كان بينهم أو بين بقائهم أو يستحقه شيء غير الجلوس معي والحديث إليّ ، وكنت لا ألتصم إلى رجل من الرجال إيشامة ود أو جملة أو أتصم معه في حديث إلا وجع لفتك وجعاً يظهر في عيني وفئات لسانه ، فأصبح لا يأبه لشيء من ذلك ولا يفعل به ، والثرثرة دحان الحب ، فإذا انطفأت نوره انقطع دخانه .

لا يحزنك من ذلك شيء يا سوزان ، فربما كنت واحدة أو متخيلة ، وربما كتبت إليك بعد قليل أنني حائرة سعيدة ، وأن هذا النوع لا أثر له في نفسي .

(٧٧)

من سوزان إلى ماجيلولين

لاشك أنك واحدة يا ماجيلولين ، لأن إدوار يخيك حياً

شديداً ، ولا يؤثر على رضاك خرواً من أفراس الحياة ومآزيرها ، وأرى لك أن لا تتغلغل بنفسك هنا لتظن أنك في بواطن الأشياء وأعمالها ، ففقد الحياة خير من مجهودها ، والسعادة كالزهرة لا تزال ناضرة مائعة رائحتها منها بمنظرها وأريجها ، فإذا جاور إلى لونها والحيث بها ذلت وفوت وزعب جمالها ورواؤها وأهديتك بحبي وسلامي .

(٧٨)

من ماجيلولين إلى سوزان

لقد وقع لي منذ أيام أمر غريب لا أجد له بداً من الإفشاء به إليك :

دعيت أنا وإدوار منذ أيام فلاح إلى حفلة أليس قال صاحبها حين دعانا إليها إن الذي سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق له من مهرة الموسيقيين وحظائهم ، فسألناه عن اسمه فأبى إلا أن يباغتنا به مباغتة ، وقال إنه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا أول عهده بالغناء في المجالس العامة ، وغل يثني عليه ثناء عظيم ، ويذهب في تعريفه والإشادة به كل ملعب ، فلم يكن لي هم عندما ذهبت إلى تلك الحفلة إلا رؤية ذلك الموسيقي الماهر واستماع أغانيه وألحانه ، فظلت شائعة إلى كرسى أليانو أنتظر ذلك الذي سيقدم من بين الحاضرين فيجلس عليه حتى رأيت في تخيلنا معهم الوجه تزدحم بين أعطاله غايل كثرة ، والكشف قد مشى إلى ذلك الكرسي حتى جلس عليه بلاقة وظرف فأنشئت فإذا هو «استيفن» وما كنت أعرفه لقد انحنى من وجهه

ذلك الإنسان الأثمت الأخير الخشن الأعضاء والملاصق ، وحل  
علمه إنسان أكثر ظريف متأن هادئ . الحركات جيلر التماثل  
يكاد يحسب الناظر إليه للمرة الأولى جبلاً ، وما هو بحسب  
ولا مستطاع ، ولكنه جمال نفسه قد فاض على جسمه فكساه  
رواقه وبهامة .

ثم بدأ الترفيع فأنشأت ألامه تلعب بأوتار اليانو فكانت كانت  
تلعب بألفنتنا وقلوبنا ، وأخذت يني في أثناء ترفيعه غناء مشجياً  
حزناً خيل إلينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى عالم  
آخر من عوالم الأرواح ، وأن ما نسمعه ليس صوتاً صاعداً  
من عالم الأرض بل صاعداً من أفاق السماء حتى أتى على التفتت  
الأخيرة فلم يملك السامعون أنفسهم أن هرعوا إليه جميعاً وداروا  
به يهتوتة ويترقبونه ويرددون في أحاديثهم أنهم ما سمعوا في  
حياتهم ترفيعاً أفضل من ترفيعه ولا ألحاناً أبديع من ألحانه وهو  
يشكر لهم ثناءهم عليه ولعظامهم به ويستم لهم فيما بين ذلك  
إشادة هادئة غريبة ، لا يعلم الناظر إليها أتكلفة هي أي هي  
إشادات التي لا تنفج عن غير ما شتاء ؟ وكيفما كان الأمر فقد  
خيل لي أني رأيت فيها معنى دقيقاً لا أحسب أن أحداً من الناس  
أدركه سواي ، وهو أنها مصيرتة فضيلة رفيعة من الحزن العميق .

ولقد كادت تحببني نفسي لكثرة ما تأتي من الطرب وخالط  
قلبي من الجلال والسرور أن أذهب إليه أعتد كما يفعل سائر  
الناس ، فلم أستطع حتى أرى رأي إدوار ، فلم ألبث أن رأيت  
بشئ إليه فبعت حتى غناء فبأنه مثله وكنت أتوقع أن أرى على  
وجهه عند رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم  
أر إلا رجفة خفيفة مرّت بشفتيه عندما نظر إلينا ثم عاد إلى إشادته

رابطته وأتت يحدثنا يسكنون وعلموه كأنما هو يضم حديثاً كان  
بيننا وبينه من قبل ، فطلعت أن الرجل قد عا من سجل حياته  
تلك الأحزام التي شقي فيها ، وعما معها ذكرى علاقتنا بيوته  
وشغافه ، وأصبح لا يرى بين يديه إلا امرأة قد منحت في عهد  
من عهود حياتها المائبة ودعا وإخلاصها ولألا رجلاً قد صادقه  
وأحبه وقاسمه بؤسه وشغافه في أيام طفوله وصباه ، ثم لا يزيد  
على ذلك شيئاً ، فلم ينقض الليل حتى ذهب ما كان بيننا وبيننا  
من الوثقة والحناء ، ودعينا معه في الحديث مذهب غليظة  
ووعده إدوار أن يزوره في منزله في عهد قريب ، ثم التفتنا .

(٧٩)

من ماجدولين إلى سوزان

لا أزال يا سوزان حبيبة الصغر ، كثيرة الملم ، ولا يزال  
إدوار قريباً مني بحنائيه واحتمائه ، يبعث عليّ خطبه وحواطفه ،  
فقد ملأ فراغ قلبه بشؤون مختلفة لا أعرفها ولا آبه لشيء منها ،  
ولم يترك فيه قلب إلا زاوية صغيرة محدودة لا تسع ولا تنقبض ،  
ولا تجد الحواطف لنفسها فيها مجالاً ، فهو يحسني حباً هادئاً طائراً  
ربما لا يزيد عن محبة لحيوه وحجلاته ، وقصوره وبساتينه ،  
وأحب لو أنه أراد أن يزيد على ذلك شيئاً لما استطاع ، لأن  
نفسه ليست تلك القنص الشعرية اللائلة التي تدب في الحب  
كل ملعب ، وتطير في سماء كل مطار ، ولأنه لا يفهم من  
الحب أكثر من ذلك الشيء المادي البسيط الذي يفهمه الحيوان  
الأعجم ، بل لا يترك من شؤون الحياة جميعها غير ما يقع تحت  
حواضه ومشاعره .

## الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجندولين فيما قالت ، فقد ملها إدوار بما  
عاش من اثنين من زواجه منها وبرم بها وانتهى أمره بها بما ينبغي  
به كل زوج تعتده يد الشهوة ، ولقد مل منها أكثر من كل  
شيء . تلك الوحشة التي كانت مائدة حلل نفسها ، وذلك السكون  
للخيم على حواطيقها ومشاعرها ودعائها في تصوراتها وآرائها  
ملعب الخيال الشعري الذي لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتزم  
مع طبيعة نفسه ومزاجها فقد كانت قلباً مادية شاحكة  
ونفسها قلباً روحية مكتبة ، وقد تكلف كل منهما الخروج  
عن طبعه بركة من الزمان لغرض طاريء من أغراض الحياة ،  
لفرضها من طبعها تلك اللائحة شاطئ الذي يبر عينها عند  
انتقالها من القرية إلى المدينة وتلك الضغوط النفسية التي أحاطت  
بأفئتها وحالت بينها وبين سماع صوت قلبها ، وأخبره عن  
طبعه أنه أحبها والفتن بها ، وكان لا يد له من أن يقع من نفسها ،  
ويترك عند رغبتها ، فيجمل لها في أحداث ومنازعه ، وتصورات  
وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند تعطينها حتى  
اتصال بركة الزواج فأخذوا يترابسان شيئاً فشيئاً إلى طبيعتهما وسجينتهما ،  
ويلعبان في الحياة ملعبهما الذي نظرا عليه ، فتأفرا وتذكرا ،  
واسترحش كل منهما من صاحبه ، ولقد يكون إدوار خير  
الأرواح لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس .

ولقد تكون ماجندولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلاً  
مثل استيفان شعري الطبيعة ، وما صدقت سوزان ماجندولين في

والآن أستطيع أن أعترف لك يا صديقتي بأنني ما شعرت في  
يوم من أيام حياتي معه على حيي إياه وإعجابي به بأن نفسي عاظمت  
نفسه ، أو لاستها أو امتزجت بها ذلك الامتزاج الذي يحل  
النفسين المختطين لل نفس واحدة ، بل كنت أرى دائماً أنه  
ولأن كان يحسني ويسهم في ذيلك لي من ذات نفسه وذات يده  
كل ما يستطيع أن يملكه زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يشغل  
في قلبي نازك الحب الشعري للجسم الذي لا تقع المرأة من  
الرجل بدونه ولا تأنس منه بشيء سواء ، ولما الحب إن لم  
يتبعها متبعها بالتأريث والتلجيج فترت وانقطعت واستحالت  
جلوتها إلى رمل ، والحب كالطائر لا حياة له إلا في الفتور والرواح ،  
والفتريد والتغير ، فإذا طال سجنه في قفس القلب تضعضع  
ونهاك ، وأحس رأسه يائساً ، ثم قضى .

وأعظم ما أشكو من المصوم في حياتي معه أنني أصبحت  
أشعر منذ أيام طوالت أنني أعيش في عزلة متقطعة عن العالم كله  
لا أأنس لي فيها ولا سبر ، فإذا سر بخاطري فكر من الأفكار  
أو احتلج في نفسي غرض من الأغراض ، أو علق قلبي حقة  
سرور أو حزن أو ارتياح أو القياض ، لا أستطيع أن أنفي  
أية شيء من ذلك خلافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد  
فيزدريه ويذريه من أجله ، ويوسخي حزماً وسفوية فلا أجد  
لي بدءاً من أن أنكسه في نفسي ، وأطويه بين أصابعي .

ألا ترى بعد هذا يا سوزان أنني في أشد الحاجة إليك ، وإن  
يتألق بجالي ، فتأخذي بيدي في ظلمات حياتي وتحملي عني  
بعض مومي وأشجالي : فهل يفكر لي أنه أن أراك بين يدي  
في عهد قريب ؟

تزين هذا الزواج لها وإعرائها به ، ولا أرادت بها في ذلك سوما ،  
لأنها لم تر لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق  
التي سلكت مظهرها في حياتها .

والهفوة التي يبعثها الرجال والنساء جميعاً في مسألة الزواج  
أنهم يتأملون عن كل شيء من جمال أو مال ، أو خلق أو  
ذكاء أو علم أو عقل أو عفة أو أدب ويظنون للنظر في ملامك  
هذه الأشياء جميعها وزماتها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ،  
فالنفس نفسان : مادية تفقد عند مظاهر الحياة ومرايتها ، وروحية  
تستغل في أعماقها وأطوارها ، وأصحاب النفس الأولى هم أولئك  
الجامدون القليلون الذين يدورون في الحياة حول محور أنفسهم ،  
ولا يفكرون بشيء فيها إلا بما يشغل بطلانهم أو شهواتهم والذين  
إذا شعقوا بشيء شعقوا باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم ،  
وإذا أعجبوا ينظرون من الناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفعة  
لا من حيث بهائه ورواقه ، وإذا وقعوا أمام تصور باذخ جميل  
شغلهم النظر في غلته وثمرته عن الشعور بحاله وعظمته ، وإذا  
أشرفوا على الطبيعة خافت صمودهم بمنظر غياضها ورياشها  
وأجسامها وأحراشها واستوحشوا منها وحشة الناظر في فلاة جرداء  
أو الخائم في مغارة جوفاء ، وإذا صادفوا الناس صادفهم على  
المنفعة أو الشهوة ، أو عادوهم فيها ، يفحصون والعلم  
يساك ، ويهرسون والدينا في ماتم ، ولا يبالون أهلك الناس  
أم بقوا ، ما ذلوا ياقين ، وسعدوا أم شعقوا ماداموا سعداء  
مقبولين ، وأصحاب النفس الثانية : هم أصحاب الملكات الشعرية  
الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت كالمرآة المنجولة فيترامى فيها  
العالم بما فيه من خير وشر ، ففرحوا بخيره وحزنوا بشره ورفت  
أفئدتهم ، فتمحروا بالأم التالين فآلموا معهم ، ويكناه الياكين

يكوا عليهم ، وشقت أرواحهم فظلموا بأجنتهم في آفاق  
السعاد وحققوا في أجوائها فأشرفوا على الطبيعة ، ورأوا في  
جميع مظاهرها ومرايتها ، فوجدوا في رؤيتها من القلة والبقعة  
ما زاحم في قلوبهم حب المال والشهوات ، فاعتقلوا في مطامعهم ،  
وترققوا في مسامعهم ، وازددوا كسل للذة في الحياة غير للذة  
الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال .

ولا تلتم النفس المادية بالنفس الروحية بخال من الأحوال ،  
ولا تأنس بها ، ولا تجد للذة العيش معها ، وليس الذي يفرق  
بين الصالحين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما في الذكاء  
أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ، فكثيراً ما تصادق المخطئون  
في هذه الصفات ، وتجادوا وصفت كناس المودة بينهم ، وإنما  
الذي يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ، وذهاب كل منهما  
في متازعه ومشايبه ورغباته وآماله وتصوراته وآرائه غير ملغى  
صلبه ، وأن يكون أحدهما مادياً ضاحكاً للحياة سعيداً بضحكه ،  
والآخر روحياً باكياً عليها سعيداً ببكائه ، وهذا هو الذي كان  
بين إدوار وماجنولين .

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجنولين ، بل كان  
أفلاها شائاً وأذناها قيمة ، ولكن إدوار لم يستطع أن يفهم شيئاً  
غيره أو يعني بأمر سواه ، فما هو إلا أن حصل في يده واستغنى  
منته به حتى بدأ الملل يذب في نفسه ذيباً خفياً ، فلم تشعر  
به ماجنولين في هذا الأمر ، ثم انحلت تحسه شيئاً فشيئاً ، فذهرت  
وارتاحت ، وملأ الرب ما بين جوانحها ، وما هي إلا أيام  
قليل حتى انحلت تشق عن عينها تلك النياحة عن صورة  
الرجل الذي تعاشره وتزعج أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ،



ولا ترونها ، ولا تخالف نفسها ، ولا تخرجها ، وعادت إلى  
 ما فيها به ، فأخذت تقرأ صفحته صفحة مفتحة حتى أتت  
 على آخرها ، فبين ما أنها لم تكن تحب ، أو أنها كانت تحب في  
 شيء غير نفسه ، وأن قصة التي بينها وبينه إنما هي صلة الزوجة  
 بالزوج ، لا صلة القلب بالقلب ، فمرت أنها لم تحسن الاختيار  
 لنفسها ، وأن شقاء طويلاً ينتظرها فيما بقي لها من أيام حياتها .

(٨١)

من سوزان إلى ماجدولين

أراك تحدثيني في حبك كثيراً من استيقظ ، كأنك قد نسيت  
 أنه أصبح رجلاً طويلاً منك لا شأن لك به ، وأن ما كان يتكلم  
 قد انقضى وذهب ليله ، وأغرب من ذلك أنك تكئين حذو  
 بلهجة الفضل من اللهجة التي تكئين بها عن زوجك ، ولعاف  
 أن يكون لالتقاء بك في تلك اللحظة التي قصصت علي قصتها  
 صلة بهذا الأكم الجديد الذي أصبحت تسمين به اليوم ، فما  
 عهدتك قبل الآن بأكية ، ولا شاكبة ، ولا نقمة من زوجك  
 شأناً من شؤونك ، ولا متبرمة بشركه ، ولا غيفة الصدر بأطواره  
 ولعلائه ، ولا طائر في سماء الليالي إليك ونهارك تفتشين عن  
 دليل الشرعي وتطسبه لنفس من لا يرى لفضله غناء عنه ،  
 ولا يعرف معنى الحياة بقوته ، فخلعي حذرك من نفسك يا  
 ماجدولين ، واعلمي أن ما كان يعتد بالأفس حفرة من المفوات  
 الصغيرة يصبح اليوم جحرًا مطلقاً لا بمالكه جثرون ، ولا يرحسك  
 شيء ما أقوالك ، فإنا لا نهمك ، ولا أرتاب بك . وأنت

أعلم بذلك ، ولكنني أختبئ عليك أن يلاحقني مكان واحد من  
 قلبك ذكرى ما بينك ، وبعاء حاضرك ، فيمنعها ، فينفض  
 عليك أولها ثانيهما ، فلا الماضي تتركين ، ولا بالحاضر تسعين .  
 هذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تصهنيه  
 من نفسك وتقول حرامته من قلبك أن يأتي يوم لا ينطق فيه  
 تعهد ، ولا اتفاق .

(٨٢)

من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيقظ بهذا المم الذي أشعر به ، وليس ينبغي وبين  
 أكثر مما يكون بين صديقين أحسن أحدهما في سبيل الآخر  
 في عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطيع احتشاده من الثقة  
 والمؤونة ، فصرف له الآخر يده ، وشكرها له وجزاءه ودأ بود ،  
 ومبروقاً معروف .

لما هذا الذي تريد أن تدعي إليه في كتابك فاقسم لك أني  
 لا أعرف له أثراً في نفسي ، ولا أحب أن له أثراً في نفسه ،  
 فقد رأيت في تلك الليلة التي قصصت عليك قصتها ، ثم رأيت  
 بعد ذلك مرتين ، فلم أرى في نظرات عينيه ، ولا ملامح وجهه ،  
 ولا نقمة في حديثه أثراً من تلك الحب القديم الذي تعرفينه ،  
 وكل ما يستطيع الظاهر إليه أن يفسحه في وجه تلك المسحة الرقيقة  
 من العز التي تراهي في عينيه حين ينظر . وفي ابتسامته حين  
 يسم وما هو بخير ولا مكث ، ولكنها صورة الأكم القديم

قد رسمها الماضي على وجهه ثم ذهب ليبحث في من بعده دليلاً عليه كما تبقى صورة المرح بعد الشاه ، فالتفتي يا سوزان ولكن رأيتك في اليوم وأنت بالأمس ، ولا يتم هذا الجهد الذي بيني وبينك حجباً بين نفسي ونفست .

( ٨٣ )

قلب استيقظ

به ذكر استلن ، وعظم شأنه ، وأصبح قابضة من لواعج التوسفين ، وانتشر له عيت بعد في جوتج وما يليها من البلدان ، ثم امتد حيه إلى كويلانس ، فزاره في قرية كثير من المئين والمبشرين . وأقرحوا عليه تجميع القطع الثمينة ، وأجزلوا له الأجر عليها ، فاجتمعوا أفضل تجميع وأبرعه ودرت عليه اختلاف الرزق ، وسأل وأديه بالذهب سيلاً ، وكان أبوه قد مات وورثته تلك الصياغة من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كويلانس يقضي فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة لئلا في يته وزاره فيه أسدقائه وخلاته ، والمحبوبين بقضته ، والمعتزون بصناعته وأياديه

ولقد وجد في تلك الخطة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض الغرأ مما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيراً ما كان يخلو بنفسه في هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع الآام وعنونه الماضية فيذكر الثيلة التي خرج فيها من كويلانس شريد طريداً لا يجد مواسياً ولا معيماً ، والثيلة التي ذهب فيها إلى عرس سوزان لزوجة ماجندولين فصره أحد الزائرين على وجهه سوطاً

فأدماه ، والثيلة التي كانت فيها الأعرال العظيم في غرفة قريبة ليلة وفات حتى أشرف على الجنون ، والثيلة التي أقصاها طريفاً تحت سلم دار ماجندولين حتى الصباح وهي غالية بزوجها في غرفة عرسها لثالثه وتقبله وتقول له : « أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها » ويترامى له مرة شيخ أخيه « أوجين » وهو ساقط في حومة الوعي تحت ستايك الخليل تنومه وتحوض في أحشائه ، وأخرى منظر ماجندولين وهي جالسة مع إيدوار على مقعد حديقتهما تناجيه بالحب وناجيتها ، إلى ما يبقى من أيام يومه ، وإياها شفاته ، ثم تستل أمام عينيه وروضة أماله وهي موزقة خضراء يتسلل مأوها ويتفرق خواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها ربيع المخاوت فصوح ليتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى قفرة جرداء لا يترنح فيها قصص ، ولا يهتف بها طير ، فيخول إليه أنه يعيش وحده منقطعاً عن العالم كله ما فيه ، لأن ماجندولين ليست بمجايدة ، وأن ما يتبع به من مجد ومال لا قيمة له عنه لأنها لا تقاسمه إياه ، وأن هذه الأملان التي يضعها والأحمرات التي يفتها إنما هي مآثم يفتنه على نفسه وعلى كماله القليلة ، وأمايه الضائعة ، فتسله نفسه غماً وحسرة فلا يجد له سبيلاً سوى أن يتناول قيثارته فيضعها إلى صدره ويثبها حموم قلبه وآلام فؤاده ويكفي ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة في نفسه فيأري إلى غراشه وبنام توماً طويلاً ثم يستيقظ بارئاً مستظيلاً .

ولم يزل هذا شأنه حتى انتهى ماجندولين في تلك الليلة التي قصت هي قصتها على سوزان فالتفت بمرآها اغتياباً غزوباً ببعض الأكم لذكرها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه لم يجد واستسك وكانت نفسه قصتها فلم تشر بشيء مما دار في نفسه حتى انصرفت .

وما هي إلا أيام غلائل حتى زاوه إندوار في نيتة كما وعدته  
واعطى إليه من أفضله التي فعلها معه فقبل عظمه قبول من لا  
يرى من قبوله بدءاً بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضي  
وشوئونه أن حبه لاجدولين لم يكن إلا خدعة النفس وزرعة طائفة  
من زرعات الشباب ، وأنه قد بدأ يمل باجدولين ويأجسها فلم  
يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ، وأصبح  
ولا هم له إلا أن يحدد صداقته مع رجل قد أصبح من أصحاب  
الثأن العظيم والمظهر الضخم ، والثروة الطائلة ، فصدق في زعمه  
وسكن إليه وذهب في عيادته والودود له ككل ملعب ، ثم رد له  
استيفان الزيادة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها  
ونيط معها نيط من لا يحفل بحاضرها ، ولا يني ماضيها ،  
ثم لم يزل يراها بعد ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في المحفلات  
الجميلة ، وحدها ، أو مع إندوار فيحسن متفاتها ، ويوترها بطلقة  
ورعايته ، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلساً مفرداً  
أو يتحدث إليها حديثاً خاصاً لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها  
ونسيان ماضيها ، فلا يجب أن يستثير ذلك ، ولأنه كان لا يزال  
يمسك في نفسه بعض الحب عليها في خلدتها به فلا يجب أن ترى  
ذلك في نفسة حليته ، أو لحظات حبه ، أفنة وكبرياء ودعائها  
بنفسه ملعب من لا يبالى بمن لم تبال به ، ولم تزع له فنعماً ولا  
جهداً .

وجملة حاله معها أنه كان يصبح لما في قلبه في آن واحد بين  
عاطفتين مختلفتين عاطفة الرضا ، وعاطفة القسطنط ، فهو يحبها  
لا يستطيع مقاطعتها ويحب عليها فلا يريد أن تشر بحبسه  
زيادها .

قلب ماجدولين

ما زال الظل يأخذ من نفس إندوار حتى مل بيته واجتواه ،  
وأثأ يطلبه لنفسه السادة خارجة بعدما قدحها داخله ، فأخذ  
يتلمى بتلك الشوون التي يمالج بها فقراء القلوب أمراض ملهم  
وسأمتهم ، فقام ثم غارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض  
لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجدولين ، وقال منها  
مثلاً عظيماً ، وساء ظننها بالحياة وما فيها ، ففصح في نظرها كل  
مظهر من المظاهر المادية التي أحببتها حينها من الزمان واستهانت  
بها ضاعت المراقص والمخاطف وزعمت المظاهر والقاهر ، وملت  
كل شيء حتى ثيابها وزينتها ، وأصبحت لا تفكر ليلاً ونهارها  
إلا في الكلمة التي قلما استيفان في بعض كتبه الماضية ، لا تصدقني  
يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب ، لأن ضلعت  
قريب لك منك فذلك قد حكمت على قلبك بالموت .

إلا أنها راحت نفسها مع الأيام على مكرونها ، واسطورت  
لحالة التي طرأت عليها مبرراً جليلاً لا يتخلله ندم ولا شكوى  
لقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وأنها قد  
أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله بخين المحبة  
والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له . والإخلاص إليه ، واحتمال  
كل مكروه في عشرته حتى يقضي الله في أمرها بقضائه .

وكان يعزبها عن شقاها بعض الغراء أنها كانت ترى استيفان  
من حين إلى حين ، وتقتصر بعض مجالسه وجمعاته لتسمع في

خفيت تلك الأسلوب الشعري البقيع ، وتلك التصورات السائبة  
الغالية التي طالت سحرها وملكت عليها قلبها وأمواعها ، وترى  
تلك الشهرة المظلمة التي تنتشر كشيء غريب في أقطار البلاد  
تحتل نفسها إكباراً ، وإغظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من  
الرجل مثل الشهرة وامتناد العيب ، وكان يدخلها شيء من  
إعجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود  
حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ،  
تجد في سعادة الماضي وذكراء بعض الغراء من شقاء الحاضر .

إلا أن المرأة واحداً لم يحضر بلداً ، ولم يدخل في أحداث  
نفسها وغير أن تعود إلى حب بعيد ما تلفت بينها منه ، أو أن  
تكون العلة التي بينها وبينه صلب حب وغرام .

(٨٥)

من ماجنولين إلى سوزان

قد اطمت منذ أيام غلاغل حل سر عائلتي لم تطلع عليه  
ولبني مت قبل أن أموت منه حزناً واحداً .

قد أظن إدوار وباع جميع ما يملك ولا تزال عليه بقية من  
قدي لا سبل له إلى أدائها ، وخافنا أحد عائلتي ليح جوامعي  
وحلائي علي أستطيع أن أستغل البيت الذي نسكنه ، ولا أهدري  
ما يكون ثباتاً بيني وبينك ، ولقد نأمت ليلة أمس في حلة ثقان  
غراوتي قليلاً ثم اعترفت لي بكل شيء وقال : إنه إما أني من  
قبل المقامرة أولاً ، والمضاربة آخراً ، وأن طمعة في الثروة

واستهنأ به هو الذي أنقذ زواجاً ، خيائيه في ذلك حثاً لا أقل  
أني أنقذت عليه ، ولكن ألتزم يا سوزان ماذا قال لي ؟ قال :  
إنه لم يحضر في حياته إلا في أمر واحد ، وهو أنه تزوج من  
زوجة فقيرة لا يستطيع أن يمد له يد المعونة في مناعات شدته  
ولقد خلق ليها قال : ليس لرجل قسبي أو يتزوج إلا امرأة  
غنية فلازم نفسه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تتزوج إلا  
رجلاً فقيراً يشابهه عيشه عيشها .

إني لا أيكفي يا سوزان على نفسي ، فقد نصبت أكثر أيام  
حياتي فقيرة معدمة لا أملك من منافع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك  
الجنين المسكين الذي يخلق في أعشائي والذي سأله غداً تقطر  
والقربة والذل والثناء .

لقد أصبحت لا أسأل أحد إلا عربة عاجلة تلعب بي وبدي  
وترمي وتزج من شقاء الحياة وعنائها ، وقبول لي وله إن  
عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

(٨٦)

الخرفسة الخروقاء

مرض إدوار على أثر تلك التكية التي نزلت به مرضه شديدة  
كلمات قلت ليها نفسه ، ثم أبى بعض الإبلال فالفرج عليه  
استيقظ - وكان قد لازمه عدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة في  
تكيته - أن يسافر معه إلى «جوتنج» ليخرج قليلاً بما به ، فقبل  
وبالفرح معهما ماجنولين حتى بلغت بهم العجلة صاحبة القرية ،



فاستقبلهم ، فرترز ، وزوجه وأولاده على غطف النهر فرحين  
مستبطين ، وكانوا على موعد منهم ، لمصالح استيفن فرترز وعاقبه  
معاينة الصديق لصديقه ، وقبل حين جوزفين ، وعزم الأولاد  
إليه وأنشأ يقبلهم ويدير لهم عديده فيقبلونه ويقولون له ويقولون :  
لقد طال غيابك عنا في هذه المرة يا سيدي حتى ظننا أنك قد  
كثرت الإقامة في « كويلانس » على الإقامة بيتنا ، وقال أكبرهم  
وكان في الثالثة عشرة من عمره - : « حانئاً ليس لرداء الجديد  
الذي أركسته إليّ فشكراً لك يا سيدي ، سأله : هل أصبح  
يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعدة ولا معين ؟ قال :  
نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال :  
سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، وقال أوسطهم وكان في  
الثامنة من عمره : لقد بل حلفائي يا سيدي فهل جئني بخلاء  
جديد ؟ قال : نعم لقد جئكم جميعاً بأحدية جميلة ، - وقبعات  
لساحرة .

فرح الأولاد وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأهمهم يمسكون  
في أيديهم هذا الناب الجديد ، ونشبت برذاته الطفلة الصغيرة وقالت  
له : لقد ولدت الشاة التي أهديتها إليّ صغيراً أبيض اللون أسود  
العينين فقال لهم أريدك إياه ، فبسم وضعا إليه وقال لها :  
سأذهب معك يا فتكويرين مما قبل ، ثم انضت إلى ماجدولين  
وقال لها : إنهم يحبوني كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنني  
أعيش في أسرتي بين أهل ونحومي ، فارتدت ماجدولين وأصغر  
وجهاً وظلت تقول في نفسها : « لقد أصبح سعيداً بنفسه ،  
وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بلوني ، ثم وكبروا  
الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصبح استيفن  
ما ألتا يا سيدي أنشر الشراع وحدي بلا مساعدة ولا معين ،

فيقول له : أحسنت يا بني أحسنت ! حتى عبروا النهر إلى الضفة  
الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جميعاً على  
أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كتب منهم ، فقدم فرترز وكان  
معه مفتاح الباب ففتحهم ، فدخلوا الحديقة ووقع نظره ماجدولين  
على حائط السور فرأىها مكتوبة بفلاطة بنبهة من أزهار البنفسج  
تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي كتبه  
إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها إلى إدوار ، وقال  
لها فيه : إنه قد كما سور البيت الذي ابتناه لما في جونتج بأزهار  
البنفسج التي تحبها ، ثم انضت فرأت حوض الماء اللقاص في وسط  
الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في  
كتابه إنه قد أقامه حوله شوقاً على أولادها من السقوط ثم سحت  
في زاوية من زوايا الحديقة كرمياً طويلاً موكلاً من مقعدين متقابلين ،  
وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فسميت من احتفائه  
بهذه الآثار التي تركه وتذكره بشقائه الماضي ، ثم قالت في نفسها :  
ما أحب أنه تعمد إقامتها والمحافظة عليها ولكنه تركها برشائها  
فثبتت في مكانها على حالها .

وعنا سمعت تلك التضاضة التي يشر بها الدليل في موقف  
ذله ومهاته ، وظلت تقول في نفسها : إنه ما عفا عنها ، ولا  
غفر لها سيئها عنه ، ولا أمسك عن عتابها وتأنبها ، ولا أعطاه  
من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحضرها ويحضرها ،  
ويراها أصغر في عينيه من أن يأخذها بتدب ، أو يعتد عليها  
بشيء ، وإن هذه النظرة العلية التي أصبح ينظر بها إليها إنما هي  
نظرة العزيز المرتفع التي يلقاها على البائس الشقي الذي يستحق  
عطفه ورحمته ، فأجله من نفسها هذا الحاضر مأخذاً شديداً ،  
وأحزناً وملاً قلبها غصة وألماً أنها قد فقدت كل ما كان

لما في قلبه حتى تنزلة الاحترام.

وكان استيقظ قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة طرفاً  
أصعباً لسانه وجلسه ونزول شيفاته وترك القزل جميعه لا  
بطرقه ولا يودي إليه طلياً لثمة نفسه من الآم الذي يرى وعصمته .  
فأخذ لإدوار ثمة منها ذهب به إليها سابعة وصوبه . وكان  
إدوار يشكو بقية من الآم في جسده فما أخذ مضجعه من فراشه  
حتى استغرق في نومه وأقبل الليل لمادت أسرة فرز إلى بيتها  
وبلأ يثاني الحديقة إلى غنمه وبقي استيقظ وحده مع ماجبولين  
وهي المرة الأولى التي جلس إليها متفرقاً منذ أن المرقاة فعدت  
إلى فذته تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في سائيه لعداته  
وعنائه . وقال يقول في نفسه : ما هو ليث وما هي الحديقة ،  
وما هو ليث والشجر ، والليل والقمير ، والسما- العافية والأشعة  
المزترقة ، والسم الليل ، والسكون السائد ، وما هو حوض  
المان تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وما هي ماجبولين  
جالية ليس بيني وبينها حائل ولكني لا أستطيع أن أمد يدي  
إليها . بل لا أستطيع أن أمد نظري منها لأن بيني وبينها حل  
شده هذا القرب بعد ما بيني وبين ذلك النجم الثاني في أفق  
السماء .

وظل مستغرقاً في خياله هذا ، حتى فاجتبه ماجبولين الحديث  
وقالت له : ما أجل فارك يا استيقظ وما أبلغ متفرقاً ، إنها  
تجعل ما كنت أرفع ، لتخيل إليه أنها تزدأ به وتستهين بالآلام  
ولا تبال أن تذكره بها ، فباضله ما لم يملك نفسه معه وقال لها :  
إنه من حبش في عصر جميل فخم كقصرك الذي نبشئ فيه في  
كبريات لا بدأ بمنزل صغير كهذا المنزل . فتمرت أنه يتركها

ويخرج ما يملك الإساءة التي أسلفتها إليه فيما مضى فتأثت في  
نفسها ألا مزدوجاً يضرب القطة والارتياح ، لأنها علمت أنه لا يزال  
يفكر فيها ، ولا يزال يقصر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ،  
وأرادت أن تنقل إلى أحضان نفسه ففأثت له : حيثما تبدد المرء  
سعادته في مكان بعيد حشر شاك فهو أجمل القصور وأفضلها .  
فقط إليها نظرة متكررة كاذ يقول لها فيها إنه ليس سعيداً ،  
وإنه أشقى الإنسان على وجه الأرض ، ثم استردعا سرخاً ، فلم  
تشر بها وظل صامتاً .

لمعت معه في الحديث مذاهب أخرى ، حتى مضت قطعة  
من الليل فتبعته من مكانها . ونفس بهوضها ، وتحميا  
قليلاً في انحاء الحديقة حتى مرأ يسلم القطة العليا فقالت له :  
هل تأذن لي يا استيقظ أن أصعد إلى هذه القطة لأراها ، وهل  
تفضل بالعود معي إليها ؟ فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك  
ما شئت يا سيبتي ، وصعد معها تلك السلم الذي لم تطأه نفسه  
منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، لمشي إلى الفرفة الأولى  
وفتح بابها وقال لها : تعالي الفرفة التي كنت أهدنها لجلوسي  
وفراشي ، ولا جبهة لي بها الآن ، فقد انحلت من بين حرف  
الحديقة بدلاً منها ، ثم تركها وفتح باب الفرفة الثانية وقال :  
وهذه الفرفة التي كنت أهدنها لتمام أليك رحمة الله عليه أيام  
كنت أظن أنه سيأكلني في هذا المنزل ويعيش معي فيه . فمات  
فربما بعيداً وأنا حسناً وأصم زهر ووريمان قد يست وجف  
وزعمها وتال في انحاء الفرفة ، لغشزت بالقباض في نفسها لتذكر  
أيها ، والمروفت حينها بالدموع . ثم انقل إلى الفرفة الثالثة  
وبعد به إلى مفتاحها ثم استردعا وقال بصوت خافت متهدج :  
طوباً ماجبولين لأنني لا أستطيع أن أفصح هذه الفرفة لأنها

الفرقة التي كانت معلة لأخي أوجين ، وقد آليت حل نفسي  
أن لا افتح بابها ما حيت ، فآثر في نفسها منظره ، وأكبر  
حزنه وألمه ، وقالت له : احزن أنت حتى اليوم على أوجين  
يا استيفز ؟ قال : نعم حزناً لا يقدري حتى الموت ، ثم مشى  
إلى الفرقة الكبيرة ومد يده إلى مفتاحها يهده ويسكون ففتحتها  
ثم انخرط عنها قليلاً وأشرق برأسه ولم يقل شيئاً ، فأثقت عليها  
ماجدولين نظرة ألست بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة رحيمة  
قد دهنت جدرانها باللون الأزرق ، وبسط في أرضها بساط  
أزرق ، وأقيم في أحد أركانها سرير من الخشب الأبيض منطى  
بملامة حربية زرقاء ، ورأت منضدة جميلة قد صبغت عليها  
أدوات زينة النساء ، وخزانة للملابس ، ومرتبة كبيرة وكرسي  
طويل ، فاحسنتين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها زرقاء اللون ،  
وقد عليها جميعها طيقة رفيعة من القبار ، فعلمت أنها أمام الفرقة  
للزرقاء التي سادت بها في بعض وسائله الماضية وقال لها إنه  
قد أعدها جدياً لزوجها ، وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لون  
البنتسج الذي تحبه ، فآثرت في نفسها تلك الذكرى القديمة ،  
ومشت ما بين قمة رأسها وأعضاء قدمها رجعة شديدة كانت  
تزال لها أعضاؤها ، واشتد خفق قلبها واضطرابه ، ثم نظرت  
إليه فإذا هو مطرق صامت ، وإذا مزمعه لتحلو حل خديه  
ينح بعضهما بعضاً ، فهالها منظره ، وازدحمت الدموع في عينها  
تبادر إلى السقوط ، فأعذبت يده بين يديها وقالت له : ما بك  
يا استيفز ؟ وكأنها قد راحه أن يفسح الصبح سره الذي كان  
يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذبت يده من يدها يرفق وقال لها :  
لقد هاجني ذكر أخي أوجين ، وأشار إليها بالزول ، فزلا  
حتى وسلا إلى مكانهما الأول من الحقيقة ، فقالت له : رفه

عليك قليلاً يا صديقي فليس فيها قضى الله حيلة ، ولا لغات  
مرد ، وقد مات أخوك عينة كريمة لم يمنها أحد قبله ، فليكن  
عبرك عليه كريمة كسبته ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إنني  
أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياتي الماضية ، ولا أستطيع  
أن أنسى تلك الأيام التي لعبت فيها وألحيت ، وأخلعت له فيها  
وأخلص لي ، ولقد جمعت بيني وبينه المصائب على كذا طفلين  
صغيرين ، وأثقت ما بين قلبنا الكثيرين حتى أصبحنا قلباً واحداً ،  
يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام  
عيني حتى الساعة تلك الأيام التي قضيناها معاً في مقبرة جونتج  
ببيدين عن أبونا ورحمتها وعطفها لأن أماً كانت قد ذهبت  
إلى قبرها ، وأبانا كان يقصر علينا ، ولا يدخل بنا ، وقد يؤمر  
عشنا يوماً بي به القصير ويغير له لب الكبير ، وبلغنا في الشفاء  
المالح التي لا يبلغها إلا القليل المشغولون من الأمل والرحم ،  
أو أبناء السبيل المشردون في كفاف البلاد ، وكنا نركض أروث  
التياب ، ونأكل أفضه الطعام ، ولا نخذي إلا الأحذية المرقعة ،  
ولا نلبس إلا القلائس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح  
شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكانت ثلاثي سبب فلك من عطشنا أشد  
العقاب وألمه ، لنحصل الأكل بصبر وجلد ، ولا نستطيع أن  
نعتل إليهم صغراً شديداً ، نفهم به وجهنا لأننا إن لمنا قد حققنا  
أبانا وتركتنا للألمة سيلاً إلى ، وهذا ما لا يحب أن يكون ،  
وكان طلبة المدرسة في شأننا فسمين ، هازيء لا يزال يسخر  
بنا ، وراحهم لا يزال يتوحد لنا ، وقعدة الراحم كإضافة الساهر  
وكلاهما يرم النفس وملاوغة قصة وأسى ، فكانت تطيق بالخالفين ،  
وتألم في الموقفين ، وكثيراً ما كان يأمرنا بمعوننا كلما زارهم  
زائر كريم بالإترواء في الركن المظلم من أركان قاعة التدريس حتى



لا يجلبوا بنا أمانه فإذا انصرف عدونا إلى مقاعدنا كما كنا ،  
فكنا نجد في نفوسنا من الغضب والكلم ما لا يعلم سبيله إلا الله ،  
وكان الطلبة يخرجون جميعاً في أيام الأحاد مع المعلمين لتزور في  
الأعراس والفتيات أو على سقة التهر أو على منح الجبل في  
أزياء جميلة وشارات حسنة ، ما عدنا فقد كان معلماً يتطلب  
عليها العمل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجنا في بيت الدجاج نبرماً  
بنا ، واستغلاً لزيارتنا وحسنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا  
اختلافاً عظيماً فأطلق أبكي وانتحب ، ويظل أوجين يلعب ويمرح  
لأنه كان على صغرت أوسع مني صدرأ وأكثر احتلالاً ،  
وكان لا يعرف شيئاً لجزيري وتسمية عموم نفسي غير هذا  
الليل ، فلا يزال يني ويصيح ويقلد أصوات الحيوانات ، ويطارده  
الدجاج والأوز ويغن في عيون وقوده ، حتى نهأ نفسي ،  
ويحف نفسي ، ولا أرى لي بداً من المضي منه في شأنه ، وكنت  
أرحمه وأحس عليه حنو الأم على رضيعها ، فلا أستطيع أن  
أراه بكياً أو شامخاً أو مستوحشاً أو شائلاً ، وكان يحيل إلي أنني  
لو رأيت دمنة واحدة تجري على عذبة ثقلت نفسي حزناً وكمداً ،  
وكثيراً ما كنت أقارن ساعة الغذاء أو الظاهر بالشع إن رأيت  
الطعام قليلاً في أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حقه منه ، فلا أرى  
على وجهه صفرة الخروج ، ومثلما حسنت في التباي الباردة عظامي  
إلى غطائه وأسبته عليه من حيث لا يشعر رحمة به وحسناً عليه ،  
حتى إذا أصبح الصباح ورأني نائماً بجانبه يغير لفظه ضمني إلى  
صدره ويخالي ، وقال إنك تغفل نفسك يا استيقن من أنجلي !  
ولم يزال هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار ، وكان منكوباً  
بمثل لكننا قفنا من الثلاثة هذا الشفاء وتعاوننا عليه بركة  
من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام

وهنا اشتق صوتي بالبكاء فلم يستطع المضي في حديثه وأطرق  
بإطرافاً طويلة ثم ولع رأسه ، فإذا عيناه محمرتان من البكاء  
فالتفتي على ماجبولين نظرة طويلة دامعة وقال لنا : ألدريين يا  
ماجدولين ماذا صنعت بهذا الأبح الذي كنت أحميه أكثر من كل  
إنسان في العالم ، وكان ينبغي أكثر بما أحميه ؟ قالت : لا أعلم  
أناك صنعت به شيئاً ، قال : إنني قد فعلت ، فادعرت ماجبولين  
بواصر وجهها وقالت : إني لا أفهم ما تقول ! قال : كتب إلي  
من ميدان القتال أن سرجه يال يمزق يوشك أن يخلده في الميدان ،  
وأنه في حاجة إلى عشرين فرنكاً ليشترى بها سرجاً جديداً ، وكنت  
قائداً عليها فقصت بها عليه ، فالتفت به سرجه أثناء الحركة  
فكادته حوافر الخيل فمات ، فاستعزت ماجبولين باكياً ، وقالت :  
وا أسفاه عليه وحمل ثيابه الغض وضعت الياسق الصغير ، فمدت  
استيقن في وجهها تعذيراً وقال لنا : وعلى تدريين لم غشت عليه  
بهذا المال الذي سألتني ؟ قالت : لا ، قال : لأنني كنت لا أملك  
سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليشترى به السرج الذي يريد ،  
أو أنفق في السفر إلى كوزيلاس لأراك ، فالتفت رؤيتك على  
حياته ، فكنست ماجبولين رأسها ، واحسر وجهها حياة وعجلاً ،  
وخل جسمها برتعد ارتعاداً شديداً - ثم عاد إلى حديثه يقول :  
وهي تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه المرة ؟  
فصغرت ماجبولين ولم تغل شيئاً ، فقال : ذهبت إليك في ملعب  
الأوبرا فلم أجدك فانتظرتك طويلاً فلم تأت فقلت عليك  
فلقاً عظيماً ، وذهبت إلى بيت سوزان لأتف على أمرك فرأيت  
عناك وليمة حاله فسألت عنها فقلت أنها عرس صديقك ،  
فايت أن أذهب دون أن أراك ولو على بعد لحظة واحدة ،  
ثم انصرف لثنائي وكان لابد لي من أن أسألك لذلك احتجلاً ،



## من ماجنولين إلى سوزان

لم يبق لي بد من أن أعترف لك بكل شيء .

قد أصبحت أحب استيفان حياً لم أصر له مثله فيما مضى  
من أيام حياتي ، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء .

لا ، بل أعتقد أنني ما سلوته يوماً من الأيام ولا سيما ،  
والتي كنت أعتقد نفسي وأكلمها حينما ظننت أنني أستطيع  
أن أحيي بدونه ، أو أسكن إلى حشرة إنسان سواه .

إنه لا يزال يحبني ويستقيم بي ، ولا يزال يذكر ذلك الماضي  
كأنه لا يزال حاضراً بين يديه ، وقد كنت أجهل ذلك منه ،  
ولا أرى له أثراً في وجهه ، حتى جعلت إليه منذ ليالٍ مجلساً  
مترداً فحري بي وبينه حديث ثلاث فيه حوافل نفس ثيرة  
شديدة ، فبكي وتالم وغضب واحتدم ، فطعت أنه لم ينس  
شيئاً وأنه إنما كان يكافئني لوانع نفسي وآلامها ، ويعتبر أستاذ  
سلوكه على مهجة تنحرق لوعة وأسى ، فارتيت له وبكيت  
لبكائه ، وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإنخلاص  
لامرأة قد فلتت به أفتح غمر ، وعانته أطلع حياته . وملأت  
عليه قضاء حياته يوماً وشقاء .

إنه لم يفكر في الزواج حتى الساعة ، ولم يفتح باب الطقة  
العليا من . . . التي كان أهدأ لسكنائها إلا مرة واحدة منذ ليالٍ ،  
وكان ذلك من . . . ، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهدنا

فأعطت بالندم كأنني واحد منهم وكانت ثيابي أثني بياهم  
حتى تمكنت من الدخول إلى قباء القصر ، ووصلت إلى باب  
قاعة الرقص فظنرت من زجاجةا فرايتك ترقصين مع إدوار  
فلك الرقصة التي كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معي ، وينا  
أنا كذلك إذ دفع الباب دفعا شديداً وخرج من أحد الزاوين  
فأمرني أمراً لم أحسن القيام به فسررتي على وجهي سوطاً لا يزال  
أثره باقياً على خدي حتى الساعة .

وهنا وقع يدي على حده كأنما قد وقع السوط عليه في هذه  
الحظة والتعبير باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومشي في  
الطريق الموصل إلى عذمه فطقت به عند باب المدخل ونشيت  
برحمة وعلقت يديا إليه غلوعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعرف  
عنه يا استيفان ؟ فجلبت رداً منها ، وألقى عليها نظرة شرراء  
عائلة ، وقال لها : ادعني أيتها السيدة إلى عذرك زوجك فإنه  
مريض ، وربما كان في حاجة إليك ، ثم دخل عذمه وأقبل بابه  
فلطقت في مرفقها ساعة باعثة مضحكة ، ثم انصرفت إلى عذرك  
زوجها .

في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبني ، ويستقيم بها ،  
وأنا تحبه حياً يستعيدنا ، ويملك عليها كل عاطفة من حوافل  
قلبي ، وإن قد حبل بيننا وبينه إلى الأبد ، فطقت في مضجعيها  
ليلة ليلاء ما يكاد يغرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان  
ليه بأمر من ليلاء .

كما هي ، ولقد رأيتها قرأت النياز مستشراً فوق سريرها ومقاعدنا  
وأشارها لشعرت عند النظر إليها بما يشعر به المائل أمام جدت  
بال قد غصه إليه ، وطوى به بين تزيه وأحجاره .

لقد خسرت يا سوزان كل شيء ، ولم يبق لي يدي من جميع  
أمانتي وآمالي أمل واحد ، لقد ضاعت الثروة التي بنت سعادتني بها ،  
وتنصص على الثروايج التي وضعت فيه جميع آمالي ، وخرج من  
يدي ذلك الرجل الذي أحببته لأكثر من كل إنسان في العالم ، والذي  
لا أستطيع أن أسب إنساناً سواه ، ولا أعلم ماذا بقي لي في غسبر  
الدمر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إنني أشعر بخوف شديد ترتد له فواصل ، وأظن أن ساعة  
القطاب قد دنت ، ولقد أذنت ذنباً عظيماً ، فلا بد أن يكون  
عقباني عظيماً .

(٨٨)

من ماجدولين إلى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركني إدوارد وسافر إلى جهة  
لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج  
إلى أميركا ، ولا أعلم أحداً ما يقولون أم كذباً ؟

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول  
تلك النكبة به ، وبذلك له من المودة ما لا يبدله أخ لأخيه ، ولا  
حبيب لحبيبه ، ولكنه لم يثل من حشرته هذه حتى عاد إلى سيرته  
الأول وانتفع في القفارة اندفاع المبتلون لما هي إلا أيام قليلة

حتى استدان ثقباً مائة ألف فرنك ولم يبق له بد من القفوط .  
لمعت جميع جواهري وحلالي علي أستقله من سطوته ظم أصنع  
شيئاً ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى عذبة ظم  
أجدته ، فالتفت عني الخدم فأخبرني أحدهم أنه لحد خارجاً في  
الغلس من باب القصر ويده خفية سفر ، ولا يعلم أين ذهب .  
ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه  
وعرب وترك مائر الثراء وشأنهم دون أن يوفيههم ديونهم ،  
فعرفت أنه - وقد فعل هذه النكبة التي لا يقدم عليها رجل شريف  
غير عائد من بعدها أبداً ، ولم أر يوماً من أن أقوم عنه بوفاء بقية  
ديونه شيئاً بكرات وإبقاء على شرفه ، لمعت في سبيل ذلك حيث  
الذي ورثته عن أبي في الفياض والمزرعة التي يجانيه ، وقد سألت  
عنه في كل مكان وسألت للتفتيش عنه في كل جهة أعلم أن له  
شأناً فيها أو صلة بها فلم ألق له حل أثر ، ولا يعلم إلا الله كم  
فرغت من التمعق وكما بدت من الآلام منذ حلت تلك النكبة بي  
حتى اليوم ، ولقد أرسل إليّ بالأمس مالك القصر الجديد بتلوني  
بالمخرج بعد شهر واحد ، وبلغ في ذلك إلحاحاً شديداً ، ولا  
أدري ماذا أصنع ولا أين أذهب ؟ فليس لي ترويب آتوي إليه ،  
ولا حبيب أرجو نفعه ، ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما  
تدبر لي أن أنقض في هذا العالم من أيام حياتي ، وقد انقطع استيفن  
عن زيارة كوبلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم  
سبب انقطاعه ، ولقد حدثني نفسي كثيراً بالانتحار فقال لي  
وبين ذلك أنني إن قتلته نفسي قتلت معي هذا المليون المسكين  
الذي لا ذنب له ، وكثير على الأمم أن تمد يدها للقتل وللعنا ،  
فصالي إليّ يا سوزان أو الظن لي أن آتي إليك ، لا ، بل لا بد  
من جيشك إليّ ، لأنني لا أستطيع أن أحصل مشقة هذا السفر

المعبد وأنا في الشهر الأخير من جنلي .

إني أنظر كتاباً منك بعد أيام قليلة ، فلم يبق لي في العلم من أعتد عليه أو أرجو معونه مراك .

( ٨٩ )

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أنظر أن يأتي منك كتاب بالأمس فلم يأتي ، فليت شعري ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك يعني شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتي ؟ أكتبني إلى كل حال ، فقد بلغت في الشدة منها ، وانقطع عني الناس جميعاً فلا أرى أحداً من صواحي ولا من أصدقاء زوجي .

الحياة مظلمة في عيني ولقد بكيت كثيراً حتى جفت عيني وفكرة الانتحار تلاوحت في يوم أكثر من ذي قبل ، فأنظري في أمري يا سوزان واكتبني إلى يا سوزان . أكتبني إلى أنك قادمة أو الذي لي باليقين إليك فإن لم يأتي منك كتاب غداً ، فلا أعلم ماذا سيكون شأني بعد غد .

( ٩٠ )

من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابي هذا وسوزان في أشد حالات مرضها وقد

١٩٦

أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور أو حزن . وقد جئتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد عليها من صواحيها ، وقد سهوت بالأمس ففقدت كتابك الأخير الذي أرسلته إليها عفواً فألتمت بطرف من الشدة التي تكاد يبتها فأرسلت لك كثيراً ، ومكنت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب إليك على غير علم منها بالمخبر إلي ، ولكنني أشققت عليها أن يقتلها الحزن لصداك ، أو الفرح برونك فرجسائي إليك أن تتظري بحضورك بقعة أسابيع حتى أحتال للأمر أو نفاً من سوزان عنها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرى لك ويكلم لك .

( ٩١ )

الجزء

قرأت ماجدولين ذلك الكتاب فزأبت أمره ووقع في نفسها أن سوزان ليست بمريضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وإنما إنما تريد مدافعتها والتخلص منها ، فهالها الأمر وتعاظمتها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحيها وصواحب سوزان كانت تخطف إليها من حين إلى حين فسالها ماجدولين متى كان آخر مهلة براسال سوزان ؟ فقالت : قد جاءني منها كتاب بالأمس تبثني فيه بعيد ميلادي وتقترح علي أن أسافر إليها لأقضي عندها في برلين ، فصل الريح ، فبكت إليها شاكراً لما تبثتها ، وأستطعها من السر ، فصمتت ماجدولين ولم تقل شيئاً حتى انصرفت الفتاة فقالت بينما وبين نفسها : لا أحب عليها لهذا فعلت ، إنما هي

الإرادة الإلهية تأتي إلا أن تجازي قدرها وتقدرنا بكفران.

(٩٢)

### الدموع الأخيرة

استيقظ سكان قرية والفيخ في صباح أحد الأيام فلما بهم يرون تلك الفتاة التي فارقتهم بالأمس وهي أنفست القنيتات وجهاً وأسمعتهم حلاً. قد عادت إليهم مفراً متضمضة شاحبة اللون بالية اللون. تخشى منية الذليل اللون، وتقلع قلبها في سيرها الضلعا. فمجروا لأمرها ووثقوا لها. ولم تزل سائرة في طريقها حتى عرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها وسعدت فيه بالحلب الشريف الظاهر ألياً طويلاً حتى فارقتهم فدارتها هناك الحياة وورعها. فحظ قلبها عطفة الأم والحزن. ووقفت أمامه ساعة قلب نظرها في جنباته وأنشاته، فرأت المسكون عجباً والرحمة سالمة. فعلمت أن لا يزال مهجوراً وكان باب المدينة مفتوحاً فمدتها نفسها بتسوها. فدخلتها وخسبت فيه بنقع خطوات. فسلمت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة من الأشجار العظام يطبخان طعامهما، فسلمت إليهما حتى صارت على قلب منهما، فأنكرتا إذ رأياها. ثم عرفاها. فانتصفا من مكانهما انقضاء، ومشيا إليها فحياتا. ونظر الرجل إليها نظرة واجبة مكتوبة وقال لها: ما الذي طرأ عليك يا سبيلي؟ فأقضت إليه بحمل قمتها، ثم قالت له: أريد أن أمتاع الفترة العليا من المنزل لأقضي فيها شهراً أو شهرين. وربة لا أحتاج إليها أكثر من ذلك فاستأذن لي صاحب البيت في أمرها. فاستعبر

الرجل ناكياً وعقل يعجب لتقنيات الأيام وتبدل صورها وأثرها. ويذهب ذلك الزمن الذي قضاه في خدمتها وخدمة أبيها، وما هي إلا ساعة حتى أعد لها الفترة التي أرادتها. فصعدت إليها فوجدتها باقية على عهدا أيام كان استيقظ يسكنها وذكرته ذلك اليوم الذي سعدت فيه إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبلغت تربتها بدموعها حزناً على فراقه. وظلت تقول في نفسها: قد كنت أباكى قبل اليوم على فراقه، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق قطيعة دائمة لا واصل لها، فمن لي بدموع تبني عليها؟ وخطت بنفسها تذكر أيامها ودموعها وأشجارها، وتلطف أكرم ما أبقى لها الذكر في أبقائها من دموع ومن هو أول باليكاه والقم منها وقد ضربها الذكر بجميع ضرباته وتكررها كل وجه من وجوه الحياة، فهجروا زوجها وخانتها صديقتها، وتقم عليها الرجل الذي تحب، وفقدت البروة التي بذلت في سبيلها سعادتها، وأصبحت لا تستطيع أن تطلب الراحة من طريق الموت، لأنها لا تستطيع أن تنزل ولدها ولا أن تجد لها في الحياة لأنها لا تملك ما تستعين به على عيشها، وما هي إلا أيام قلائل حتى جامعها المظاض فلم يحضر غير زوجة البستاني وعيول من جاراتها القديرات تولدت طفلة جميلة لم تنسم عند روعتها إلا لحظة واحدة، ثم أخذت تبكيها بكاء لا تأكل وحيدها ساعة مواته، وما كادت تنهش من ثغامها حتى جامعها الحيز بأن إدوار قد انتحر شقاً في فلق من فنادق شيكاغو. كان يزل فيه مند سافر إلى أمريكا، على أثر ليلة قضاه في القامرة وغسر فيها كل ما كان بيده من المال، فسقطت عند سماع الخبر غمياً عليها وهي تقول: «وايم ولداه».

ثم استأذنت بعد حين فلما هي تتألم صامت، جامد، لا تنطق ولا تبكي ولا تشكو ولا تألم. ولا تضم طفلها إلى صدرها



إلا إذا أزعجها بكأوتها ، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي ، ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المصحة أو المفضي . ثم ترفع بعدها عنه ، وتخرجها الساعة الطوال وهي غاضبة بصرها في السماء لا يعلم إلا الله أين تلعب ، ولا أين تتغفل نفسها في غلبات هذا الوجود ، فإذا ثابت نفسها إليها سألت البستاني هل أتاها كتاب . أو سأل عنها أحد فيجيئها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذمومها .

( ٩٣ )

### قلب استيفين

أصبح استيفين بعد انقاضي جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي حدث فيها ماجدولين ثلثاً مهتاجاً ، ولا يبدأ ولا يسريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا بقلعة ، ولا يبتأ واجتماع ولا غشوة فبدأ له أن يسافر إلى بعض مناشعات الشمال ليروح عن نفسه مغموماً وآلامها . فسافر مسرعة طوية زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنين وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه . فاجتمعوا به احتفالاً عظيماً وأجملوا مودته وعظمته ، ونظم في تلك المسرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها وحن كثيراً من أغاني الروايات الشعبية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ، فازداد حبه انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى واجتمع الذين سمعوا غناؤه أو توقيعه أن ساء ألقاب لم تطلع فيها منذ مات ديهودفن ، شمس مثل شمس ، ولا أشرف فيها نجم أسطع من ألمسه . وظل في حياته هذه بصفة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه في كوبولانس يخبره

فيه خبر إندوار ، ويقص عليه قصة سفره وانتحاره ، فحزن عليه وعلى مصيره حزناً شديداً وبكاء وبكاء الوفي الكريم الذي لا يأسى أن ينسى في موقف الموت كل شأن من شؤون الحياة ، ولم يذكر له في تلك الساعة من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط ، وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه ، وأليس وحده في أيام يروسته وشغافه لا يزيد على ذلك شيئاً ، ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ما حل بمجدولين بعد نزول تلك النكبة بها ، وليرى إليها بد معرفته في بأسائها التي صارت إليها ، فسافر إلى كوبولانس فقصى إليها ليلة ، ثم ذهب إلى جونتيج وظل يسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شيء . وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش اليأس والشقاء في القرية العليا التي كان يسكنها من بينها الأول فسني في تلك الساعة زوجته عليها ، واستحال غضبه وقصته إلى رغبة وشغلة ، فركب عجلته في الصباح وسافر إلى ولقيباخ حتى بلغها تحسوة النهار ، فأخذ في طريقه إلى بيت الشيخ موزر حتى بلغه ، فسأل البستاني عنها فقص عليه يجعل قصتها ، ووصف له حياتها الغريبة التي نعيشها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذمومها واستغراقها . واستبداد الغم بها استبداداً يكاد يقتلها ، وبأنه على حياتها فقال له استأذن لي عليها فلاني أحب أن أراها . قال : إنها تقضي أكثر أوقاتها جالسة على ذلك القعد الذي كنتما تجلسان عليه معاً في أيامكما الماضية . وقد تركتها الساعة هناك ، فاذبح إليها إذا شئت ، فسني إليها حتى وآما جالسة على الهية التي وصفها الرجل فلم تشعر به حتى صار أمامها فانتفضت إذ رأتها انتفضت ترابلت لها أضواءها ، وتناقلت فيها نفسها ، فلم تستطيع النهوض من مكانها ، وارتج عليها فلم تطلق بحرف واحد ، فجلس بجانبها وقبلة يلوب حسرة وأسى : وأخذ

جزيا عن نكبتها ، ويتوجع لما حل بها ويغفلها بالصبر على مصابها ،  
 ثابت إليها نفسها شيئاً فشيئاً ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت  
 له : قد كنت أحثل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك  
 عثرت عني يا استيفن .

لما طرق باباً ، ثم رجع رأسه إليها وقال لها : أما الممر فلا  
 لا أستطيع لأني لا أستطيع أن أنسى ، فاصفر وجهها واصفرأ  
 شديداً ، وشعرت أن روحها تنسرب من بين جنبها قطرة قطرة  
 ونظرت إليه بيمين تفرق في إنساها الفجع وقالت له :  
 ألا يذكرك يا استيفن هذا المكان الذي تجلس فيه بشيء من  
 ماضيها ؟ قال لا يذكروني إلا بشيء واحد ، وهو أنني شهدت  
 فيه ذلك المشهد الذي ضجني في جميع أنائي وأتائي ، وقتل  
 قلبي فتلة لم يحيا من بعدها حتى اليوم ، قالت : إنك تحسو على  
 كثيراً يا استيفن ، ولو شئت لأرحمتني واشفقت علي .

نظر إليها نظرة شديدة ، وقد تثلث أمام عينه جميع الآلام  
 الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان ،  
 وفي كل مكان ، ترجم أنها ضعيفة واحدة ، وأن الرجل قوي  
 مقنن ، فهي تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها من شيء ،  
 لم تكوني قاسية علي يوم تركتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة  
 أعوام أقاسي أعظم ما ناسي . امروء في حياته من المصوم والآلام ،  
 وأخذت بيد عطيك على مشهد عني ومرأى وذعبت به إلى  
 غرفتك دون أن تلفتي إلي التفاتة واحدة لترى ما حل بي من  
 بعدك ، وهل أنا باقي على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من  
 رمقي ؟ لم تكوني غامية علي أيام أرسلت إليك تلك الرسائل  
 التي خسرمت إليك فيها ضراعة لا تحسها نفس من نفوس البشر

فأرسلتها وأعطيتها ، ولم تسمي بلعموي الفزار التي مكبتها فيها ،  
 ولم تكني إلي إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط  
 كان في يدي من غيوط الرجاء ؟

لاني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة  
 أن أناسي ذلك الماضي ، وأن تحمل الصداقة بيننا على الحب ،  
 فما أنا قد جئت إليك باسم الصداقة التي تواتنا عليها منذ ذلك  
 العهد أنفقدك وأتعهد شأنك وأهين لك حياة عينة لحيتها مع  
 طقتك في أي مكان نشأتين آتية غفوات الدهر ونكبات ما مد  
 الله في أجلي ، فاستعيرت بأكية ومعت بعدها إليه ضارعة وقالت :  
 أعلنا كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن ؟ فهاجرت وجده مداسها ،  
 وانبعثت من مكانها في لحظة واحدة جميع حواش قلبه المخنفة ،  
 وعلقت تتناول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه لإياها وحاجته  
 إليها ، وأنه لا يستطيع أن يعيش سعيلاً في الحياة بدونها ، ثم  
 ذكر حياتها وطلوها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه  
 ودموعه ، فسحت عاطفة القلب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه  
 ما لبت أن رأى دموعها المبهرة على خديها ، ومنظر بؤسها  
 وشقاها ، وبديها المسودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عقله  
 وإشفاقه ، وحادثته فيه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضعها إلى  
 صدره ، ويقول لها : قد نسبت كل شيء يا ماجلولين لصلاتي  
 إلي لاني لا أستطيع أن أمشي سعيلاً في الحياة بدونك . ثم  
 مرت بخاطرهم مرور اليرق تلك الساعة التي وقف فيها على باب  
 غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقي نفسها بين ذراعي زوجها  
 وتقبله وتستقبل قبلاته ، فاثارت في نفسه عاطفة العزة والأهفة  
 التي لم تغارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : إنني  
 لا أريد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا أليس أكفان الموتى .

وجهاً ذلك القوم الذي يفتنى وجهه المثلون بالمرت ، ففقت  
لياتها ساهرة بجانب مصباحها ، كتبت مرة ، وتلوف فمروها  
أخرى ، وتعلم طفتها إلى صدرها فيما بين فك ، حتى اتصلا  
عمود الصباح .

(٩٤)

### الكارثة

قال فرتر لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء  
عندرها والكون يمسح عن صيته من الكوى : أما أنا فإني باق  
هنا لأنني أريد أن أعتاد لاشيئين نوعاً من تلك قال لي صباح  
الأمس إنه يجب أن يكون على مائدة اليوم ، وأدعي أنت إليه ،  
والنظري حتى يستيقظ ، ولا تأخذي منك من الأولاد غير  
عقلك الرضيع ، وأغلب ظني أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخراً ،  
لقد عاد أس من تلك الفترة التي سافرها إلى والياخ حزناً  
مكتباً كثير لهم والشمس ، فسأله من شأنه فلم يجبرني شيء ،  
فجلست إليه أحدث أحاديث مختلفة وجررت أن أسرى بها عن  
نفسه ، فلم يسمع إلي ، حتى اتصفت الليل ، فأدني بالشباب  
إلى منزلي ، فركبته وهو يطالع النجوم فلا يجد ميلاً إليه . قالت :  
مسيكين هذا الرجل ، ما أحب أن أهدأ شقي في هذه الحياة  
شقاه ، أو لأني فيها ما لاقاه ، والناس يصبرونه صعباً متعباً ،  
ويحسدونه على نعمته وعنايته قال : نعم لقد فكك ذلك الترام  
القديم بنفسه فككة لا أحب أنه يارء منها أهد الدهر ، فراحضاه  
له ، ووا أسفاً عليه ، ادعي إليه يا جوزفين والنظري بقلته ،

وكنتك ظل يتقلب ساعة بين أيدي هذه العواطف المختلفة ،  
وهو صامت مدلول ، وماجدولين تأطيرة إلى شفتيه نظرة المهيم  
إلى شفتي قاضيه ، تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ،  
لترفعها إلى سماء السعادة التي لا سماء فوقها ، أو تهوى بها في  
مهواة الشقاء التي لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها  
برفق وضمتها إلى صدرها واتشأت قلبها ، وتيلها يدموعها ،  
فتأسي في تلك الساعة كل شيء ، وحنا عليها وأهوى بقمه إلى  
فمها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس شفثيهما إلا ممر الهواء بينهما  
إذ سمعها تقول له وهي ترتعد بين يديه : أنت حيائي التي لا  
حياة لي بدونها ، وهي يمينها الكلمة التي سمعها منها منذ خمسة  
أعوام وهي تقولها لزوجها ليلة زفافها في غرفة عرسها ، فما  
رنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثلة الفانج المختل . وانزع  
يده من يدها ، ودفعها عنه دفعا شديداً ، فسقطت تحت المقعد ،  
وقال لها بصوت شديد قارح : لم يبق لك في قلبي شيء . أيتها  
السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع الكاعن فيه يده على رأسك  
ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة  
مؤذنة بانقضاء كل شيء .

ثم تركها مكانها ومضى خافض الطرف ، فطأطأ الراس ،  
حتى وصل إلى باب الحديقة فرأى اليسائي واقفاً في مكانه فأخرج  
من جيبه كتاباً مختروماً وقال له : أعط هذا لاجدولين ، ثم ركب  
عجلته ودفع في سبيله .

لمضى اليسائي إليها فرأها ساقطة تحت المقعد تخالج سكرة  
كسكرة الموت لما زال حتى رجعت إليها نفسها ، فأعلمها  
الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد ليس

والخديجة أن يرصحه بكاء طفلك ، ووزعاً لحث بك بعد قليل ،  
فلعبت حاملة طفلها على يدها حتى دنت من باب الحديقة فمرت  
على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة في أحضان رثة مشقة ،  
تسرع في مشيتها وتصر في ذليها ، فصجبت لأمرها ولكنها لم  
تصل بها ودخلت الحديقة فراعها أن رأّت بين يديها في دهليز  
الباب سقفاً صغيراً كأن فيه شيئاً يضطرب ، فذلت منه فرائث  
طفلاً رغبياً ملففاً بشايه يمتص تدباً صناعية موضوعة بجانه ،  
فذكرت تلك المرأة التي رأتها منذ لحظة تسرع في مشيتها كالخفاقة  
المدحورة ، وقالت في نفسها إنه طفلها ما من ذلك بد قد أعت  
فيه وحاولت التخلص من عاره فألقته هنا ، وحضت بالستان  
وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة طليها ، فسأله عن  
السطح ، فلعش إذ رآه وقال : إنه لم يره إلا الساعة ، فلم تر  
أن تصنع شيئاً دون أن ترى رأي استين . فذهبت إلى مخدعه  
وأشرقت عليه فرائه مستيقظاً في فراشه ، فدعاها حين رآها .  
فدخلت إليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم  
إلا ضجوة النهار ، قال إني لم أم حتى الساعة ، فقصت عليه  
قصة السقط وأخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ووصفت له  
حالتها في اضطرابها وتخليها لداخله رب عظيم ، ونقص غطاءه  
عن نفسها وخرج مسرعاً في مبادله حتى بلغ مكان السقط فرآه  
ورأى الطفل في مضجعه منه ، ورأى بجانبه حنة يضاء فتأملها  
فلذا كتاب مخنوم ، فالتعلوه وفرأ في عتوانه ، من ماجندولين  
إلى استين ، فقبضه بسرعة وأمر نظره عليه لإمرأاً قلص بين  
سطوره كلمة الموت ، فصرخ في وجه جودولين : أين ذهبت  
تلك المرأة التي حدثني عنها ؟ قالت : ذهبت في هذا الطريق .  
وأشارت إلى طريق النهر ! فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها

ماجدولين ، وإنها قد ذهبت إلى الموت ، وألقى الكتاب من يده ،  
وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر فرأى خلقاً كثيراً يجتمعين  
على ضفته وكلهم يشير إلى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون  
فرأى الفرقة تضطرب في أبهى الأمواج ، وقد يدها ناحية  
الضفة كالسحابة ، وكانت الزوجة ثائرة ، والرجل تمصص من  
كل جانب ، ورأى صديقه فرتر بحث زورقه إليها لإتقانها ،  
فأخذ يهتف ويقول : أدركها يا فرتر ، أطلقها يا صديقي .  
لها ماجندولين ، ثم نفا ثوبه عنه وهم بإلقاء نفسه في الماء ،  
فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفنهم  
عنه دفناً شديداً ، وانجم النهر وحل يسبح وراء الزورق .  
والوج يذو من مرة . ويأتى به أخرى حتى يلقه بعد لأي فتشيت  
به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الفرقة والفرقة تطفو وترسب .  
ويتعرج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

في هذه الساعة ، والفترب حافقة ، والنفس ذائعة ، والناس  
يهتفون بالدعاء مرة ويصرخون صرخات الفزع أخرى ، ثارت  
موجة هائلة حول مكان الفرقة كالطود الشامخ ، ولبت لحظة  
تبع وتمصطحب ، فصاح الناس بصوت واحد : رحمتك اللهم  
والجنانك ، ثم انصرفت فإذا سطح الماء املس منسط ، وإذا  
الفرقة لا عين ولا أثر .

وما رأى استين هذا المنظر حتى جن جنونه ، وألقى بنفسه  
في الماء ، وغاص حيث غاصت فاندفع فرتر وراءه ، وحبط  
بهبطه ، وما زالا يرسيان مرة ، ويطلقوان أخرى ، ويصارحان  
في ميوطهما وسودهما جيازة الأمواج صراعاً شديداً ، ثم  
الفرج الماء منهما ، فإذا هما صاعدان يمشلان الفرقة فوق



أحبها ، ولا يلدن أمة في أم ميتة ؟ وما زالوا يسبحان حتى بلغا الضفة فطرحاها ، وأكب الناس عليها يتسمعون خريبات قلبها ، ويغمسون أنفاسها ، واستيقن واقف ناحية يشخص بصره إليها ويتنظر قضاء الله فيها ، ثم أتته فإذا القوم جاثون من حولها ، وقد رفعوا قبائحهم عن رؤوسهم ، وانطلقوا يهيمون بصلواتهم فسلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن لحادث سكوناً ميقناً لا تخلط زفرة ولا أنة ، وجثا بجانب الجاثين يصلي بصلاتهم ، ويدعو بدعائهم ، فأبكى منظرة الناس جميعاً ، وحلقم من مكونه وجموده فوق ما كان يروهم من جرحه زيبكاته ، ثم انطلقوا ينصرفون واحداً بعد آخر ، حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض استيقن من مكانه ومضى إلى البطة فاحتملها على يديه وسار بها إلى المنزل ، وفرغ ريشه صامتاً ، فصعد إلى الطيقة العليا ودخل إلى تلك الغرفة الزرقاء فاضججها على ذلك السرير الذي كان بالأحسن سرير عرسها ، فأصبح اليوم خلدها الأخير .

وجثا على درجات السرير جثي العابد على درجات الميكل ، وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتى حلت ساعة الدفن فنهض من مكانه وأكب على البطة وكشف اللثام عن وجهها ، وتناول من فيها تلك القبلة التي كانت تحرمها عليه الحياة ، حتى أحلها له الموت ، ثم سقط متعباً عليه .

(٩٥)

من ماجنولين إلى استيقن

ماذا أصنع بالآل من بعدك يا استيقن ، بل ماذا أصنع بالحياة

جميعها بعد ما فقدتك ، واقطعت أسباب دنياي من أسباب دليالك .

كنت أرجو أن أعيش لك ، وأن أقدم إليك في مستقبل حياتك هناك أفضل من الغناء الذي كنت ترجوه في حاضيك ، لأنكظر بملك عن مبني التي استغنيا إليك ، فحلت بيني وبين ذلك ، لأنك كنت واجداً عليّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانظام لنفسك ، فحقيقت بملك عليّ وعلى نفسك في آن واحد ، لأنني أعلم أنك تحبني ، وأنت لا تستطيع أن تنها بالحياة من بعدي .

كنت أشر أن بين جثي ثروة من الحب تغلغل قضاء حياتك هناك ورفداً ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمتحك في كل ساعة من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة في العلم أن تحسه رجلاً في الكثير من الأهمام ، ولم أكن أرجو على ذلك أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدي ، وأن أعيش بجانبك عيش لينة الضعيفة بجانب العوسة النظيفة يتيم عليها ظليها ، ويفرق عليها نسيمها .

لم لم تعف عني يا استيقن ؟ ووالله ما أعييت أحداً في الحياة غيرك ، ولا يمكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع الرجل الذي أقسمت مني زواجي منه ، حاسني عليه حساباً شديداً أن يتنصخ فزوة واحدة من تلك الحب الذي أضمرته لك في قلبي مذ عرفتك ، فلو أنك أخفيت عني عفتي ، وأذنت لحلمك أن يسع جهول ، لوجدت بين يديك قاعة عزراء قبلها وعراضاً لم تحسها يد ، ولا حيث يتوآد ، كنت ، ولا فرق بينها وبين تلك القاعة القروية الساذجة التي استعياها في والياخ حياً جمعاً ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس ممتلئة بين أيديها ، وكان منظرها جميلاً رائعاً  
تأخذ العين ، ويهز له القلب ، وكان جديراً بما أن تصاقها  
قطرة قطرة حتى تأتي على القطرة الأخيرة منها ثم تحوت معاً  
سبعين ينشئها كما عشت سبعين ينشئها ، ولكنك كنت شقياً  
سيء الحظ فدغمتها عنك بقلبك دفعاً شديداً فكسرتها ، وأرقت  
ما فيها ، فأصبحت لا تجد لذة الحياة إذا عشت ، ولا نيتاً بضميمة  
الموت إذا متا .

لم لم تعف عني يا استيفن ؟ وقد حاقني الدهر بقلبك عقاباً  
أليماً ، وأخذ لك من فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ،  
فسلمني الزود التي تسكن عتك ، والزوج الذي مالأك ، على الفلج  
بك ، والثناء من الحب التي كانت تلعب في قلبي فضفي . ظلمت  
إلى نارا آكلة تحرقه وتضطرم في أشعائه ، وتغلغل في أعماقه وأطرافه ،  
ولم يترك في موضعاً واحداً يسع عقوبتك وانتقامك .

ألدري يا استيفن من هي تلك المرأة التي جلست إليها بالأمس  
تفرعها وتوكبها ، وتعد عليها دنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها  
واضاعتها ؟

إنما لم تكن إلا شيعاً من الأشباح الضئيلة المنهانة . قد ذهب  
الدهر يصبح قراها ، وضعضم جميع سواها ومشاعرها ، ولم  
يترك لها من كآلة الحياة إلا عياناً تنظر ولا ترى ، وأذناً تسمع ولا  
تعي . ونفساً ذاهلة عن كل شيء ، حتى عن نفسها ، وروحاً تتسرب  
من بين جنبها شيئاً فشيئاً ذاهبة في سبيلها .

تلك هي المرأة التي قسوت عليها ، ولم ترحم بؤسها وضعفها  
فنددت إليها يدك القوية القادرة وطعنتها ، وهي جريحة منخلة

تلك الطعنة النجلاء التي نفذت إلى قلبها ، وقصت عليها القضاء الأخير

قد غفرت لك كل شيء ، يا استيفن ، لأنني أحبك . ولأنني  
أعلم أنك ما قسوت عليّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني ،  
فامنحي عفوكم ومغفرتكم وأتركني من نفسك الممثلة التي كنت  
أزلقها من قبل ، والتي أبذل اليوم حياتي في سبيلها ، فإن كنت  
لا بدّ أخذاً الموتى بنفوسهم فلا تأخذ بقلبي تلك الطفلة البتية  
العكينة التي لا سند لها ولا عصب ، فهي وإن كانت ابنة المرأة  
التي خانتك ، فهي ابنة المرأة التي أحبك ، وللي أميها يكرمك  
وفضلك أن تلوق طعم الشقاء على عهدك ، أو أن تغل بها كآلة  
من كآلات الدهر بين سبعك وبصرك .

أطعنها وتصدق عليها : فطالما أحسنت إلى أرويا من قبلها ،  
وأجعل لها من صدرك الرحيم ملجأً يجد فيه حنان الأم ، ورعاية  
الأب ، ولا تكلها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها  
وتوكل بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك الدقة الكبرى  
من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطت تشقى بها أيد الدهر ،  
واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حباً جماً ، وأنها ما أثرت  
الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بحالها ، ولأنها  
كانت شقية مرزأة فأنشفت عليها أن يعيش إليها سهم من سهام شقائها .

الوداع يا استيفن ، الوداع يا أحب الناس إليّ . اني أأفوق  
هذه الحياة وأنت أحر من أفكر في . وكل ما أسف عليه ، فلا تكرني  
ولا تنسى ، وتعهدي بالزيارة قدي من حين إلى حين ، إن كان مقدراً  
في أن يكون لي قبر على ظهر الأرض ، واحتفظ بالودعة التي  
أودعتهك إذما فهي تذكاري الدائم المقيم عندك ، وليهون عليك

فقدى أن رومس قد استرجعت بروحك استرجاعاً لا يشوره لقاء ولا  
بل ، فلئن فرقت بيتنا الأقدار في هذه القار فستلقى في الدار  
الأخرى لقاء لا يتخسه علينا موت ولا فراق .

الوقوع يا استيفن ، وأخبرك كلمة أقولها لك في آخر ساعة من  
ساعات حياتي : وإني أحبك ، وإني أموت من أحبك .

(٩٦)

### المقصرة

استطاع استيفن أن يستيق من غيبته في أصل اليوم الثاني .  
ففتح عينه ودار بها حوله ف رأى فرتز وزوجته وأولاده جلوساً  
تحت قنبره يكونه ويترجمون له ، فظل شامساً بصره هنيهة ،  
ثم انفض إلى فرتز وألقى عليه نظرة طويلة وقال له : هل دخلتموها ؟  
فأطرق فرتز واجماً وقال بصوت خافت : نعم يا سيدي منذ  
الأمس ، قال : وأين طفلتها ؟ قال : قد كفلتها جوزفين ، وهي  
تتولى إرضاعها مع طفلتها . قال : وأين ذلك الكتاب ؟ قال :  
هنا هو يا سيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالتصرف إلى منزله ،  
فالتصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب  
ونفسه تتطير فرحة وأمل ، حتى فرغ منه ، فيكنى ما شاء فقد  
أن يفعل ، ثم أخذته كظلة شديدة للضل من نفسه وظل مستغرقاً  
في ذهنه بضع ساعات حتى انقصف الليل ، فثار من مكانه بظنه ،  
وكان طاف بظنه طائف من الجنون ، وخرج إلى الحديقة فمشى  
في أمانها يسمع فلم يشعر بحركة ورأى البستاني قائماً في قرفته

ورأى قامة على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ،  
فلما استقبل القنبر انفض سته إلى القنبرة حتى بلغها ، وكان البحر  
مكثوراً والريح عاصفة والسحب كحجب وجه القمر ولا تنحسر  
عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم لا تلبث أن تعود إلى تراكيبها وتكاليفها ،  
وكان يحيط بالقنبرة من جهاتها الثلاث سور متهدم كثير الشرات  
والقجرات ، ويشتد مع جهتها الرابعة سور جوتيج ، وقد قامت  
على ضفته أشجار عالية غياً ، ينصف الريح بقرونها وأوراقها  
عصفاً شديداً فيألف من حفيفها وخويز ماء النهر الجاري بجانبها  
صوت غليظ أحشى بملأ القلوب روعة وروية ، فلم يزل استيفن  
سائراً في طريقه حتى لاحت له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع  
حفيف أوراقها ، وخويز المياه المتلطفة من تحتها ، فخطى إليه  
أنها أشباح سوداء من الجفن تقلم نجره في جوف الليل والقنبر  
منزعة ، وتضمهم بأصواتها المنيقة المريفة ، فبشت في جسمه  
رعدة الخوف إلا أنها لم تنفعه من القنبر في وجهه فاستمر في  
سيره حتى دخل القنبرة ، وكان القمر يظهر حيناً فيرشاه إلى  
الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في غمار السحب فيقف عن  
المسير ، فلما تراءى له رأى على حوله نوليس المولى ، وقد  
جثت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أشعل عاصفوها  
أمرها بعد أن رأى في قلوبهم حرجهم على موتاهم ، ولم يزل ينصيح  
أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لا تزال تربته عذبة  
فأكب عليه ينصيح جواربه فقرأ على أحدها على شعاع ضئيل  
يفتح إليه القمر في تلك الساعة اسم ماجدولين ، ففجأ على ركبته  
وهمهم بسلامة قصيدة ، ثم نهض قائماً على قدميه وتناول القنبر  
التي أتى بها معه وصرب بها الأرض ضربة شديدة ، فلم يسمع  
لضربة سوتاً لشدة عصف الرياح وزفيرها في تلك اللحظة ،

ثم أخذ يحفر حتى ضرب ضربة أخرى وثق ريثاً شديداً ملا  
أرجاء القبرة . فالتفت يده ، وبرد دمه في حروفه ، وسقط  
على ركبته ، وسقطت القاس من يده ، لأن الضربة كانت قد  
أصابته الثابت الذي يحوي الحقة ، فخلل إليه أنها أصابت  
جميعه الميتة ، وكان القمر قد برز من وراء غمامته في تلك  
الساعة وأضاء القبرة كلها ، فمثل له أن القبر قد فُتحت جميعها ،  
وأن المومي قد أخرجوا ووثقهم منها ، وأخذوا ينظرون إليه  
بعيون ملكية متوقفة ، فطار من رأسه ما بقي فيه من الصواب  
وترك القاس مكانها ، وركض ركضاً شديداً ، وهو يتخيل أن  
المومي يتألمونه ويركضون وراءه حتى وصل إلى المنزل مطرطراً  
من الكلال ، وهو يصيح « ما كانني أن أفتلها حتى مثلت بها »  
وسمع البستاني صيحته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ،  
فقال له : « ما بك يا سيدي ؟ لهذا غليلاً عندما رأه ، ونجس من  
مكانه وقال له : « اتبعني ، فسيه الرجل عدداً لا يعلم أين يريد ،  
حتى بلغ القبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقاً في جانبها فمشى  
إلى ذلك القبر فالتفت عليه ، فرأى أثر القاس في الثابت ، ولم  
ير شيئاً مما كان يتخيل ، فسكن وحداً ، وحلم أنه إنما كان في ثورة  
من ثورات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد الدواب إلى ما كان عليه ،  
فأعادها ، ثم أمره أن يأخذ رأسه ويعود إلى المنزل ففعل ، وجنا  
هو بجانب القبر يلثم ثوبه وأثره ، ويلعن عنده بصفاته وأحجاره ،  
ويكي بكاء شديداً حتى اشتدت نفسه ، ثم انصرف ليله . وهو  
يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق  
إلى ذلك وأحسب أن ذلك مني غير جيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم غائر النفس ، متخض الصدر ، كحياً  
مستوحشاً ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظراً الغريب التازل ينظر لم

بطرفها من قبل . ولم يأمن بالقيام فيها ، فهو بعد عذته للرحيل  
عنها ، ثم ما زال يلج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس .  
ويبرم يراهم ، ويستكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف  
إلى من كان يختلف إليه من أسفلكه وصارقه ، وأنى أن يقابل  
أحدًا من زائريه ، وأسى لا يفارق خياله في نومه ويقتله وفجائه  
وجيته منظر ماجدولين ، وهي تنرف في النهر ، ولحداثها الذهبية  
الصفراء طافية على وجه الماء ، ويدها تتحركان حركات الاستغابة  
فلا تجد حقيقاً ولا نعيمًا ، فكان يحس في نفسه تلك الذكرى المآ  
مضاً بقيته ويقعده ويلعب براسته وسكونه ، فيصرخ كلما تراءى  
له ذلك الخيال : نعم أنا الذي فعلتها ، وانزعجت حياتها من بين  
جنتها ، وفرت بيننا وبين قلعة كبدنا ، فزبل لي ، ما أشقائي !  
وما أسوأ حظي ! لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يعيوني  
على ظهر الأرض ، وأن أبني من بعدهم شيئاً معلباً أتيكهم وأندبهم .  
لا أستطيع أن أنساهم ، ولا أقبض لي أن ألق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام غيبق الصدر ، كثير الضجر ،  
فخرج من المنزل هاتماً على وجهه ومضى في طريق مهددة بين  
المزارع لا يتوحي أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به  
المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولغياح فهاجت في نفسه  
تلك الذكرى الماضية ، ومضى إلى بيت الشيخ «مولر» ، فراحه  
وأدعته أنه لم ير أثراً لتلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا عرف  
ولا قيمان ، ولا ستوف ولا جدران ولا أشجار ولا أغراس .  
بل رأى أنقاضاً مبعثرة ، وجلوهاً متناثرة ، وأحجاراً ذائبة  
هنا وهناك ، فلم أن مآك البيت الجانبد قد خست ، وانزع  
أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآله ، ووقف أمامه  
مطرقاً خاشعاً وتوف المابد أمام عرابه ، وألقى والدروس جلال



في النفس فوق جلال الجدة والسران ، وظل على ذلك ساحة ،  
ثم أنه بطور طبيعي في تلك المرات الخالية ونيلس أثر من  
أثار تلك العالم التي قضى فيها أيام مساعده الأولى ، كما ينس  
الساري في ظلمة الليل نجمة القطب في ألباق السحب فلم يجد شيئاً ،  
فهذه صانعاً : ماذا صنع البحر في وبها ؟ لقد أكلتها وأكلني  
كل شيء ، بعد ما حتى آثارها ، وظل يتاجي تلك الأطلال الموارس ،  
ويستلظن نوبها وأعجابه ورسائلها عن أهلها وساكنها فلا يجيبه  
غير الصدى المتروك ، حتى جي بوقته ، فأنصرف ولقبة وجبات  
كأنها شقائق برق في السماء لواعج .

(٩٧)

بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كونلايس وأنديتها وجمعيها ،  
وكان غرة جيبها الثلاثة ، وشئس جبالها الساطعة ، فسادت  
منه فساداً ومعارفه وصنائع أياديه ولواضحه ، والمجربون بذلكه  
وشيوخه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل  
اليوم ، فبالهم الأمر وتعاضلهم ، وأشفقوا أن تخطف يد البحر  
من أيديهم تلك الحياة القصيرة الزاهرة التي لم يتمتعوا بها إلا قليلاً  
من الأيام ، فتمنى بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جميع  
عظيم ضم بين عاشيقه كثيراً من كبار الموسيقيين ونوابغ المطيحين  
ورجال الشعر والأدب ، فاجتمعوا رأيهم على زيارته في قريته ،  
والأ يزاولوا به حتى يجر عزله ويورد إلى حياته الأولى بينهم ،  
فكتبوا إليه أنهم والمجنون لزيارته غداً ، ثم ركبوا في أصل اليوم

الثاني عجلاتهم . واستصحب كثير منهم لسانهم وفتياتهم ، ودعوا  
إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسمه متطفاً كأنه لا  
يفسر بين جنبيه لوعة ولا ألم ، وكان قلبه لا يلوي بين أضياله  
غوب السيكة في يوتفتها ، فطمعوا فيه إذ رأوه .

وعجل إليهم أنه قد يرى عما به أو كاد وأن عليه الصغرة الرقيقة التي  
لا تزال تليس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سيلعب مع الأيام  
وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة لغشاء ، فجلسوا إليها وكانوا  
نفاً وثلاثين رجلاً وامرأة وجلس هو بينهم يتحدثهم ويترقبهم بملحه  
ونواذره ، ويحجب في أحاديث معهم كل ما يتعلق بكارته ، فلم يجرؤ  
أحد منهم أن يفاته فيها حتى فرضوا من الطعام فصرخوا في أنحاء الحديقة  
زمرراً زمرراً يترنسون ويسبحون ، حتى مضت قطعة من الليل فافترج  
أحدهم أن يوثي باليد إلى قضاء الحديقة ليوقع عليه من بشاء منهم ،  
فأثب به ، فجلس إليه الموسيقي « فردريك » ووقع عليه لحناً من ألحان  
السيغار العظيم ، يتهوون « فطرب له السامعون طرباً عظيماً ، وقال  
أحدهم : لقد كان يتهوون الرسول الإلهي الذي بعثه الله إلى البشر -  
ليخاطبهم بلغته ، فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقيين  
جميعاً أن يتلقى بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها وأن يكون  
في لحانه عذبة كالماء ، وحسناً كالسحاب ، وعذبة كالبحر ، وحسناً  
كالطير ، وعذبة كالنجم ، فقال الموسيقي « مورات » نعم ، ولكنه  
كان شيء الحظ عاثر الله ، فقد قضى حياته فقيراً معدماً يسبح إلى  
الكفاف من العيش فلا يجدد وحاملاً مفعوراً ، يطلب الشهرة من طريق  
التمس فلا يظفر بها ، حتى مات شريفاً عزيزاً في وطن غير وطنه ،  
وبين قوم وأسرة غير قومه وأسرت ، فقال الشاعر : « سيدروف » من  
منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة لمخلصه عليها ؟ فقال استيفن : أنا أفصها  
عليكم ، لأنني أعلم الناس به فقد كان أستاذي « هرمل » ورحمة الله عليه

صديقه الذي عاشره في أكثر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده .  
وكان كثيراً ما يقص على ذلك التاريخ وهو يركي بكاء شديداً فأنا أرويه  
لكم كما كان يحكي به ثم أقبل عليهم وأنشأ يقول :

لقد تسا الدمع على يتهو من تسوة عظمي لم يقصها على أحد من قبله  
من رجال الفنون والآداب ، لقد وضع للعالم تلك الموسيقى السماوية  
العالية التي حاكى بها الطبيعة في نعماتها وذنائبها ، وصور فيها أدق  
عواطف القلوب وعيوبها ، فلم يحفل بها الناس ، كثيراً ، ولم يأبوا لها ،  
وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التي كان يثاني  
الموسيقيون الماحضون في تنسيقها وتوزيعها تأني النحات في صنع التماثيل  
الجميلة التي لا روح فيها ، والتناوب بها اختلافاً عظيماً فلم يستطيعوا أن  
يلعبوا غيرها أو يبدعوا شيء سواها ، ولم يكن مصابه يجهل الناس إياه  
واحتقارهم له بأقل من مصابه بمجد حساده من أبناء حرفته ، واضطامهم  
عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هؤلاء ، فهم الذين تقفوا في وجهه ،  
واهترسوا سبله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بذلك القيامة الجميلة  
الرائقة بإتصالات المزم والسحرية . وذهبوا كل مذهب في النيل منه ،  
والويلع به ، والنقص من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضلهم ومقداره ، وفيمة  
ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وخرائباها ، ولكنهم عجزوا  
عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم يد من أن يبدعوا  
حول تحريكه الساطع المتألق في سماء الفكر سيقى هذه الغيرة السوداء من  
إتساب والطاعن ، فلا يرى الناس أشعثه ، ولا يمكنها حتى أن « يبدن  
نفسه وكان أكثرهم اعتدالا » وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن  
يسمح لنفسه بأن يقول عنه في تعريفه أكثر من أنه « عازف ماهر »  
لكان مثله في ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جينيته » إنه  
« يحسن الإبداع » !

ولم يزل هذا شأنهم منه حتى نفصوا عليه حياته ، وذهبوا براحة  
نفسه وسكونها وملاؤوا قلبه وساوس وأوهاماً ، لمسه ظله بنفسه وأصبح  
يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره وتبوغه ، ولولا أن صديقه « هويل  
كان مرآة العداوة التي يرى فيها نفسه من حين إلى حين لنقص يده من  
الموسيقى لنقص قياس القناط ، ولحرم الأمة الأمانة هذه القيامة  
الديعة الساحرة التي لم يخلق قط شبيهاً في العالم طغت الدنيا حتى اليوم  
غويل للأشجار الخيلاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا وماذا كان يكون  
شأن الموسيقى في العالم لو لم لهم ما أراخوا ؟

ولم يستطع يتهو من أن يصبر طويلاً على هذه الظلمة القاذرة التي  
نالت وضافت ذرعه بذلك التفرقات المؤلمة التي أصبح الناس ينظرون بها  
إليه كلداً منى في طريق أو ظهر في مجتمع ، فلم يخلق المقام بينهم ، ولا  
العيش فيهم . فظل ينتقل في أنحاء البرد قلوباً ورواحاً ، لا يهبط ببلدة  
حتى يطير به الضجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس في مكان  
حتى تنزب عنه في مكان آخر ، وكان له في فطنته أمره ثروة صالحة  
يعود بها على نفسه وذوي قرياه ، ولكنه كان من أصحاب الملكات  
الشعرية والشعر والحزم لا يجتسمان في رأس واحد ، فلم يزل به لإمرائه  
وتخرقه حتى أصبحها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير  
غيتارته ، وغيتارته سلعة كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها من أحد ،  
فزهد المجامع والمحافل وعاف المذايق والقرى . وقر بنفسه إلى الغابات  
والأحراش وقسم الجبال وضفاف الأنهار ، وهناك في خلواته يستمرزله  
حيث لا يسمع صوتاً غير الطبيعة ، ولا يرى وجهاً غير وجه الله ، أخذ  
يش قيثارته آلامه وأحزانه ويسكب مدامه التزيرة بين مثاليها ومثاليها  
ويطبع وهو يجائع طاول سفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي  
يعيش الموسيقيون اليوم بهركتها عيش السماء ، ويتصورون في خلالها بنعمة  
العيش الرغيد .

وكثيراً ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر النانوب فيهم  
على ضفاف ذلك النهر أياماً طويلاً لا يقترش إلا العشب ، ولا يلتفت  
غير الطفل ، ولا يطعم إلا ما يقذف به إليه النهر من أحيائه ، حتى يعبر  
به صليبه « هومل » فيعود به إلى الممران .

ولم يفتح النهر منه بئسك حتى رماه في أنجر أيامه بالصمم ، فلم  
يأسف هذه التوبة كثيراً ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على ذلك فقد  
كفاني نصف ضرور الناس فلم يكلفني نصفها الآخر ، فلا أرى في  
وجودهم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أهد الناس  
يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقى المجنون ، فلم يسمع شيئاً  
بما يقولون .

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئاً ساكناً لا يشكو ولا يتفجع بسبل لا  
يشعر ولا يتألم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » لعاش فيها  
وحيداً مفرداً لا يسمع إلا صوت قلبه ولا يصغي إلا لتلك التفسعات  
الداخلية التي تتردد بدون انقطاع في أعماق نفسه ولا يرى أحداً من  
الناس غير صليبه « هومل » من حين إلى حين ، فإذا جاءه طرح عليه ما  
وضع من الأكلان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر وهو باقي في  
مكانه لا يفارقه .

وكان الناس قد أصبحوا يأثرون أنذامه بعض الشيء ويصنون إليها  
لا لأن حساده قد هداؤا عنه ، أو انتطعوا عن مآثره والغض منه . بل  
لأن تنظيمه سلطاناً فوق سلطان الضعاف والأغفاد ولأن السحب المطبقة  
في آفاق السماء لا تستطيع أن تغطي نور الشمس ، بل تحجب ضياعها  
عن العين لحظة من الزمان ثم لا تلبث أن تتشع عنها فإذا هي ملء العين  
والأنظار .

ولم يقض في عزله هذه زمناً طويلاً حتى ورد عليه كتاب من ابن  
أخت له في « فينا » كان قد نبأه في سفره وأحبه كثيراً بقول له فيه :  
إني منهم بتهمة عظيمة لا سبيل لي إلى الخلاص منها إلا بحضورك ،  
فاسر إليه دون أن يقابل صليبه « هومل » ولم يكن معه من المال ما  
يقوم بنفقات سفره ، فكان يمشي على قدميه حياً ويركب عجلات الثقل  
أحياناً ، حتى قال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق  
إلى « فينا » لا يزال بعيداً فمر ذات ليلة بيت مفرد في ظاهر إحدى  
القرى فوقف بابه وأخذ يقرعه قرعاً خفيفاً فخرج إليه صاحب البيت  
وسأله : ما شأنه ؟ فقال له : إني شيخ أسم غريب عن هذه الديار وقد  
أظللت الليل وحجرت عن المسير فلا أستطيع المضي في سبيل ، فأتيت  
لي بمضجع أوي إليه بقية ليلتي ، وإن شئت فأمر لي بكسرة خبز أسد  
بها رمقي فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحمله من بيته أكرم على وأسماءه  
وكان للرجل إستان في سن الشباب فقامت بين يديه تحمله حتى رجعت  
إليه نفسه فهدمه إلى المائدة فأكل منهم ، ثم مشى إلى معطل في أحد  
أركان القاعة فجلس إليه يصطلي ويغف ثيابه وكان صاحب البيت من  
المولعين بالموسيقى والمغرمين بتوقيفها ليلتهم ونهارهم ، فما فرغ من  
الطعام حتى جلس أمام « يانو » وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذي بين يديه  
حتى وقع على ما يريد به ، فأشار إلى ابنته أن تأخذ قيثارتيهما ففعلتا .  
وأثعلوا يعزفون جميعاً بتقنة واحدة فالتفت بينهما ينهوفن بمنظرهم وإن لم  
يسمع من غنائهم شيئاً وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك  
الحن الذي يوقونه سلطاناً عظيماً على نفوسهم فقد رأوا متأثرين عند  
توقيعه أثراً شديداً ، ورأى صاحبة البيت وخادمتها قد تركتا ما كانتا  
يشغلتان به من شؤون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع وقد سكنت أطرافهما  
وتأمل وجهيهما ، وذهبتا يصبرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك  
التمعات في طريقها إلى الملاء الأعلى ، حتى انتهت القطعة فاغرورقت



عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألقت الكبرى بنفسها بين قراصي  
أمنها وبكت بكاء شديداً .

فتنهض يتيهوفن من مكانه ومنى إليهم وقال لهم - لأنني لم أستطع  
أن أسمع شيئاً من أبحاثكم أيها الأصدقاء ، ولكنني استطعت أن أسمع أنها  
ألحان جميلة مؤثرة فأنثرت معكم وطربت لطربكم ، ولقد كنت قبل  
أن أحل لي هذه التكية التي ترونها أحب الموسيقى حباً شديداً ، ولا يلد  
لي في الحياة شيء مثل استماعها ، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر  
الموسيقى لأقرأ القطعة التي كنتم ترقعونها ؟ فأولموا إليه بالإيجاب فأكب  
على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها في رأسها  
حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده وارتفض جيبه عرقاً ، ثم أخذ يبكي  
بكاء شديداً ، فالتفت القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذعورين ،  
وأحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم  
يفهموا ما يريد ، فقال لهم : إنها قطعتي أيها الأصدقاء وأنا الموسيقي  
يتيهوفن ، فدمعوا جميعاً ، وظلوا ينظرون إليه باحدين مذعولين ، ثم  
رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وجثوا بين يديه خاضعين متخشعين ،  
وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحد بعد الآخر ، فكانت هذه الساعة  
هي الساعة الوحيدة التي فاق فيها لذة الاحترام في حياته ، وكانت هي  
ببيتها الساعة التي رفرغ على رأسه فيها طائر الموت فقد شعر تلك  
اللحظة بوخزة مؤلمة في جيبه ، فنساقط في مكانه ، فلقوه على أيديهم ،  
واحتلوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله بطلونه ويستشقون له ،  
فيستيقظ مرة ، ويستغرق في شئبه أخرى ، حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أسر سفره فتبعه في الطريق التي سلكها  
وظل يسأل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل إليها ،  
والبيت الذي نزل ، فعمد إليه فقرأه في سكرته التي يمايلها ، فجلس

بجانبه يبكيه ويتوجع له حتى انتهى له ييهوفن بعد حين . فابتسم له إذ  
رآه وقال له : هل جئتني بقيثارتني يا هومل ؟ قال نعم يا سيدي وما هي  
ذي ، فتناولها منه وتناقص متكئا على إحدى يديه ؟ تمكن من الجلوس  
وأشأ يوقع على مسبح من القوم لحنة الحزن المشهور : « رب لم أشقيني  
وما أشقيت أحداً من عبادك » فما أنه حتى ارتعدت يدها وجعلت  
الموت . ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل فأمسك بيده ونظر  
إليه نظرة طويلة وقال : ألم أكن في حياتي عظيماً يا هومل ؟ قال :  
على وأكبر من عظيم فتعلل بالشر وأكبر من عظيم فتعلل وجهه بالشر  
وأسيل عينيه وهو يقول : « الآن أموت سعيداً ؟ ثم قضى !

وفي اليوم الثاني حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية الحفير  
دفن فيها ، ولم يشع جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة  
التي مات بينها ، وكان هذا كل حظه من الحياة .

( ٩٨ )

### لحن الموت

ما وصل استيفن في حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتلفظن  
جيبه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فالتفت إليه القوم فإذا هو واضع يده  
على قلبه ، وإذا دموعه تتحدر على خديه متتابعة ، فقال له أحدهم :  
ما بك يا استيفن ؟ فرقع رأسه بعد هنيهة وقال : إنما أبكي على هذا  
الرجل المسكين الذي عاش في حياته شقياً ومات مسكيناً ، ولم يتسم له  
الدهر في يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة يكافئه بها على يده التي أبدا  
إلى هذا المجتمع ، وكأنما قد كتب للعالمين على وجه الأرض جميعاً أن



يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة في الصحارى المحرقة ، تظلل الناس  
بوارف ظلها ، وهي تصطلي حر الهاجرة وأوارها ، ولو أن القسطن  
انصهم وولاهم أجورهم لما شهد أحد في الحياة سعادتهم ، ولا هنى  
فيها هناءهم .

فصمت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ويرسل  
في حديثه بعض الزفرات التي تتلجج في صدره .

ولأنهم لذلك إذ نهض من مكانه بقة ومشى بقدم هادئة مطمئنة  
حتى وصل إلى كرسي البيانو ، فجلس عليه ثم التفت إلى القوم وقال  
ثم : هل تأذنون لي أيها الأصفياء ، وقد قصصت عليكم تاريخ حياة  
بيتهوفن أن اسمكم لحنة الأخير الذي وضعه في آخر ساعات حياته ؟  
فهللت وجوههم فرحاً ، وقد علموا أنه إنما يريد أن يسري عن نفوسهم  
تلك الكتابة التي غشيتها منذ الساعة ، فقالوا جميعاً : نعم !

فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيني وما أشقيت أحداً من عبادك  
وبغية بصوت ضعيف خافت ، ثم أعلت عواطفه تشتمل شيئاً فشيئاً ،  
فدلاً صوته . وأنشأت نغماته تنتشر في أجواز الفضاء ، فسمع القوم  
تلك الموسيقى السماوية العالية التي لم يخلق الله لها مثيلاً ، والتي هي غاية  
ما أنشجه العقل البشري ، فأطرقوا برووسهم لإجلال هذه العظمة المشرقة  
عليهم من سمائها ، وعجل إليهم أنهم لا يرون بينهم معنى يوقع حس  
أوتارها ، بل تآكلاً متضجماً يلف مدامه ويصعد زفراته ، حتى  
الموسيقى « مورات » همس في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً : إن  
الرجل لا ينبغي بل يموت ولأن أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة ،  
وكان كلما استمر في غناؤه اشتد تأثره وانتهت عواطفه ، وتلون صوته  
بلون الأنين المحزن ، حتى لم يبق عن نفسه وعما حوله ، واستولت عليه

حالة غريبة من الدهول والاستفراق .

وما أتى على النغمة الأخيرة ، وكانت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها  
في أجواز الفضاء ، حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وانحدوا  
بصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون « ليحيا استيفن » .

ولأنهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له بالحياة الطويلة  
يتدافعون إلى مكانه لتنهته وتمجيده ، إذا بهم ينتظرون إليه فيرونه  
مائلاً برأسه على ظهر كرسيه ، وقد اقشعر وجهه ، وتغيرت سحته ،  
وأمسك بكفحه على أحشائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت  
بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التي مات عليها بيتهوفن في  
قبعته التي قصها عليهم منذ الساعة ، فثامموا وانقبضت نفوسهم ،  
وأحاط به جماعة منهم فاحتلوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه  
ثم نظر إليهم نظرة اليأس ، فأطرقوا واجمين مكثيين واحتاطوا بسريره  
ينتظرون قضاء الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بهما حوله ونطق  
باسم « فرتر » وكان حاضراً غلباء ، فنظر إليه طويلاً ثم نطق باسم  
« ماجدولين الصغيرة » فما لبث أن جاءها بها ، فوضعا إلى صدره وقبلها  
قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينيه  
إلى السماء مرة وإلى فرتر أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله  
على ذلك . ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهاق : « أشهدكم  
أيها الأصفياء أن جميع ما تملك يدي تسمه بين هذين » وأشار إلى فرتر  
والطفلة ، ثم عاد إلى ذعوله واستفراقه وأمسك بيده وظل يحس  
تلك ساعة ، ثم فتح عينيه مرة أخرى ، فرأى القوم ييكون من حوله  
يضيغون له ، فمرت بشفته إبتسامة خفيفة ، كأنما اغتبط بمنظر تلك

المظنة التي تجلّت له في دموع هؤلاء العظماء . وأخذ يقلب صيته فيهم  
فتقدم نحوه الموسيقي فردريك وكان أعظم القوم شأناً وأكبرهم سناً .  
وقال له : هل توصي بشي . يا مولاي ؟ فحاول النطق فلم يستطع .  
فظل يعالجه حباً حتى استفاد له . فأثناً يقول : أوصيك يا فردريك أن  
تجمع ألهاني كلها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب  
تاريخ حياتي كما يعلمه فرتر ثم تنشره في الناس ، وأوصيك يا فرتر أن  
تدفني مع ماجدولين في قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة  
وتحميها مما تخشى منه أهلك وولذك ، حتى إذا بلغت زوجتها من الزوج  
الذي تختاره لنفسها

وأوصيكم جميعاً ألا تحزنوا على موتي . فإني وإن قصيت حياتي  
شقياً فما أنتم ترون الآن أنني أموت بينكم سعيداً . وكان هذا آخر  
ما نطق به . ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده .  
ولكنه أحيأ نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدة .

( ٩٩ )

## النهاية

أما أسرة فرتر فقد سعد حالها ، وأصبحت في نعمة واسعة من  
العيش لا ينقصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين  
الصغيرة فقد تولى فرتر شأنها وريائها مع ولده . « برنار » الذي رخصت  
معه في صغره - تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاسد المدينة وآفاتنا حتى

شبا فتعابها حباً شريعاً طاهراً فأنتهى بها الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد  
عيشة وأمنأها . وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين  
وحفظته نذكراً لاستيفن ، ولا يزال حتى اليوم مزاراً يزوره الناس  
ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ السدي دونه الشاعر « سيدروف »  
ويرون حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحائها ، والحوض المقام  
في وسطها ، والسياح الدائر من حوله والمقعد الذي جلس عليه استيفن  
وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والفرقة الزرقاء التي كانت غرفة عرس  
ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة استيفن ، وقبائره ، والبيانو  
الذي وقع عليه في ساعة الأخيرة « لحن الموت » .

فلذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فرأوا ذلك القبر  
الذي دفن فيه الشقيان البائسان . فلبس تربة بالدمع منهم من نكب في  
صياحه يمثل نكبتهما أو عاش فيها شقياً كعيشها .

تمت